



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

صافي صافي روائياً

نبيل نعيم عقيلان

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين
1429 هـ / 2008 م

(صافي صافي روائياً)

إعداد الطالب

نبيل نعيم عقيلان

بكالوريوس لغة عربية من الجامعة الأردنية - عمّان

إشراف الأستاذ الدكتور : عادل أبو عمشة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية
في كلية الآداب قسم الدراسات العليا في جامعة القدس .

1429 هـ / 2008 م .

القدس - فلسطين



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس
كلية الآداب
دائرة اللغة العربية

إجازة الرسالة

صافي صافي روائياً

إعداد : نبيل نعيم عبد الفتاح عقيلان
الرقم الجامعي : 9910857

المشرف : الأستاذ الدكتور عادل أبو عمشة .

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ : 2008/7/26 من لجنة المناقشة
المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

- 1- رئيس لجنة المناقشة:
 - 2- ممتحناً داخلياً:
 - 3- ممتحناً خارجياً:
- التوقيع :
- التوقيع :
- التوقيع :

القدس - فلسطين
1429 هـ / 2008

إقرار

أقرّ أنا مقدم الرسالة أنها قدمت لجامعة القدس لنيل درجة الماجستير وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة باستثناء ما تم الإشارة له حيثما ورد، وأنّ هذه الرسالة، أو أي جزء منها لم يقدّم لنيل أية درجة عليا لأي جامعة أو معهد.

الاسم : نبيل نعيم عبد الفتاح عقيلان

التوقيع:

التاريخ :

الإهداء

إلى روح والدتي
وفاء و عرفانا

إلى من علمني الصبر وبتّ في نفسي العزم
إلى والدي

إلى تلك الشموع التي تحترق لتبديد ظلام الجهل
إلى أساتذتي

نبيل نعيم عقيلان

الشكر والتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير إلى اللجنة المشرفة على المناقشة لما قدمته من توجيه وإرشاد ساهما في إثراء البحث، وإخراجه على هذا الشكل، وأخص بالذكر المشرف على الرسالة، الأستاذ الدكتور عادل أبو عمشة، الذي لم يأل جهداً في إسداء النصائح المجزية، والتوجيهات السديدة، كما أتوجه بالشكر إلى الروائي صافي صافي على حسن تعاونه، واهتمامه.

وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث، وإتمامه.

نبيل نعيم عقيلان

ملخص الدراسة صافي صافي روائياً

يهدف هذا البحث إلى تتبع الفن الروائي عند الكاتب الفلسطيني صافي صافي، وسبر أغواره ، وذلك لاستكشاف خصائصه ، والدعائم التي شكّلت معالم هذا الفن لديه . حيث برز صافي على الساحة الأدبية الفلسطينية بعد صدور روايته الأولى " الحاج إسماعيل " وحصولها على جائزة اتحاد الكتاب الفلسطينيين في العام (1989) ، واستمر نتاجه حتى صدور روايته " الكوربة " في العام (2005) ، هي الفترة الزمنية التي تغطيها الدراسة لأعماله . وقد أصبح عضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب منذ العام (1992) حتى عام (2005) .

وتبدأ هذه الدراسة باستعراض نشأة الروائي ، وبيئته الخاصة والعامة ، موضحةً أثر هذه النشأة في تشكيل بذور ثقافته الأولى ، وانعكاس هذه الثقافة وأثرها الواضح في إبداعه الروائي .

ولما كانت الرواية تتشكل تعبيراً عن تفاعل الفرد مع محيطه الثقافي ، والاجتماعي وتصف التطور الناتج عن هذا التفاعل ، فقد تنوّعت تعريفات الرواية حسب مضامينها وأشكالها وقد تطرقت الدراسة إلى هذه الأنواع ، ووضحت معالمها الأساسية ، ووضعت أعمال الروائي في مواضعها منها ، ومن تلك الأنواع : الرواية التقليدية ، والرواية الحديثة ، والرواية التاريخية الحديثة ، والرواية الجديدة .

ثم تناولت الدراسة مضامين روايات الكاتب مرتبة حسب تاريخ صدورها وهي : (الحاج إسماعيل والحلم المسروق ، والصعود ثانياً ، واليسيرة ، وشهاب ، والكوربة) ، وقد سبق تناول التفصيلي لتلك المضامين تلخيص موجز لأهم الأحداث في كل رواية ؛ ليشكل ذلك مدخلاً لدراستها . وتم تناول هذه المضامين في كل رواية على حدة وذلك لتعدد مصادرها واختلاف تأثيرها وظاهرة التأثير ظاهرة القمع الذاتي والجمعي وذلك من حيث تعدد مصادرها واختلاف تأثيرها وظاهرة الاغتراب ، والحنين إلى الوطن والمرأة ، والطفل ، والتناقض القائم بين الأنا والآخر وتأثير هذه العلاقة على نمط الحياة وملاحمها . وقد ركزت هذه الموضوعات على النقد السياسي للأوضاع الفلسطينية والعربية وطرق التفكير، وسطحية الوعي التي أعاقت حركة تقدم المجتمع ووقفت عائقاً أمام تحرره . وقد سبق تناول التفصيلي لتلك المضامين تلخيصاً موجزاً لأهم الأحداث في كل رواية .

ومن ثمّ ذهبت الدراسة إلى تحليل عناصر العمل الروائي وفق المنهج التحليلي، حيث شملت : الشخصيات ، والزمان، والمكان، والحبكة، والصراع، وهو تحليل يقوم على الدراسة

المتأنية لكل رواية بشكل منفرد وذلك بوصفها عالماً منفرداً بذاته ومتميزاً بخصائصه ، وقد سيقت الأمثلة والنصوص من الروايات بما يعزز التحليل ويدعم الأفكار المطروحة ، كما شكّلت آراء النقاد والباحثين لأعمال الكاتب الروائية رافداً آخر من روافد هذا التحليل .

ثم تناولت الدراسة الظواهر الفنية في الروايات موضوع الدراسة ومنها : اللغة ، وتنوّع الأساليب السردية ، والحوار ، وظاهرة استدعاء الماضي ، وقدمت تعريفاً نظرياً لتلك المظاهر واستحضرت الشواهد والنصوص التي تمثل تلك المظاهر من الروايات ، وأفادت الدراسة من آراء النقاد والدراسات المتخصصة ، كما أنها لم تغفل بعض الظواهر الفنية الأخرى التي ساهمت في إثراء الشكل والمضمون الروائي كظاهرة توظيف التناص بأشكاله المختلفة والتراث والأسطورة ، حيث ساهم هذا التوظيف في الإثراء الثقافي للنصوص كما صبغها بصبغة إنسانية مؤثرة .

ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة ذلك الاهتمام المشترك للروائي مع غيره من الروائيين المحليين بالمكان، وتوظيف الأسطورة، حتى غدا ذلك سمة ظاهرة في الرواية الفلسطينية بعد توقيع اتفاقية أوسلو، وتوصي الدراسة بتتبع هذه الظاهرة، واستحضار الشواهد عليها من النصوص الروائية ، وتحليل أصولها ، ونتائجها على الفن الروائي الفلسطيني .

Abstract

Safi Safi as a novelist

This research has aimed to trace and fathom the narrative art of the novelist Safi Safi in an attempt to explore the underpinnings and the characteristics which have shaped the distinctive features of this art. Safi has gained recognition in the literary arena since the publication of his first novel, Haj Ismael, which won the Palestinian Writers Union's award in 1989. Since then, Safi has written a number of novels, and has become a member of the writers' union's executive committee since 1992. The present study covers the period between 1990 and the appearance of Safi's The Curve in 2005.

The study opens with an overview of the novelist's upbringing and the micro-macro cosmoses that constituted the environment in which he was raised, with some attention being paid to the manner in which that upbringing helped to shape the formative seeds of his education in a way which left its impact on his fictional creativity. For, the young Safi opened his eyes to the scenes of the 1948 Nakba, which he had to undergo with his family at the outskirts of Deir-Amman refugee camp in the Ramallah district. With the rest of his Palestinian people, Safi has all along shared and embraced the dream of return to the native soil and also of being freed from the anguish of homelessness. However, at the age of twelve, and like many of his generation, he suffered the shock of the 1967 Arab defeat which left a tremendous impact both on his heart and mind. Afterwards, Safi became more directly involved in political activities which led him to suffer the experience of imprisonment (1980) in a way that left its marks on most of his fictional writings.

Now in as much as the novel constitutes an expression of the interaction between the individual and his social and cultural milieu, and in as much as it describes the kind of evolution resulting from the aforementioned interaction, this literary genre has admitted a variety of definitions based on its content and form, which has led to classifying novels into categories such as the conventional, the modern, the modern historical and the new novel. The present study has sought to demarcate these categories by clarifying the basic features of each category and has then placed the novelist's works in their relevant categories. Subsequently, the study has dealt with the influence of the Oslo Accords on the content and artistic form of Safi's novels.

After clarifying the elements and features of theoretical definitions, the study has moved on to consider the empirical aspect where the specific content and subject-matter of each of the writer's following novels are explored in order of publication (Haj Ismael, The Stolen Dream, Ascending Again, Alyaseera,

Shihab, and finally The Curve). This laying out of relevant content and subject-matter constituted a preface, preparing the ground for going into the details of the narrative texture in Safi's works. The content and theme of each novel has been approached and dealt with separately to show the wide variety of subject-matter which included the following: the impact of self / collective oppression in the multiplicity of its sources and the variance of its effects; the phenomenon of displacement and homesickness; the duality of the woman/child issue and the impact of oppression and exploitation on their intertwined fates; and the extant contradictions between the self (ego) and the other in as much as the relation between the two influences life style and its various features. The study has shown how these themes have focused on politically criticizing the internal Palestinian situation and its Pan-Arab counterpart as well as exposing the existent patterns of thinking and the shallowness of awareness which have both obstructed the movement of social progress and emancipation. A succinct summary of the most important events in each novel preceded the detailed presentation of the above-mentioned themes.

Subsequent to the foregoing presentation the study has moved on to analyze the primary components of a novel, which include such elements as character, setting (time and place), plot and conflict. This analysis was based on a thorough analysis of each individual novel as a distinctive and independent entity in its own right. Examples and parts of text have been cited to reinforce the analysis and support the presented remarks, all against a background of the critical views of other researchers and critics who concerned themselves with the works of our novelist.

After this, the present study dealt with the artistic aspects in the novels covered here, paying special attention to such aspects as language, variety of narrative styles, dialogue and flashbacks. The researcher has noted how the variety of styles reflects the variety in themes and implications in Safi's different novels. The study has provided theoretical definitions for all artistic aspects and cited relevant examples and texts to illustrate each given aspect, making use also of the opinions and views of critics and other specialized studies. Nor has this research overlooked other artistic phenomena which have likewise contributed to enriching the fictional/narrative form and content in the novelist's works such as the phenomenon of utilizing different types of intertextuality as well as heritage and mythology which have all added to the cultural enrichment of the texts and have helped to adorn them with an effective human touch.

Through exploring the various aspects of form and content in Safi's fictional experience, and presenting the most important critical views about his literary

endeavor, this study has sought to respond to a number of questions regarding the fictional/narrative art of Safi Safi: Has the novelist succeeded in making good use of, and employing well in his works, the modern techniques of narratology? What are the most salient influences on Safi's narrative art of some major political events such as the signing of the Oslo Accords? Has the novelist succeeded in depicting the concerns and sufferings of the Palestinian people in its persevering attempts to attain political, social and cultural emancipation? How has the novelist managed to set out from his own private vision and his personal experience to reach the sphere where he mirrors the broader human experience in its yearning for progress, liberation and getting rid of ignorance and captivity? The answers to these questions are to be found spread out throughout the different sections of this thesis. In fine, the study has also noted the interest that the novelist has in common with other local novelists in foregrounding place and intensifying the employment of mythology to the extent that the use of such devices has come to be regarded as a distinctive characteristic of the post-Oslo Palestinian Novel, which could constitute an interesting area of study for researchers concerned with Palestinian narrative art.

المقدمة

إن الأدب والفن في أجمل تجلياتهما إنما يقدمان المعادل الموضوعي الفني للواقع الذي نحيا ، وهو المعادل الأكثر إنسانية وعدلاً ورحمة وأملاً. وربما كان ذلك هو السبب الرئيس وراء انتشار أنواع الفنون والآداب، وتأتي الرواية على رأس هذه الفنون في وقتنا الراهن.

ومن مبررات دراستي الفن الروائي عند صافي صافي، أنها تأتي ضمن اهتمامي بدراسة الرواية العربية بشكل عام ؛ لما لهذا الجنس الأدبي من حضور لافت لدى قرائه ، وذلك لما يقدمه من تجارب إنسانية عميقة ، تساهم في إثراء ثقافتهم الإنسانية ، حيث أن فن الرواية بات يشكل وجهاً أدبياً كاشفاً لمعالم وخصوصية أي مجتمع من المجتمعات، مثلما يقدم دراسة اجتماعية تاريخية لأحوال الشعوب، بأحلام أفرادها وآمالهم وانكساراتهم، وهكذا الرواية الفلسطينية فإنها تتقصى المشهد بأبعاده الاجتماعية فتقدم شهادة على درجة كبيرة من الأهمية في بحثها المعرفي ، الذي يخوض في تجربة فيها الكثير من الاختلاف عن تجارب الشعوب التي عاشت تحت الاستعمار أو الاحتلال الخارجي .

ويعود سبب اختياري للكاتب صافي صافي إلى إنتاجه الأدبي الممتد والمتنوع، فبالإضافة إلى رواياته الست - موضوع الدراسة - فقد شارك الأديب بدراساته ومقالاته الأدبية والنقدية المنشورة في الصحف والمجلات الفلسطينية والعربية، وقد تناولت العديد من الدراسات أعمال الكاتب الروائية بالنقد والتحليل ، فوجدت أن من حق هذا الأديب تناول فنه الروائي بشكل شامل؛ لأضحه بين يدي الدارسين ، لاسيما أن الفترة الزمنية التي كتبت فيها رواياته تغطي مرحلة هامة في حياة الإنسان الفلسطيني ، وتوضح غاية الإنتاج الأدبي ، وذلك في قالب أدبي متطور يحقق تبادل الخبرات الإنسانية من جهة ويوثق الكثير من المشاهد الحياتية في ذاكرة فردية وجمعية لا تعرف الوهن أو الملل .وقد شهدت هذه الفترة مجموعة من التحولات الهامة التي ألفت بظلالها على الرواية الفلسطينية .

وتتمثل أهمية الدراسة في أنها تتناول روائي فلسطيني ، لم يتناوله أحد من الدارسين وذلك في دراسة شاملة تحوي أعماله الروائية جميعها ،حيث اقتصرت الدراسات التي تناولت أعمال الروائي على جوانب محددة منها ، وذلك على شكل مقالات أو دراسات متفرقة ، كما تساهم هذه الدراسة مع غيرها في تسليط المزيد من الضوء على تطور الفن الروائي الفلسطيني .

أما الروايات موضوع الدراسة حسب تاريخ صدورها فهي :

الحاج إسماعيل (1990) والحلم المسروق (1991) و الصعود ثانياً (1994) واليسيرة (1996) وشهاب (2001) والكوربة (2005) .

وعلى صعيد الدراسات التي تناولت أعمال الروائي فمنها: دراسة في رواية الحاج إسماعيل للدكتور علي عودة ، في كتاب دراسات في الأدب الفلسطيني، حيث تناول رواية الحاج إسماعيل وعناصرها الروائية ، ودراسة للدكتور نادي ساري الديك ، في كتابه نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة ، الذي تناول المضامين الروائية في رواية اليسيرة وألقى الضوء على مفاتيحها ، والعلاقة بين الزمن الروائي وبين الواقع ، كما تناولت بعض الرسائل الجامعية نماذج من نصوص الكاتب الروائية في معرض دراستها للمضامين والأشكال الفنية في الرواية الفلسطينية ومنها : الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، للدكتور محمد أيوب حيث تناول نماذج لشخصيات مختلفة من روايات صافي ، كالطفل ، والمرأة ، كما تناول زكي العيلة في دراسته ، المرأة في الرواية الفلسطينية ، شخصية " نجوى " في الحلم المسروق وأثر بيئتها الخاصة في تكوين ملامحها النضالية ، وتعاملها مع الواقع الاجتماعي والسياسي .

وهناك العديد من المقالات والدراسات المنشورة في الصحف والمجلات التي تناولت أعمال الكاتب الروائية منها : توالدية القمع لدى صافي صافي " الحاج إسماعيل " للدكتورة إلهام أبو غزالة ، مجلة الكاتب : القدس ، ع125 ، 1990 ، والصعود ثانياً للأديب صافي صافي تحسين منصور ، الكاتب : القدس ، ع162 ، 1995 ، وصافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانياً إلى أين ، بقلم محمد الحاج مجلة نوافذ : نابلس ، السنة الأولى ، ع5 ، تموز ، 1996 ، وقراءة في رواية صافي صافي " اليسيرة " جمال يونس ، الحياة الجديدة : رام الله ، 5 / 7 / 1997 ، ورواية الكوربة لصافي صافي - منحى الزمان والمكان في فلسطين - علي الخليي صحيفة الأيام : رام الله ، 29 / 8 / 2005 .

أما منهج البحث الذي اعتمده في هذه الدراسة فهو المنهج التكاملي الذي يقوم على إعطاء الأولوية للنصوص الروائية وتتبع بناها الداخلية وتحليل دلالاتها ، وهذا المنهج يتيح للباحث التحرك في كل اتجاه ، فقد أفدت من المنهج الاجتماعي في دراسة الشخصيات الروائية ضمن واقعها الذي تنتفس من خلاله ، والمنهج النفسي في تفسير تأثير بعض الظواهر التي برزت في الروايات كظاهرة القمع الذاتي والجمعي وظاهرة العنف وغيرها .

ويتألف البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة . ويقسم التمهيد إلى مبحثين حيث يتناول المبحث الأول ، تطور الرواية الفلسطينية وفق مضامينها وأشكالها الفنيّة حتى بداية التسعينيات من القرن الماضي، أما المبحث الثاني فيتناول السيرة الذاتية للكاتب ، وقد استعرضت

فيه أهم المؤثرات التي ساهمت في تكوين ملامحه الثقافية والأدبية وأثر بيئته الخاصة والعامة في نتاجه الروائي .

أما الفصل الأول : المضامين الروائية عند صافي صافي ، فيقسم إلى ستة مباحث يقوم كل منها على تتبع المضامين المختلفة التي قامت عليها كل رواية من الروايات موضوع الدراسة على حدة ، مما يتيح التفصيل والشمولية في تناول هذه المضامين التي اختلفت وتنوعت بيد أن هذا الأفراد في تناول ، لم يحل دون الربط بين المضامين التي اشتركت في أكثر من رواية كالمرأة ، والآخر ، والقمع الذاتي والجمعي واختلاف تأثيره على الشخصيات المختلفة كما تناول هذا الفصل مجمل القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية التي رسمت عالمه الروائي والذي عكس بصورة صادقة وعميقة العالم الواقعي . وقد سبق التحليل تعريف موجز لكل رواية ليشكل مدخلاً قبل الولوج في الدراسة التحليلية والتفصيلية .

أما الفصل الثاني : عناصر الأعمال الروائية عند صافي صافي ، فيقسم إلى ستة مباحث يقوم كل منها على تقصي عناصر كل رواية من الروايات موضوع البحث وذلك من خلال : الشخصيات ، والزمان والمكان ، والصراع ، والحبكة .

أما الفصل الثالث : ظواهر فنية في روايات صافي صافي ، فيتناول التقنيات الفنية المختلفة التي وظفها الكاتب في بناء عالمه الروائي كاللغة والسرد والحوار والاسترجاع الفني وتيار الوعي ، كما تناولت بعض الظواهر النقدية التي أثرت الشكل والمضمون كالتناص والتراث ، والأسطورة ، والجنس ، ودلالات العناوين ، وصور الأغلفة وارتباطها بالمضامين الروائية .

أما الخاتمة، فقد أوردت فيها مجموعة من النتائج التي تتعلق بالفن الروائي عند صافي وأهمها : ذلك الاهتمام المشترك للروائي مع غيره من الروائيين المحليين بالمكان، وتوظيف الأسطورة ، وانتهى البحث بقائمة المصادر والمراجع وفهرس موضوعات البحث .

وقد واجهت في إعدادي لهذا البحث العديد من المشاكل لعل أبرزها شح المصادر والمراجع ، ولا سيما تلك التي تعالج الأدب الفلسطيني بعد مرحلة أوسلو ، كما أن الوصول إلى المكتبات المختلفة كان أمراً في غاية الصعوبة في ظل الحواجز والإغلاقات الإسرائيلية المتكررة . أمل أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة وألمت بجوانب البحث التي رسمت ملاحها في بداية هذه الدراسة، فإن أحسنت فذلك توفيق من الله العلي القدير وإن قصرت فمن نفسي وسلوأي في ذلك أنني أخلصت النية ، وبذلت قصارى الجهد لتؤتي هذه الدراسة أكلها .

والله ولي التوفيق

نبيل نعيم عقيلان

التمهيد

المبحث الأول : تطور الرواية الفلسطينية منذ النشأة حتى عام (1993) .

إن الرغبة في التعبير من خلال شكل فني ، أو أدبي هي رغبة في الحياة رغم الحدود الموضوعية أمام الإنسان، بمعنى أنها تأتي رغم سقف الموت ، وحتمية الزوال، ومحدودية الطاقة البشرية في استيعاب تجليات الواقع ، وتعقيدات العالم، كما أنها تتطلع إلى الأفق الرحب الذي يعطي الدلالة لتجارب الحياة، إضافة إلى إسعافها لنا على فهم الذات وعلاقتها المختلفة بما حولها. ومن هنا تصبح الكتابة جزءاً من مغامرة العيش ، والوجود ، ولازمة أساسية لتسليح الفرد في صراعه الأبدي مع القوى الخارجة عنه . (1)

ويمكن تعريف الرواية على أنها " فن الخروج عبر الذات إلى العالم الأوسع المتمثل في شرائح أخرى من البشر ، للعيش معهم ومحاورتهم في واقع اجتماعي تاريخي يضم في جوهره التوق إلى الحرية والتقدم والجمال " (2) .

أما عن تطور الرواية الفلسطينية فقد ظهرت بعض الروايات منها : الوارث ، لخليل بيدس عام (1920) ، ومذكرات دجاجة ، لإسحق موسى الحسيني عام (1943) ، لكن الدارسين أشاروا إلى عدم وجود رواية فلسطينية ذات أسس وملامح خاصة بها قبل العام (1948) وعدّوا الحديث عن وجودها في تلك الفترة تهويلاً ومبالغة (3) ، وقد احتلت الرواية الفلسطينية مكانة رفيعة في الأدب الفلسطيني والعربي منذ بداية الستينيات، واستطاعت التخلص من عقدة الشعور بالذنب ، لعدم استشرافها ضياع الوطن وتشرد الشعب (4) ، وقد شكّلت روايتنا "رجال في الشمس" الصادرة عام (1962) و" ما تبقى لكم " (1966) ، لغسان كنفاني قفزة هامة في تاريخ الرواية الفلسطينية، حيث خلجتا البناء الروائي التقليدي واتضح فيهما أسلوب تيار الوعي بشكل واضح .

وقد اختلف تعريف الرواية الفلسطينية وفقاً لتطورها الزمني ، حيث حمل هذا التطور تغيرات في الشكل والمضمون ويمكن تقسيم الرواية تبعاً لهذا التغيّر إلى ما يلي :

(1) محمد برادة ، الكتابة ، الحرية ومواجهة الإنهيار ، مجلة الكرمل ، العدد 82 ، 2005 ، ص 156 .

(2) فيصل دراج ، أفق التحولات في الرواية العربية ، ص 7 .

(3) إبراهيم السعافين ، نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين ، ص 16 .

(4) عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ص 491 .

1- الرواية التقليدية :

وتأني تسميتها اعتماداً على وظيفتها المتمثلة بالتعليم والوعظ والإرشاد⁽¹⁾، وهي مهمة بدلالاتها وإن تكن فقيرة ببنائها ومحتواها ، وقد حمل ظهورها - منذ بدايات القرن العشرين - أهمية أدبية تتمثل في وعي الذات الجماعية بضرورة البحث عن أشكال تعبيرية قادرة على خلق ذوق فني جديد ، وقد أسهمت في تخليص اللغة من قيود السجع والبلاغة الشكلية ، وساهمت في خلق قاعدة من القراء . وقد هيمنت الرواية التقليدية بمواصفاتها وموضوعاتها حتى الثلث الثاني من القرن العشرين⁽²⁾، وكان من أبرز من مثل هذه المرحلة خليل بيدس ، في روايته الوارث التي صدرت عام (1920) ، حيث أجمع الباحثون على اعتبارها الرواية الأولى فلسطينياً ، واسحق الحسيني في " مذكرات دجاجة " الصادرة عام (1943) . " ولم تمتلك الرواية الفلسطينية في هذه الفترة أسس ومقومات العمل الروائي ، كما أنها بقيت بعيدة عن واقعها ، ويمكن القول أن الرواية في تلك الفترة كانت سطحية وساذجة . " (3)

2- الرواية الحديثة:

وهي الرواية التي تساهم في تحرير الذات وذلك من خلال تحليل الواقع وتفسيره، وقد ظهرت لتلبي الحاجات الجمالية والاجتماعية المستجدة ، دون إغفال لأثر التراث وهي مرحلة انتقال الفن القصصي من البساطة والتقليد إلى مرحلة النضج الفني⁽⁴⁾، فقد كانت تعبيراً عن وعي فني متطور وتجسيدا لمفاهيم نقدية تتصل بوظيفة الرواية وصلتها بالواقع وعلاقتها بالمتلقي، وقد عكس هذا التجديد إحساس الأديب بالحاجة إلى أدوات جديدة في تحليل الواقع والتفاعل معه، وبهذا تتحدد غاية الرواية في البحث عن عالم أفضل. " كما أنها تسعى للتعبير عن العلاقات الاجتماعية القائمة أو الإسهام في خلق علاقات جديدة فهي تصدر عن وعي جمالي يتخطى حدود الوعي السائد"⁽⁵⁾ كما يمكن تعريف الحداثة في إطار الرواية أنها : " التناقض الجذري مع الواقع الموقف الرفض

(1) شكري عزيز الماضي ، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين ، ص 21 ، 22 .

(2) عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، 454 .

(3) بشار إبراهيم ، نظرة على الرواية الفلسطينية في القرن العشرين ، ص 35 .

(4) شكري عزيز الماضي ، م . س . ، ص 49 .

(5) شكري عزيز الماضي ، م . ن . ، ص 50 - 54 .

للثواب ، التخريب الخلاق ، البحث المستمر عن آفاق جديدة للعمل الفني التجاوز لما هو قائم ، الثورة على القيود والتقاليد .. وذلك من أجل شيء أكثر إنسانية وعدلاً ورحمة. " (1).

ولعل أهم ما يميز بناء الرواية الحديثة الفني ، ذلك التصميم الهندسي الذي يعتمد على البداية والذروة والنهاية والترابط بين الأحداث، كما أن التفاعل بين الحدث والشخصية يؤدي إلى نمو الأحداث وفق مبدأ السببية، وتهدف هذه الروايات إلى التأثير في القارئ عن طريق تقديم حقائق نوعية وفنية بصورة مقنعة ولذلك فقد اهتمت الرواية بالتفاصيل والجزئيات وتصوير نثرية الحياة، ويعد جبرا إبراهيم جبرا رائد الرواية الحديثة في فلسطين ، حيث تعتبر روايته " صراخ في ليل طويل " والتي نشرت عام 1955 ، أول رواية حديثة بالمعنى الفني ، وتبدو سمات التحديث في أمور منها :

- أ- تطويع القص للتعبير عن أزمة الفرد والإنسان حيث تخلص من كونه للوعظ والتعليم أو للتسلية الخالصة.
- ب- استخدام ضمير المتكلم حتى النهاية، حيث يختفي الراوي التقليدي ويتواجه القارئ والسارد دون وسيط.
- ت - استخدام تقنيات السرد كالتداعي والحوار الداخلي مما يساهم في سبر أعماق الشخصية المحورية.

ث - التشويق من خلال التناوب بين السرد والوصف والحوار وتصوير بعض النزعات النفسية.

ج- القدرة على خلق الإيحاء من خلال اللغة . (2)

ويمكن تصنيف الروايات التي تصور تجربة الكفاح المسلح من منظور خاص ضمن الرواية الحديثة، حيث تعالج معاناة المناضل وحيرته ونفده لقيادته، وتلجأ هذه الروايات إلى الأسطورة بحيث يحملها الكاتب رؤية معاصرة مع بعض المفارقات (3) ، كما تصور هذه الروايات

(1) عبد الرحمن منيف ، الكاتب والمنفى ، ص 73 ، ص 74 .

(2) شكري عزيز الماضي ، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين ، ص 54 .

(3) شكري عزيز الماضي ، م . ن . ، ص 65 .

صمود الناس وتحديهم وخوفهم وضعفهم ، ومن هذه الروايات : " البكاء على صدر الحبيب " لرشاد أبو شاور الصادرة عام (1974) ورواية " الطوق " لغريب عسقلاني الصادرة عام (1979) ، وقد امتاز هذا النوع من الروايات بالتسجيلية الوثائقية وتوجيه النقد للأنظمة والأحزاب والأفراد .

كما يمكن تصنيف الروايات التي وقعت عند الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام (1987) ضمن الروايات الحديثة ، فهي تصور الصراع الدرامي على أرض فلسطين، وتبدو شخصياتها عادية بشرية ، تحلم وتفكر وتفرح وتتألم وتصارع من أجل الحرية والحفاظ على الإنسان ، ومن ذلك رواية " الشمس في ليل النقب " لهشام عبد الرازق والتي صدرت عام 1991 .⁽¹⁾

وقد تميزت روايات الانتفاضة بأنها كتبت تحت قهر الاحتلال اليومي⁽²⁾، فالإبداع الروائي قد تمت صياغته تحت نار العنف والمقاومة ، ورافقت الرواية الحدث وسجلته إبداعياً كما أن الكثير من روائيي هذه المرحلة قد مارسوا السياسة ، مما منحهم وعياً بالنقد الذاتي للتجربة خاصة وأنهم طوعوا أدواتهم لمحاربة الاحتلال الذي حاربهم بدوره ، مما أكسبهم وعياً ذاتياً مستقلاً .

3 - الرواية التاريخية الحديثة:

وقد ظهرت في العقد الأخير من القرن العشرين، نتيجة تنوع أساليب التفاعل مع التاريخ حسب رؤية الأدباء للأزمان الثلاثة ، " ويفرض هذا النوع من الروايات التعامل معها على أنها أعمال فنية لا وثائق تاريخية، فهذه النصوص الروائية ليست تاريخاً ولا محاكاة للتاريخ بل هي تتوسل التاريخ لتجسيد دلالة فنية محددة " ⁽³⁾. وينبغي التفريق بين هذا النوع من الروايات والرواية التاريخية التي يمكن تعريفها بأنها: " تسجيل لحياة الإنسان ، ولعواطفه وانفعالاته ، في إطار تاريخي وتقوم على عنصرين : الميل إلى التاريخ وتفهم روحه وحقائقه ، وفهم الشخصية الإنسانية وتقدير أهميتها في الحياة. " ⁽⁴⁾ .

(1) شكري عزيز الماضي ، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين ، ص 71 - ص 74 .

(2) مصطفى عبد الغني ، نقد الذات في الرواية الفلسطينية ، ص 152 .

(3) شكري عزيز الماضي ، م . س . ، ص 75 .

(4) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص 128 .

وعلى ضوء هذا التعريف فإن اختيار الكاتب لبعض الأحداث التاريخية أو إغفاله لأخرى في الرواية التاريخية الحديثة له دلالاته ، ومن حقه أن يغير ويعدل في الأحداث المعروفة ، ومن ذلك رواية بحيرة من وراء الريح ليحيى يخلف الصادرة سنة (1991) ، حيث تنتقل عدسة الرواية لتصوير المعارك في مناطق عديدة من فلسطين ، وتصور الدور العربي في حرب 1948 من خلال التركيز على المتطوعين من البلاد العربية ، ولا سيما سوريا والعراق ، وتشير إلى جيش الإنقاذ وما يعانيه من نقص في الأسلحة ، ويمكن اعتبار رواية القافلة لديمة السمان الصادرة عام

(1992) رواية الأجيال ، كونها تعرض القضية الفلسطينية من خلال التركيز على أسرة حمدان ، حيث تبدأ أحداث الرواية في القرن التاسع عشر قبل بدء الهجرة اليهودية بسنوات عديدة ، وتنتهي باجتياح القوات الإسرائيلية لبيروت عام 1982 .⁽¹⁾ أما الفرق بين عمل المؤرخ وبين كاتب الرواية التاريخية فإن " المؤرخ مسؤول عن تسجيل الحياة التاريخية من الخارج أما الروائي فهو مسؤول عن تقديم الحياة الداخلية للبشر الذين عاشوا هذه الحضارة ، فهو لا يصف الفعل البشري ولكنه يعيده مجسداً كما حدث في الماضي " ⁽²⁾ .

4- الرواية الجديدة :

وهي تختلف عن الرواية الحديثة من حيث المبنى والمعنى ولها عدة تسميات منها : رواية اللارواية Novel anti ، والرواية الجديدة New novel ، وهذه الروايات بطبيعتها البنائية وهدفها تتمرد ضد التحديد . " وهي تعبير فني عن حدة الأزمات المصيرية التي تواجه الإنسان ، فالذات الإنسانية " تحس غموضاً يعترى حركة الواقع ، كما تشعر أن الذات الإنسانية مهددة بالذوبان " ⁽³⁾ . كما أن معاني العالم حولنا الآن " ليست إلا جزئية ومؤقتة ومتناقضة وقابلة دائماً للنقاش والبحث " ⁽⁴⁾ .

والرواية الجديدة هي فعل إبداعي يدعو إلى إعادة النظر في كل شيء ، في ظل عالم تتفتت فيه القيم ، وتحترق فيه الذات الفردية وتتشتت الذات الجماعية ، الأمر الذي أدى إلى عجز الرواية

(1) شكري عزيز الماضي ، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين ، ص 78 ، 79 .

(2) إبراهيم السعافين ، تحولات السرد ، ص 352 .

(3) شكري عزيز الماضي ، م . س . ، ص 78 .

(4) آلان جريبه ، نحو رواية جديدة ، ص 125 .

الحديثة عن فهم الواقع وتحليله. ففي ظل فقدان الإنسان لوحده مع ذاته فلا بدّ من الاستناد إلى جماليات التفكير، وفي ظل التبعض فلا بد من إلغاء منطق الحكمة القائمة على التسلسل، وفي هذا النوع من الروايات يتدخل الروائي بصورة مباشرة وغير مباشرة ويعتمد مخاطبة القارئ أحياناً ويحاوثة ، ويلق ويشرح ، والهدف من ذلك هو تحطيم مبدأ الإيهام بالواقعية . أما مهمة الروائي فتكون بإثارة التساؤلات والشك، وتدفع القارئ إلى التفكير من جديد في كل ما يقرأ، والرواية الجديدة تثير الأسئلة الفنية التي تهز وعي القارئ الجمالي وقد ظهرت في فلسطين بسبب اهتزاز الثوابت الوطنية والتاريخية وانكفاء تجربة الكفاح المسلح وظهور " عملية التسوية " وترهل العمل الجماعي المنظم ،وتفسخ الأحزاب، وفقدان النموذج القيادي وازدياد الفقر بما يولده من قهر وحرمان ، " إذ تحول نموذج الثورة من حمل البندقية وشعارها إلى شعارات السلام وجوامعها ،

مما يخلق تعابير أدبية خاصة قد تلائم المرحلة أو تكون مناهضة لها " (1) ، والقارئ في هذا النوع من الروايات ليس مجرد متتبع لمغامرات وأحداث صيغت بمهارة ولكنه مرغم على الاشتراك مع البطل والكاتب ، وهو يلعب دوراً إيجابياً في المتابعة والبحث ، ولا يخفى وجود قدر من الذاتية في رسم الشخصيات من قبل المؤلف ، وقد تخلص الروائيون الجدد من أخلاقيات الأمس وأفكاره وتخلصوا من قيم الإنسان الأخلاقية والاجتماعية ليستبدلوا هذا بقيمتين أساسيتين هما الصراحة واللامعقول (2) .

وقد استخدم هذا النوع من الروايات أساليب سردية منها : الطباق الزمني، والانقطاع الزمني ، والسرعة التي وُصفت بأنها تعبر عن " ففرتين الواحدة بجانب الأخرى، تصفان حادثتين بعيدتين في الزمن، يظهر كأنه الشكل الأكثر سرعة للقصة " (3) كما أن التلاعب بالضمائر التي تساعد في تمييز الأشخاص عن بعضهم، أمست وسيلة للتمييز بين مستويات الوعي واللاوعي لديهم وتنعدم الروابط المنطقية التقليدية بين الأحداث ، فهذه الروايات تقوم على الإيهام المتبادل بين القارئ والكاتب بصدق الكتابة والقراءة. كما أن الشخصيات لا يجمعها موقف مشترك تتحرك من خلاله وإنما يجمعها الحركة النفسية الداخلية النابعة من حقيقة المأساة الإنسانية التي لا تقتصر على المصير الحتمي بل تتعداها لتشل قسوة العواطف البشرية أما الحوار فوظيفته الكشف عن الحركة

(1) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 9 .

(2) إبراهيم السعافين ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، ص 541 .

(3) إبراهيم السعافين ، م . ن . ، ص 542 .

النفسية الداخلية وتطورها في أعماق الشخصية.⁽¹⁾، وتمثل رواية رائحة الصيف لفاروق وادي الصادرة سنة (1993) ، هذا النموذج حيث تقف عند الإنسان الفلسطيني ومصيره وهويته وقد اعتمدت على اللقطات المتناثرة، وتعداد الأمكنة، والمناجاة، والرمز، والتذكر، كما تسعى رواية (سحب الفوضى) ليوסף ضمرة الصادرة سنة (1991) إلى تجسيد قيمتي اللامعقول والفوضى، ويشكل العالم الروائي فيها من ومضات لا رابط بينها ولا تخضع للمنطق وتشكل التجربة الفلسطينية بمفاصلها الدموية محوراً رئيسياً فيها (2) .

(1) إبراهيم السعافين ، م . ن . ، ص 548 .

(2) شكري عزيز الماضي ، الرواية العربية في فلسطين والأردن ، ص 112 ، 114 .

المبحث الثاني : بطاقة تعريف بصافي صافي :

الاسم والشهرة : صافي إسماعيل سليمان صافي ، ولد في قرية (بيت اللو) (1) عام 1955) ، ويعمل حالياً موظفاً في دائرة الفيزياء في جامعة بيرزيت ، وقد انتقل للعيش مع أسرته في رام الله بعد العام 1967 ، حيث أكمل تعليمه المدرسي فيها . (2) .

أولاً : البيئة الخاصة

أ - الطفولة : عاش الروائي حياة أبناء اللاجئين بكل ما تفرزه من صعوبات حيث عاشت أسرته في مخيم دير عمار (3) ، وتعود أصولها إلى قرية (بيت نبالا) (4) حيث امتلكت أسباب العيش الرغد قبل أن تحلّ بها نازلة التهجير في العام 1948 .

وتحمل صافي عناء مساعدة الأسرة منذ نعومة أظفاره فعمل ناظوراً في المقائي ، وراعي أغنام ، كما كان يلتقط الفطر والخبيزة وغيرهما مما تجود به طبيعة بيت اللو الغنية . (5) وبعد التحاقه بمدرسة دير عمار ، كان يقوم ببعض المهام قبل ذهابه إلى المدرسة ؛ ففي موسم التين كان يستيقظ وأخوته عند أذان الفجر ، ويخرجون لقطف الثمر ووضعه في صناديق عند حافة الشارع ليأتي التاجر ويجمعه ليتقاضوا على ذلك أجراً قليلاً ، وقد تركت هذه الحياة أثرها في نفس الروائي ليظهر جلياً في رواية " الكوربة " حيث يقول على لسان الراوي : " فقد كان والذي يكتري كرم تين من أهالي (بيت اللو) ، يكون على الأغلب قرب الشارع الرئيس ، نتسابق على السحاحير قبل أن تتفد ، نصحو قبل صلاة الفجر نعبئها بالتين ، ننهي هذا العمل بسرعة لنستطيع بعدها الرجوع إلى البيت وغسل أيدينا ووجوهنا وحمل حقائبنا والذهاب إلى المدرسة لنصلها قبل قرع الجرس " (6) .

(1) وهي بمعنى بيت الله قرية تقع في الشمال الغربي من رام الله وتجاور دير عمار ، وأهم مزارعها الزيتون . محمد حسن شراب ، معجم بلدان فلسطين ، ص 176 .

(2) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله : 2007 / 8 / 13 .

(3) قرية تقع إلى الشمال الغربي من مدينة رام الله وفيها مقام الشيخ يوسف ، ومقام النبي غيث . ينظر : محمد حسن شراب ، م . س . ، ص 393 .

(4) قرية تقع شمال اللد على بعد أحد عشر كيلاً ، تتوفر المياه الجوفية في أراضيها وتزرع فيها معظم المحاصيل الزراعية وأكثرها الزيتون ، بلغ عدد سكانها سنة 1945 (2310) نسمة دمرها الأعداء ، وأجلوا سكانها وأقاموا على أنقاضها مستعمرة (نبالط) . ينظر : محمد حسن شراب ، م . س . ، ص 204 ، 205 .

(5) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله : 2007 / 8 / 13 .

(6) صافي صافي ، الكوربة ، ص 78 .

وقد كانت لبعض الشخصيات في أسرته تأثيرات واضحة في نشأته وفكره ، ومن هذه الشخصيات :

ب - شخصية الوالد : (1911 - 1986)

كان ينتمي لعائلة عريقة ، قوي البنية ، يدافع عن أهل القرية الذين كانوا يلجأون إليه إذا اعتدى عليهم أحد من أهالي القرى المجاورة ، "ويضيف الروائي قائلاً : " ورغم هذه الشدة فقد كانت لوالدي رقة خفية ما تزال محفورة في ذاكرتي وتشبه شخصيته " أحمد عبد الجواد " في ثلاثية نجيب محفوظ " (1) . وما يزال تأثير شخصية والده يلحّ عليه حتى في سلوكه اليومي فيشير إلى تقمصه شخصية والده بعد الضجة الكبيرة التي أحدثتها أسرته بعد صدور روايته " الحاج إسماعيل " (2) ، حيث يقول : " وجدت نفسي الحاج إسماعيل الذي لا يهاب أحداً وكان أمامي إما أن أترجع أو أن أتقدم وأواجه ، وقررت أن أخوض المعركة " (3) . وتظهر معالم شخصية والده في رواية " الحاج إسماعيل " : " يقاوم الموت بكبريائه الذي بناه طيلة خمسة وسبعين عاماً لم يعرف الهزيمة من قبل ، عارك الحياة طويلاً وخرج منتصراً لذاته وأسرته ، لحمولته وبلدته هزائم لم تكن نتيجة ضعف أو جبن منه ، فهو القوي والمقدام ، لم يهزم أبداً ، فانفتال عضلاته وطول قامته ، وعرض منكبيه لم يهزمها أحد " (4) .

ت- شخصية الوالدة: (1920 - 1987)

حملت والدة الروائي صفات الرقة مقابل الصفات العنيفة لوالده، كما عملت على توجيه الذوق الفني لأفراد الأسرة كسماع أغاني فيروز، وكانت تحثهم دوماً على العناية بمظاهر البيئة : " كانت تدفعنا لمحبة الشجر والحجر والعصافير " (5) ، وهي من قرية "دانيال" (6)

(1) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله : 13 / 8 / 2007 .

(2) فقد تمت مقاطعة الكاتب بشكل شبه كامل من قبل أقاربه بعد صدور روايته الحاج إسماعيل لاعتقادهم أن هناك تطابقاً بين شخصيات روايته وبين واقعهم الأسري ، الأمر الذي نفاه الروائي بشكل قاطع . للمزيد ينظر : صافي صافي ، السلطات الاجتماعية وعلاقتها بالأدب ، مجلة الكاتب ، ص 23- 27 .

(3) محمد ضمرة ، مقابلة مع صافي صافي ، جريدة الرأي ، 26 / 3 / 2002 .

(4) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 3 .

(5) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله : 13 / 8 / 2007 .

(6) اسم كنعاني فينيقي يتألف من " داني " أي : قاض و " إيل " أي : الله ، فيكون المعنى "الله قاض" ، قرية تقع على بعد ستة أكيال شرقي الرملة ، تتميز أراضيها بالخصب وتوافر المياه الجوفية ، بلغ عدد سكانها سنة 1945 ، (

قضاء يافا، وقد عوملت كغريبة في القرية ما جعل علاقتها بأبنائها علاقة مميزة، وكانت صبورة، قوية، وتظهر بعض معالم شخصيتها في روايته " الكوربة " حيث يصفها الراوي بقوله : " أمي لن تستطع التأكد أننا ننام جيداً، ونتغذى جيداً، لن نستطيع مرافقتنا إذا أردنا قضاء حاجتنا، أمي لن تحكي لنا حكايات الأولين وقصص الأطفال، يا لها من حياة، كنت أحس كم أحبّ هذه الأم" (1).

ث - تأثير القرية:

ويظهر جلياً في معظم أعمال صافي الروائية ، لا سيما في (اليسيرة) و(الكوربة) ويصفه الروائي أحمد رفيق عوض بأنه " لا يغادر تلك المنطقة التي يشعر معها إنه ابنها الأثير والخبير أيضاً ، إن ذلك العالم القروي البسيط ، البكر ، وربما الساذج والغافل أيضاً هو ملعب الروائي صافي ، الذي يعيد إنتاجه إلينا في كل مرة من زوايا مختلفة وإضاءة بلونٍ آخر " (2) . ويختزن صافي في ذاكرته الموروثة كل العادات والمعتقدات في قريته ، ويبحثها في ثنايا رواياته لتشكل لوحة فسيفسائية تعرض القرية الفلسطينية بكل تفاصيلها فنجدته يصف قريته التي لم يعيش فيها يوماً : " سأنتسل عبر الأسلاك وأجلس في أراضيها ، أشتم رائحتها وألتقط بعض الميرمية والزعتر و الجلثون ، وسأكل من تينها القريب وصبرها . لو كنا هناك لعرفت كيف تكون الجنة دون أن أبذل جهداً في تصورها. (3) ، ويظهر تأثير القرية في أسماء الأماكن حيث أن عنوان روايته "اليسيرة" هو موقع في قرية " بيت اللو " و " عيون مارون " و " جبل بابون " وقد ظهر في روايات صافي ما يشير إلى وعيه بمظاهر بيئته ، كما يظهر في الحوار الذي دار بين الراوي ووالدته في رواية " الكوربة " :

- " لماذا تبول الكلاب في كل مكان ؟

- الكلاب تصنع حدودها مثل الضباع .

- وماذا تفعل الضباع ؟

- تبول على صيدها ؛ لتؤكد لنفسها ولغيرها أن هذا الصيد ملك لها وحدها ، ويقع ضمن حدودها " . (4) .

410 نسمة ، دمرها الأعداء ، وأقاموا على بقعتها قلعة " كفار دانيال " . ينظر : محمد شراب ، معجم بلدان فلسطين ، ص 372 .

(1) صافي صافي ، الكوربة ، ص 27 - 28 .

(2) أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية " شهاب " ، صوت الوطن ، العدد (86) ، 2002 .

(3) صافي صافي ، م . س . ، ص 57 ، 58 .

(4) صافي صافي ، الكوربة ، ص 102 .

ثانياً : البيئة العامة

اختزن الروائي في ذاكرته كلّ الدمار الذي حلّ بوطنه وشعبه منذ الهزيمة الأولى في العام (1948) ؛ فقد استمع بأذنٍ مرهفة لوالده وهو يحدثه عن ويلات المجازر التي ارتكبت في حق شعبه ، وعاش بنفسه الآثار النفسية والاقتصادية والاجتماعية المدمرة التي خلفتها تلك الفاجعة فكان جزءاً من عموم مقاومة هذا الظلم الذي تمثل في " اقتلاع شعب بكامله من كامل وطنه وإحلال شعب آخر محله ، في عملية استعمار استيطاني لا مثيل لها في التاريخ ، ولما كانت الرواية الفلسطينية في كافة اتجاهاتها ، تتمثل هذه القضية ، كان لا بد للجهود الروائية أن تتصرف إلى إنسان القضية ومعاناته وموقفه من مختلف الظروف التي مرت بها القضية " (1) .

وبعد هزيمة حزيران 1967 كان صافي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً ، ويذكر أنه قد ساهم في المظاهرات التي عمت الوطن ضد الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة أثر دعوته لزعماء الدول العربية للاعتراف بإسرائيل ، وقد عاش فترة من حياته في مخيم قدورة ، وعاش القهر الذاتي والجمعي واختزنه لنراه لاحقاً على شكل دفقات شعورية فائضة في أعماله الروائية جميعها فنراه يتحدث على لسان والده الذي لم يبين بيتاً لأمله الحي في الرجوع : " ما زلت أمل بالرجوع لبلدتي وهكذا ظل بدون بيت ، جعل من بيته مضافة للمهاجرين ولأهل بيت اللو ، ظل ينتقل من بيت لآخر حتى استقر في مخيم قدورة " (2) .

ثالثاً : التعليم والثقافة

أ - التعليم : تلقى صافي تعليمه الابتدائي في مدارس وكالة الغوث في مخيم (دير عمار) أما مرحلة التعليم الإعدادية والثانوية فكانت في مدارس الوكالة في مدينة رام الله ، حيث حصل على شهادة الثانوية العامة من المدرسة الهاشمية في العام (1973) (3) ثم انتقل لإكمال دراسته الجامعية في الكويت فدرس الفيزياء ، وحصل على لقبه العلمي الأول في العام (1978) ، وقد كان مشاركاً فعالاً في التوعية السياسية للطلاب ، وبعد تخرجه استمر في العمل في الكويت ، ولكنه كان يحمل وطنه بين كتفيه وكان قلقاً من حياته في الخارج : " كنت أخاف الموت في الكويت خفت على نفسي حتى وأنا ميت ، لم أكن أتصور أن أعيش ميتاً ويدفونني هناك " (4) .

(1) أحمد أبو مطر ، الرواية في الأدب الفلسطيني ، ص 371

(2) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 23 ، 24 .

(3) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) جامعة بيرزيت / رام الله : 13 / 8 / 2007 .

(4) صافي صافي ، الحلم المسروق ، ص 7 .

سافر صافي إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تلقى دورة في " تطوير المختبرات وعمل العروض العلمية " من جامعة (Rutgers) في (نيوجرسي) ، ثم عاد إلى أرض الوطن ليحصل على لقبه العلمي الثاني في " تعليم العلوم " من جامعة بيرزيت في العام (1998) .

ب- الثقافة : تركزت قراءة الروائي في تلك الفترة حول الثقافة التقدمية والماركسية، وانصب اهتمامه على الأدب الواقعي الاشتراكي، لإيمانه أن وظيفة الأدب لا تقتصر على تناول معضلة ما وتناولها بالوصف والتحليل ولكنه يجب أن يساهم في وضع تصور ما لحل هذه المعضلة . ويرى صافي أن دراسته العلمية قد ساهمت في إذكاء خياله حيث يرى أن "أساس الاكتشافات العلمية والنظريات قد وجدت أصلاً من خيال العلماء ، كما أن الحياة والعلم تتغيران وبذلك تتغير القيم ومهمة العلماء والفنانين والأدباء تكمن في تغيير هذه القيم بما يتلاءم مع مستقبل الأجيال وبما لا ينفصل عن الموروث الثقافي " (1) .

رابعاً : حياة الروائي العلمية والاجتماعية :

بعد تخرجه في جامعة الكويت عمل صافي معيداً في قسم الفيزياء في الجامعة نفسها ، ثم عمل في وزارة الصحة الكويتية مسؤولاً عن قسم الأشعة، (2) ، وبعد عودته إلى فلسطين عمل مدرساً لمادة الفيزياء في كل من : المدرسة الهاشمية ومدرسة الفرندز للبنات في مدينة رام الله ، قبل أن ينتقل للعمل في جامعة بيرزيت ، موظفاً في قسم الفيزياء ، منذ العام (1993) ولغاية إتمام هذا البحث .

وكجزء من نشاطه في حماية الذاكرة الشعبية التي تتعلق بالقرى الفلسطينية المدمرة عام 1948 ، كان من المؤسسين لجمعية بيت نبالا وكان مشرفاً على إصدار كتاب حولها بعنوان " أسبوع بيت نبالا ، خمسون عاماً من الاحتلال " .

وقد أصبح عضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين منذ العام (1992) لغاية عام (2005) ، واشترك مع الروائي الراحل عزت الغزالي في تأسيس مركز (أوغاريت) حيث ساهم في تقييم الكثير من الأعمال الأدبية قبل نشرها من قبل المركز، وعمل على توجيه الكثير من الكتاب الواعدين وهو لا يزال عضواً في الهيئة العامة لهذا المركز ، الذي ساهم وما يزال في رفد

(1) صافي صافي ، رؤيتي الكتابية للجانب الاجتماعي في الرواية ، مجلة الحقيقة ، غزة ، 28 / 7 / 1998 .

(2) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) جامعة بيرزيت / رام الله : 13 / 8 / 2007 .

الساحة الأدبية بالكثير من الأعمال الروائية والنقدية ، وقد ساهم وجود الروائي في مركز أوغاريت في تواصله مع الحركة الأدبية الوطنية .

وكان الروائي عضواً فاعلاً في عدة لجان منها ما هو علمي، ومنها هو أدبي ، وله العديد من الدراسات والمقالات المنشورة في الصحافة العربية والمحلية كما شارك في العديد من المؤتمرات منها المؤتمر الأكاديمي الأول في جامعة بيرزيت " الأدب الفلسطيني بين المنفى والاحتلال " في العام 1997 ، حيث قدم شهادة ذاتية " لماذا اليسيرة " ومؤتمر الثقافة الفلسطينية بعد خمسين عاماً من الاحتلال في وزارة الثقافة في رام الله وغيرها . وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب قد نشر بعض القصص القصيرة منها " ساحة الحمام " المنشورة في مجلة الكاتب ، القدس : عدد 112 ، (1989) ، و(في هالفنجان) المنشورة في مجلة الكاتب عدد ، 137 ، (1991) ، و (أرق) ، و (قفص) ، مجلة الكاتب عدد 163 ، 1989 .

الفصل الأول

المضامين الروائية عند صافي صافي

- المبحث الأول : الحاج إسماعيل ويشمل: القهر الذاتي والجمعي وعلاقة الأبوة ، والمرأة ، والطفولة ، والعلاقات الأسرية ، والغربة والواقع الصحي .
- المبحث الثاني : الحلم المسروق ويشمل: القهر الذاتي والجمعي والمرأة ، والطفولة ، والآخر ، والغربة .
- المبحث الثالث : الصعود ثنائية ويشمل : تجربة الاعتقال والآخر ، والنزعة الإنسانية ، والمرأة .
- المبحث الرابع : اليسيرة ويشمل : ثنائية الإنسان والمكان والآخر ، والمرأة .
- المبحث الخامس : شهاب ويشمل : الوهم الشعبي والانحراف الفكري ، والمرأة ، والآخر .
- المبحث السادس : الكوربة ويشمل : رحلة اللجوء ، والمرأة والآخر.

الفصل الأول: المضامين الروائية عند صافي صافي

المبحث الأول: الحاج إسماعيل (1)

1- تلخيص الرواية:

تدور أحداث هذه الرواية حول شخصية مركزية وهي الحاج إسماعيل، تلك الشخصية الجبارة التي عاركت الحياة طويلاً ولم تعرف ضعفاً أو استسلاماً. يبدأ مرض السكري بالنخر في جسد الحاج إسماعيل ويوصي الأطباء ببتير أصبع قدمه ولكنه يرفض بشدة ويفضل الموت على فقد جزء من جسده، فيستقل مرضه ويقرر الأطباء بتر ساقيه، وتجتمع الأسرة من أجل اتخاذ هذا القرار الذي يحتاج لإجماعهم ما تطلب عودة المغتربين من الأبناء.

وفي المستشفى يبدو الصراع الداخلي لدى الحاج إسماعيل جلياً، " يبدو أنه يعيش تناقضاً ليس من السهل حله، فهل يعيش بواقعه الحالي، مريضاً ويجب قطع رجله، أم يعيش بنفسية الحاج إسماعيل الذي عارك الحياة ولم تغلبه قط " (2)، ويصور الراوي العلاقات الاجتماعية التي تتطور بين النزلاء القادمين إلى المستشفى من كل صوب. وتظهر الصورة القائمة لأهم المرافق الصحية في مستشفى " رام الله " حيث قذارة الغرف، والمرافق الصحية، والتدخين في الممرات وغرف المرضى وسوء المعاملة الطبية، " فتشتت في الحمام عن " مكشطة " فإذا بي أجد واحدة مهترئة، أنظف الحمام نفسه أم الغرفة؟، كل شيء مقرف المرحاض لا أتحمّل أن أبول فيه، المغسلة مغلقة المصرف، وماؤها مختلط بالأوساخ والصابون يطفح من جنباتها" (3) ويستمر الوضع كذلك حتى يتولى الدكتور عماد إدارة المستشفى فتقلب الأمور رأساً على عقب وتتغير بشكل إيجابي. وتحمل الرواية في معظم فصولها ظاهرة الاسترجاع الفني حيث قرية (بيت اللو) و(بيت نبالا) والمقارنة المستمرة بين وضع الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والنفسي قبل اللجوء والانحدار اللامتناهي بعد اللجوء في مخيم قدورة حيث يسير هذا الانحدار موازياً لانحدار نفسية الحاج إسماعيل وصحته.

(1) صدرت عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين في القدس عام 1990، وحازت على جائزة الاتحاد في الرواية عام 1989، ولم تكن قد نشرت بعد، وتقع أحداثها في مئة وإحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط، وجاءت في خمسة عشر فصلاً.

(2) صافي صافي، الحاج إسماعيل، ص 18

(3) صافي صافي، م. ن.، ص 31

وتبدأ بقية الشخوص بالظهور حيث يصل الابن الأكبر حسان من أمريكا، وشوكت من الكويت، وماهر من أسبانيا، ونزهة من السعودية، ويتضح من حواراتهم أنهم قد قدموا خوفاً من اتهام الناس لهم بالتقصير، لا حباً ووفاءً لأبيهم المريض، ويبدو هذا الرعب مسيطراً على أدق تصرفات جميع الشخصيات ومشاعرها، بمن فيهم الراوي الذي يرافق أباه المريض طوال مسيرته، فهذا ابن رفقة أخت الراوي المقيمة في المخيم يخاطبه حين أراد استقبال أخيه حسان في المطار " لا أرى ضرورة لذهابك يا خال، تجنب أن ينهش الناس لحكمك " فيجيبه " أنتم من ستتهشون لحمي وليس غيركم " (1).

ويتضح سبب هذا الجفاء العاطفي بين الأبناء والحاج إسماعيل في أنه كان قاسياً في معاملتهم وكان يكثر من ضربهم ضرباً عنيفاً، كما كان يضرب بأرائهم عرض الحائط فهو من يقرر وهم جميعاً ينفذون .

تشتد الخلافات بين الأخوة حول تدبير الشؤون المالية لعلاج الوالد وتبدأ الشخصيات المغتربة بالحديث عن الصعوبات النفسية والمادية في الغربة كما ورد على لسان شوكت: "هم يعتقدون أننا نملك فلساً كثيرة، لكن الواقع غير ذلك، نحن في الكويت لا نعيش على الزيت والزعتر، حسان لن يدفع حتى لو ملك ذلك، هو دائماً يقول بأنه لا يملك مع انه يعلم أولاده في أفضل المدارس والجامعات" (2).

يتقاسم الأبناء أعباء الإنفاق على والدهم بعد السفر، ويتنازل الأخوة الذكور لحسان عن البيت والأرض وله حرية التصرف في العقارات، ويستأنف الراوي معاناة العناية بوالده وحيداً. تستمر حالة الوالد في التدهور ويصاب بحالة من الضياع الفكري، فيلتبس عليه الماضي بالحاضر خاصة بعد بتر قدمه ويموت تدريجياً حتى يعلن الطبيب وفاته.

2- المضامين الروائية :

المضمون هو " العملية الأدبية التي ينجزها الفنان أو الأديب، وهو التشكيل الجمالي الأكبر للعمل الأدبي، وهو الذي يحدد المواقع والمواقف والانتماءات وزوايا الرؤية ووجهة النظر والفلسفة...، إنه المعمار الفني الذي يظهر به الموضوع. " (3) . ومن المضامين الروائية:

أ- ظاهرة القهر الذاتي والجمعي :

تتعدد أشكال ظاهرة القهر في روايات صافي، وتلعب درواً كبيراً في سلوك الشخصيات وتوجهاتها، وقد رصد الروائي هذه الظاهرة من خلال تعامل الشخصيات معها، حيث يتولد هذا

(1) صافي صافي، الحاج إسماعيل، ص 46 .

(2) صافي صافي، م. ن. ، ص 52 .

(3) عبد الرحمن ياغي، جولات في النقد الأدبي، ص 119 .

الشعور عموماً نتيجة الإحساس بالظلم الذي تتعدد مصادره ، وتختلف الشخصيات في تعاملها مع هذا الشعور ، حيث نرى بعضها يتفوق على ذاته وينصرف عن التفاعل مع تطورات الحياة وتتناقضاتها ، ومنهم من يتخذ من هذا الشعور وسيلة لشحن الذات وتقوية العزيمة للانطلاق نحو تحقيق الغايات والمضي قدماً نحو التطور ، وقد ركز صافي على هذا الشعور لإيمانه بقيمة الفرد في عملية التحرر ، وأن تحرير الإنسان من عواقبه الداخلية هو السبيل للانطلاق نحو الحرية الأشمل ، وكأنه يرنو دائماً في أعماله إلى إنسانية الفرد ، ويتناول كل ما يحدّ منها ويجعلها تشعر بالعجز أو النقص ومن ذلك شعوره بالظلم والقهر .

ويتناول صافي شعور الشخصية المحورية (الحاج إسماعيل) بالقهر لانتقاله من حالة الأمن والاستقرار قبل اللجوء إلى حالة التشرد والفقر بعده ، ويصف ابن الراوي هذه الحالة " سأله أحد الجنود لماذا لم تبني بيتاً يا حاج ، قال: ما زلت آمل بالرجوع لبلدتي ، وهكذا ظلّ بدون أرض بدون عمل " (1) ويتحول هذا الشعور بالقهر إلى سلوك عنيف يمارسه مع جميع أفراد أسرته حيث نراه يضرب أبناءه وزوجته ، ويمارس قهر ذاته حين يصر على رفض العلاج ، ونرى هذا الشعور يتوالد في أبنائه ويمتد إلى الجيل الثالث ، حيث تظهر أشكال للقمع منها " ما يأخذ أشكال جسدية عنيفة ، ومنها ما يكون قمعياً مستتراً ، وهذا ينطبق على الإناث كما ينطبق على الذكور " (2) ، ويمكن أن نلاحظ هذا الشعور في أبنائه فنجد ماهراً يهدد أباه بالضرب في حالة قام الأخير بضرب والدته ، وحسان يتحكم في أفراد الأسرة جميعهم ويأمرهم بتحضير الطعام والشراب رغم إرهابهم نتيجة العناية المستمرة بالدهم : " لتذهب كل واحدة فيكن لعملها ، رفقة اذهبي عند الوالد ، نزهة ، نظفي البيت وأواني الطعام ونريد شايّاً أيضاً . " (3) كما نلاحظ آثار القهر تظهر على سلوك بنات الحاج إسماعيل حيث تصرخ " نزهة " في وجه أخيها " الراوي " يلعن أبوكم تضحكون كأنكم في محششة " (4) . ولم تغير الغربية في سلوك الشخصيات رغم انفتاحهم على عوالم أخرى إلا أن سلوكهم وتفكيرهم القائمين على العنف لم يتغيرا .

ت - علاقة الأبوة :

وتظهر في الرواية علاقة تنافرية ، قائمة على العنف بدل الحوار والانسجام ، ويبدو الأب بأساليبه الخاطئة في التربية السبب الرئيس في هذه العلاقة التي تمتد لتشمل كل أفراد الأسرة ولم يظهر في

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 23 .

(2) إلهام أبو غزالة ، توالدية القمع لدى صافي صافي " الحاج إسماعيل " : مجلة الكاتب ، عدد (125) 1990 ، ص 70 .

(3) صافي صافي ، م. س . ، ص 87 .

(4) صافي صافي ، م. ن . ، ص 69 .

الرواية ما يشير إلى تحمل الوالد لأعباء تربية أبنائه رغم القوة الجسدية التي تمتع بها ، حيث نراه يستغلها من أجل فرض هيئته وقمعه على الأسرة ، وقد ترتب على ذلك عمل الأخوة منذ مرحلة الطفولة أو هروبهم من هذا الواقع الأسري العنيف ويظهر ذلك في قول حسان "أنا كونت نفسي بنفسي ، والشاطر يعمل مثلي ، أنتم شرذمتوني ، وبالذات هذا الرجل الذي أتيت من أجله . " (1) كما تصور الرواية " ضياع الفرد في العائلة التي يهيمن عليها الأب والمجتمع القائم على الأبوية المستحدثة ، وتكاتف هذين الطرفين في وجه إمكانية تحقيق الذات حيث يمثل الأب أداة القمع الأساسية . قوته ونفوذه يقومان على العقاب. " (2) وتظهر محاولة الانفكاك من هذه الدائرة السلبية من قبل جميع أفراد الأسرة ووضع البديل الايجابي لها كما يرد في قول الراوي : " هل يكون الأولاد كما الآباء ؟ فنجيب في سرنا ، في الإخلاص والوفاء والاحترام والقيام بكل ما يجب أن يقوم به نعم، لكن في الإذعان لا . " (3) وهذه ليست دعوة لتجاوز المجتمع الأبوي أو تقليص دوره كما يقول محمد أيوب (4) ولكنها دعوة لتجاوز سلبيات هذه العلاقة من أجل بناء الأسرة على أسس سليمة وتكون قادرة على إنتاج أفراد مؤهلين للتعامل مع ذواتهم ومع الآخرين على أسس تضمن النهوض بالمجتمع . وقد اعتمدت الرواية في هذا الصدد على " الكفاح الجدلي بين رفض الحقائق وقبولها ، وبين هدمها والاحتفاظ بها ؛ فالعمل الفني في رأي التحليل النفسي ليس وحيد الجانب ، ففيه يتفاعل الاتجاهان المتضادان ويكونان معاً استجابة واحدة . " (5) .

ث - المرأة :

ظهرت المرأة في الرواية وهي تعاني من كافة أشكال القمع والاضطهاد ، لا تملك من أمر حياتها شيئاً سوى التسليم والرضوخ ، " وإذا كانت الرواية تمتزج أحداثها من خلال علاقات عنصري الوجود البشري الرجل والمرأة ، فالذي لا شك فيه أن صورة المرأة أكثر استقطاباً لحركة الواقع وأغنى دلالة لتحديد موقف الأديب منه . " (6) فالزوجة تسكت على ضيم زوجها وعنفه النفسي والجسدي ، وتسكت عن خياناته المتكررة حيث تختار الضيم وتحييد مشاعرها كزوجة مقابل استمرارها في بيتها لتربية أبنائها ، وهي تتفانى في سبيلهم وتتحمل كل أشكال الذل والحرمان ويرد على لسان الراوي ما يصف حالتها : " مسكينة هذه الأم ، تعمل للجميع بهدوء بدون ضجة ، كل

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 50 .

(2) هشام شرابي ، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي ، ص 60 .

(3) صافي صافي ، م. س . ، 21 .

(4) محمد أيوب ، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، ص 88 - 90 .

(5) مصطفى ناصف ، دراسة الأدب العربي ، ص 146 .

(6) طه وادي ، صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ص 55 .

منا يلقي بهومومه في حضنها ، تتحمل كل آلامنا . " (1) وتظهر المرأة وسيلة للتعويض عن المهانة التي يلقاها الرجل المقهور ، وللتعويض عن قصوره اللاواعي بإسقاطه عليها وضعية من القهر تقضي على إمكانياتها الذهنية والإبداعية والاستقلالية والمادية " (2) كما تظهر صورة الأم التي تحمي الأسرة من التفكك والانحيار في الوقت الذي يتخلى فيه الأب عن دوره تجاه الأسرة " كما يرد على لسان الراوي : " ارتباطكم ببعض لا ينتهي بوفاة الوالد كما زعمت رفقة ، ستبقى أمك " (3) ويظهر تحكم الرجل " الأب والأخوة " في مصير الأخوات دون أن يمتلكن سبيلاً للاختيار وذلك على لسان " نزهة " لم نطلب منكم أن تزوجونا هؤلاء ، أنتم وأبوكم من ضيّع علينا الفرص الكثيرة ، طلبنا أطباء ومهندسون ، فضلتم أن تزوجونا من أبناء بلدتكم . " (4) ومن هذه البداية الخاطئة في حرمان المرأة من اختيار شريك حياتها تتجم كل الأخطاء ، لأنها تترتب عليها فالبدائيات الخاطئة لا يمكن أن تؤدي إلى نهايات سليمة . (5) كما يظهر استبعاد المرأة من القضايا المهمة في الأسرة وحرمانها من حقها الشرعي في الإرث " دعانا شوكت لحضور جلسة مغلقة اقتصرت على الذكور فقط ، جلسنا في غرفة وحدنا ، قال يجب أن نجلس معاً جلسة رجال . " (6) ، وتنتقل المرأة من ظلم وتحكم الذكور في أسرتها إلى جور الزوج وتحكمه في مصيرها ، فقد ورد على لسان رفقة : " أردت أن أهرب من سلطة أبي فوقع تحت سلطة عمي وأبنائه . " (7) كما أنها لا تستطيع أن تستقل في فكرها أو مسكنها حيث تقول : " تجاوزت الآن الأربعين بينما لا أستطيع أن أعيش حياتي لوحدي مع زوجي وأولادي لم أحصل على استقلالي يوماً . " (8) ، وقد عرضت الرواية للمرأة في الموقف الطبقي لدى المتقنين من أبناء البرجوازية وذلك على لسان الابن الجالس قرب سرير والده في المستشفى " هناك الكثيرون يتكلمون وبأعلى أصواتهم عن الظلم ولكنهم لم يعيشوه ، يتكلمون عن الفقر وهم يعيشون في فيلاتهم . " (9) .

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 85 .

(2) مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي " مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور " ، ص 180 .

(3) صافي صافي ، م. س . ، ص 97 .

(4) صافي صافي ، م. ن . ، ص 84 .

(5) عبد الرحمن عباد ، القصة والأفصوصة الفلسطينية ، ص 129 .

(6) صافي صافي ، م. س . ، ص 88 .

(7) صافي صافي ، م. ن . ، ص 86 .

(8) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 85 .

(9) مجموعة مؤلفين ، نصوص من الأدب الفلسطيني المحلي ، ص 195 .

ج- الطفولة :

ويأتي تحديد معالمها عبر تذكّر الشخصيات لطفولتها المقموعة من قبل الوالد ليشكل ذلك نوعاً من التفسير لسلوكها العدوانية وعاطفتها السطحية تجاه الأسرة بعد ذلك ، فيذكر الروائي طفولة ماهر الذي قضى أياماً في الجبال ومن بيت إلى بيت " تصدى لمدرّاء المدارس حين طلب منهم الوالد أن " يربوه " على طريقتهم . " (1) ويخضع الأطفال قسرياً لتقليد الآباء وتقمص أدوارهم السلبية كما ورد عبر تذكّر " الراوي " للموقف الذي يجبره أبوه فيه على مهاجمة أقرابه كي يساهم في حماية سلطته وهيبته فيخاطبه بقوله : " أنت ابن الحاج إسماعيل ، يجب أن تكون مثلي ، أريدك الآن وأمام بيت عمك أن تحمل عصاك ، تلوح بها في الهواء . " كما يخاطبه بقوله : " ليكن قلبك مثل الحديد ، اتقل عليهم . " (2) .

ح-العلاقات الأسرية :

وهي علاقات سطحية ، تتحكم فيها المصالح " هذه العائلة مليئة بالتناقضات رغم التماسك الذي يظهر لك من خارجها والمصالح هي التي تحدد العلاقة بين الناس حتى الأقارب منهم . " (3) كما تُظهر الألفاظ المستخدمة من قبل الراوي طبيعة هذه العلاقة العدائية حيث يبدو سعيداً لقدم أخيه ماهر من إسبانيا لأنه " سيصد هجمات الأقارب المستمرة " ويخاطب أخاه شوكت القادم من الكويت : " ما أريده فقط أن تتسلموا إحدى الجبهات ، جبهة الأقارب " (4) . ويبدو أن الأقارب لا يجتمعون إلا في الأزمات وهو ما عبر عنه الراوي بقوله لدى زيارة أقرابه لوالده المريض " لا نريدها أن تتكرر في زمن الشدة ، بل في زمن الهدوء أيضاً ، أنا أعرف أنها لن تتكرر إلا في الأزمات . " (5) أما العامل الآخر الذي يتحكم إلى حد كبير في العلاقات الأسرية ويضبط إيقاعها فهو " الخوف من كلام الناس " .

والذي وصفته إلهام أبو غزالة بـ " الإله الأكبر الذي يخافون منه . " (6) فنرى الدافع المشترك لعناية الأبناء بوالدهم لا ينبع من الذات بل من هذا الخوف ويصدر هذا السلوك عنهم قسراً لا يخضع لرغباتهم الطبيعية ، فنجد أن سبب قدوم شوكت من الكويت وحسان من أمريكا

(1) صافي صافي ، م . س . ، ص 22 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 95 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 46 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 51 .

(5) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 93 .

(6) إلهام أبو غزالة ، توالدية القمع لدى صافي صافي " الحاج إسماعيل " : مجلة الكاتب ، القدس ، عدد (125)

1990 ، ص 72 .

هو أن لا تحفر الألسن في ظهورهم (1) ، كما يظهر ذلك في موقف الراوي الذي يرافق والده طوال فترة مرضه حيث يقول : " أتعب اليوم لأرتاح غداً الأقارب والمجتمع يلزمونني على القيام بالواجب . " (2) وتصف رفقة حقيقة مشاعرها تجاه إخوتها المغتربين قائلة : " ما يجبرني أن أراكم هو ألسنة الناس . " (3) ويصل هذا الخوف من كلام الناس ذروته عندما يطلب " الحاج إسماعيل " من ابنه أن يبقي أمر بتر رجله سراً خوفاً من كلام الناس وشماتتهم " أمسك برجله اليسرى ، قارن بينهما ، تأكد بأن إحدهما قد قطعت ، فقال ، اسمع : لا تخبر أحداً لنحتفظ به سراً بيننا . " (4) .

خ - الغربية :

وهي في الرواية مظهر من مظاهر تشتت الأسرة الفلسطينية ، وتتحدث الشخصيات المغتربة عن حياتها ومشاعرها في الغربية ، كما تصف دور المغتربين في تحسين أوضاع أسرهم الاقتصادية في الوطن فقد ورد على لسان شوكت : " الوالد وصله مني خلال العشرين سنة الماضية ما قيمته ثلاثون ألف دينار ، وماهر وصله مني ما قيمته عشرة آلاف دينار حتى أكمل تعليمه . " (5) وقد أفرزت الغربية نوعاً من الصراع الطبقي بين أفراد الأسرة ما يساهم في زيادة النفور بين الشخصيات المغتربة والمقيمة وشعور المقيمين بتعالي المغتربين عليهم ، بينما يرى المغتربون أن المقيمين يستغلون جهودهم وأموالهم ، حيث تخاطب نزهة المغتربة في السعودية أباها وتضعه في فئة الحاقدين (6) ، وهو يرد عليها قائلاً : عندما تأتون إلى هنا تتباهون بلباسكم وبسفراتكم هنا وهناك ، تربيتهم على إعطاء المشورة ، وضعتم أنفسكم في الأعالي " (7) . وتبدو العلاقة بين الأخوة المغتربين والمقيمين قائمة على أساس من الشك والغيرة والاستعلاء الذي يبدو واضحاً حين ترفض نزهة تزويج ابنتها لابن رفقة قائلة : " أنتم لستم من مستوانا " (8) .

د - الواقع الصحي :

- (1) صافي صافي ، م . س . ، ص 21 .
- (2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 39 .
- (3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 84 .
- (4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 99 .
- (5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 52 .
- (6) صافي صافي الحاج إسماعيل ، ص 70 .
- (7) صافي صافي ، م . ن . ، ص 75 .
- (8) صافي صافي ، م . ن . ، ص 70 .

وقد أظهر الكاتب سلبيات الواقع الصحي في مواضع كثيرة من الرواية ، " حتى بتنا نشك بغياب العنصر الإنساني في رعاية المرضى الذين يتركون لرعاية المرافقين وسط غياب الأطباء وندرة الممرضين . " (1) ، وقد غدت هذه المرافق الصحية تفتقر إلى النظافة وتعتمد على المرافقين في أعمال التنظيف ، " أرض الغرفة مليئة بالأوساخ والإبر والأكياس والمحارم الورقية أمسكت الإبريق وملأته بالماء ، وسكبت على أرض الغرفة . " (2) ، كما تسود حالة من الفوضى يساهم بها سلوك الناس - والذين لا يعفون من دورهم في هذه الصورة القاتمة - ويظهر ذلك إثر حادث طرق وحالة الفوضى التي سببها أهل المصاب ؛ " حالة من الهيجان داخل وعلى أبواب المستشفى ، صياح ، سيارات إسعاف تطلق صيحاتها ، سيارات كبيرة وصغيرة " (3) ويرتبط تحسن الأوضاع في المستشفى بشخصية واحدة هي د. عماد الذي نراه يضبط المستشفى بمرضاه وأطبائه وممرضيه وحتى زائريه ، فهذا الرجل المناسب في المكان المناسب وفي ذلك نقد واضح لتعيين أشخاص غير مؤهلين ، ليكونوا مسؤولين عن أمور أساسية تتعلق بحياة الناس ومصائرهم ويظهر تقصير الأطباء والممرضين حين يخرج الدود من أصابع الحاج إسماعيل المريضة دون انتباههم ، حيث ورد على لسان عارف : " الدود يأكل أباك قبل أن يموت ، أخبرتكم أن هذا المستشفى لا يصلح لعلاجه . " (4) .

إن هذه الرواية التي حملت في ثناياها الكثير من القضايا الاجتماعية قد جاءت من إدراك الكاتب لطبيعة العلاقة بين أدق الخصوصيات وأوسع الشموليات.. بين البعد الذاتي والبعد الإنساني الواسع العريض . بين دائرة الأنا في أخص زواياها ودائرة الكلّ في أبعد آفاقها الإنسانية . " (5) فكلما انخرس الأديب بتصوير العلاقات الاجتماعية من الداخل حقق لأدبه ارتقاءً وسمواً فنياً . " (6)

(1) محمد الحاج ، مقالة بعنوان " صافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانية إلى أين ، مجلة نوافذ ، السنة الأولى ، العدد (5) ، 1991 ، ص 52 .

(2) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 31 .

(3) صافي صافي ، م. ن ، ص 54 .

(4) صافي صافي ، م. ن ، ص 44 .

(5) عبد الرحمن ياغي ، جولات في النقد الأدبي ، ص 54 .

(6) شكري عزيز ماضي ، في نظرية الأدب ، ص 73 .

المبحث الثاني : الحلم المسروق

1- تلخيص الرواية : (1)

تبدأ هذه الرواية على لسان الراوي مروان بضمير المتكلم حين عاد من الكويت بعد دخول الجيش العراقي إليها ، ليعود ويستقر في مخيم قدورة في رام الله ، وذلك بعد أن تلقى مكالمة من زوجة أخيه نجوى بأن أخاه خالد قد استشهد . وتتوفى ابنته ميسون على الحدود العراقية الأردنية لتكون آخر ما يفقده من ثمار غربته، حيث كان قد خسر بيته ومدخراته.

ويبدأ الراوي بسرد طبيعة الحياة الاجتماعية في المخيم بعد عودته، حيث تتعدم الخصوصية : " وسائل كشف الأسرار كثيرة يشترك فيها الرجال والنساء والأطفال ، وقراءة فناجين القهوة وجلسات الأزقة والتقرب والتباعد ، والتشفي والإشفاق " (2) كما تلقي الضوء على الحياة النضالية في المخيم والقمع الذي يلقاه أهله في المواجهات ، ويتذكر الراوي حياته في الكويت والتناقضات التي كان يعيشها المغترب في بلاد الخليج والصراعات التي يعيشها في سبيل العمل واستمرار وجوده في تلك البلاد .

وتبدأ حرب الخليج ، وتزداد مساحة الشائعات سواء من أمريكا وحلفائها أو من الطرف العراقي ، وتعترى الراوي حالة من القلق على أخيه عبد القادر الذي لم يغادر الكويت بسبب أعبائه المادية وأمام هذه الحالة يتمنى أن يمتلك شخصية الفتى محمد الذي عاش معظم حياته في المخيم ولا يخشى الموت " محمد لا يخاف الموت، محمد يحمل السيارة ويدخنها أمام والديه، محمد يعرف أكثر مني ومتفائل بينما أنا لست كذلك " (3) .

وفي غمرة أحداث حرب الخليج تلد زوجة الراوي مروان وترزق ولداً وتتصادف ولادة زوجة الراوي وولادة نجوى زوجة الشهيد خالد وترزقان بمولودين ذكرين .

وتصف نجوى أجواء حرب الخليج في مدينة رام الله وأمنيات العربي المثقف والبسيط في نتائج هذه الحرب ، وتصف زوجها الشهيد الذي كان يؤمن بالسلام ويؤمن بإقامة علاقات مع الآخر " الإسرائيلي " من أجل الوصول إلى الهدف الأسمى وهو الحرية وكان يصفهم بالمضللين حيث يقول : " عقولهم مسروقة من حكوماتهم مثلما حقوقنا مسروقة منهم " (4) .

(1) صدرت عن دار الكاتب في القدس عام 1992، وتقع في مئة وثمانين صفحات من القطع المتوسط ، وقد جاءت في أربعة فصول .

(2) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 8 .

(3) صافي صافي، م . ن . ، ص 20 .

(4) صافي صافي، م . ن . ، الفصل الثاني ، ص 6 .

وتسرد نجوى بداية تعرفها بخالد في مصنع عبد الرحمن المعبي للأدوية في رام الله (مصنع الشعب) وتتحدث عن إنسانيته وعلاقته الأصيلة بالطبيعة: "عاش خالد أيام طفولته في الجبال والوديان يأخذ عنزاته إلى المراعي حاملاً كتبه في حقيبته" (1) .

كما يظهر دورها النضالي الفاعل في الانتفاضة : " كنت فاعلة في الاجتماعات النسوية والعامية ، كنت فاعلة ومؤثرة منذ كنت طالبة في المدرسة " (2) . وتستمر نجوى في استرجاعها للزمن لتقف عند اتهام صاحب الأدوية لزوجها الشهيد بكتابة بيان تهديد له يتضمن ضرورة مضاعفة الإنتاج واستيعاب المزيد من العمال ورغم إنكار خالد الشديد لهذا الاتهام فإن صاحب المصنع قام بتشكيل لجنة أدانت خالد. ويصاب المناضل الفاعل بحالة من اليأس والضياع بعد أن باعت جميع محاولاته لإثبات براءته بالفشل ، ويظهر مدى النفوذ والتأثير الذي يتمتع به صاحب المصنع (البرجوازي) في المجتمع. وتستمر حالة الضياع التي تصيب المناضل إلى أن يتم اعتقاله في سجن النقب الصحراوي حيث ينهمك في نحت الحجارة ويصنع منها طيراً على شكل حمامة سلام .

ويأتي خبر استشهاد خالد مشوهاً حيث قتل على أيدي ملثمين قاموا باختطافه وقتله وتأتي الوفود التي تمثل كل أطراف الشعب كي تعزي بالشهيد وتصف نجوى تلك الحادثة بقولها : " كل محاولات التشويه لم تؤت ثمارها ، ازدادت الوفود والجموع بزيارة بيتنا ، منع التجول على حيناً لم يمنع الحشود من التجمع " (3) . ويأتي صاحب المصنع المعبي ليرتدي زي الوطنية وييدي استعداداً لدعم أسرة خالد الأمر الذي تقابله نجوى بالرفض المطلق .

وتظهر صورة فضاء الابن الأكبر للشهيد وكأنه يكمل مسيرة أبيه فيبدأ بتوزيع البيانات ويتحدث عن ظلم الاحتلال وضرورة محاربهه ويتم اعتقاله من قبل الجنود وإطلاق سراحه لحدائثة سنة . وتخيب أمنيات نجوى وكل الشعب المسحوق بانتصار العراق وسيادة العدل " كنت أتوقع أن تذلل أمريكا ويمرغ أنفها في التراب وبذلك نساهم نحن العرب في صناعة العالم الجديد وتغيير مساره بما يضمن حقوقنا ... أين الكيماوي يا جماعة؟" (4) .

ويظهر الراوي مروان ساخراً من شروط إسرائيل لتحقيق السلام وتستشعر نجوى عدم قدرته على الانسجام مع الأوضاع التي يعيشها وتقترح عليه حلاً عملياً وذلك بأن يقيم علاقات اجتماعية قدر ما يستطيع وذلك " لأن عمقنا الاستراتيجي يكمن في هذه العلاقات التي لم يستطع

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 9 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 10 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 64 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثالث ، ص 8 .

عدونا تقديرها " (1) كما نصحته بأن يصب اهتمامه على بناء مجتمعه ويحافظ عليه لأن تلك هي المهمة التي لا تنتهي . أما أخوه عبد القادر فيفقد أفراد أسرته جميعاً في ملجأ العامرية ويبقى منتظراً لتصريح الحكم العسكري لزيارة الوطن.

2- المضامين الروائية

أ- القهر الذاتي والجمعي:

يظهر هذا السلوك متفاوتاً من حيث تعدد مصادره وتأثيره على سلوك الشخصيات ، حيث تشكل الغربية وقسوة الحياة فيها ، والتمييز الفاضح الذي واجهته شخصية مروان سبباً من أسباب قهرها ، كما أن فقدانها لجميع مدخراتها وأموالها نتيجة حرب الخليج قد ضاعف من هذا الشعور فنراه يؤثر سلباً على سلوك الشخصية ؛ لتظهر منعزلة مترددة ، وغير قادرة على الاندماج مع ظروف الحياة الجديدة ، ويلازمها هذا السلوك حتى نهاية الرواية ويظهر ما يشير إلى حالته هذه حيث يقول : " حاولت أن أهرب من أخبارهم ، حاولت أن أفرح مع فرح ، فلم أستطع ، فالأخبار تضع حاجزاً بيني وبين ابني ، وتضع حاجزاً بيني وبين زوجتي ، وتضع حداً بيني وبين نفسي ، وتضع حاجزاً بيني وبين الإنسانية التي أعيشها . " (2) .

ويشعر كل من خالد و زوجته نجوى بالقهر نتيجة ممارسات البرجوازي عبد الرحمن المعبي الذي تأمر ضد زوجها وطرده من العمل، وعمل على تشويه سمعته من خلال التشكيك بوطنيته ، ويتأثر خالد سلبياً نتيجة شعوره بالظلم والقهر وينعزل ويتوقف عن نشاطه السياسي وقد وصفته زوجته في تلك الفترة بقولها : " ضعف كثيراً ورأيت وجهه أكثر شحوباً ، أطال شعر لحيته ، وغارت عيناه وجفّ بريقهما . " (3) ، أما زوجته نجوى فتستمر في مواجهة هذه الظلم وردة حتى بعد استشهاد زوجها ، وتشترك نجوى مع محمد ابن المخيم في الاعتماد على مبدأ المواجهة والتحدي في التخلص من الشعور بالقهر والظلم ، حيث نجد محمداً يواجه بطش الاحتلال ولا يأبى به بمنع التجول ، وهذا ما يزيدهما قوة وقدرة على مواجهة التحديات .

أما مظاهر القهر الجمعي فتظهر من خلال ممارسات الاحتلال القمعية على مدار السنين ويظهر فرض منع التجول مفروضاً على أهل المخيم طوال فترة حرب الخليج ، ويظهر هذا

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الرابع ، ص 4 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 2 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثاني ، ص 59 .

الشعور على لسان نجوى بضمير المتكلمين لتعبر عن الهم الجمعي بقولها : " قرف ، قرف ، قرف ، قرف ، قرف ، قرف ، إننا نعيش القرف ، ونحارب القرف طوال حياتنا ، فكيف نستطيع التخلص منه ؟! " (1)

ب- المرأة :

وقد تطور دور المرأة بالمقارنة مع الرواية السابقة حيث الزوجة الفاعلة في الأحداث والأم والمناضلة وقد استطاعت نجوى تجسيد هذه النماذج على النحو التالي :

الزوجة : التي تحب زوجها ، وتشير الأحداث إلى تمتعها بالحرية الأسرية التي تمكنها من اتخاذ قرار الزواج من الشخص الذي تود ، وهي تقف إلى جانب زوجها في الوقت الذي تخلى عنه المجتمع ورفاقه في النضال ، فنراها تخاطبه حينما شعر بأنه يثقل عليها بمشاكله السياسية : " لا يا حبيبي ، قضيتي قضيتك ، تمسني بالضبط كما تمسك . " (2) وهي الزوجة التي تراعي مشاعر زوجها، وتتضامن معه ، وتعمل على التخفيف من حزنه ويأسه بعد الظلم الذي وقع عليه وطرده من العمل حيث تقول : " ألقيت ما بيدي جانباً ، وأسرعت نحوه أحضنه ، حاول منعي لكني استطعت الإمساك به ربتّ على ظهره ، مسدت له شعره ، قبلته في أكثر من مكان . " (3) ونراها لا تكفي بالتضامن الشعوري معه ولكنها تأخذ دوراً فاعلاً في الدفاع عنه ، فتشاركه اللقاء مع الوفود الشعبية والوطنية ، وتحرضهم على أن يتخذوا موقفاً شجاعاً من أجله : " كلكم تعرفون ما حدث ، أمامكم سؤال يجب الإجابة عليه بصورة واضحة ، هل تستطيعون معرفة قدراتكم وقوتكم في لجم خطوة عبد الرحمن المعبي وإعادة خالد إلى العمل أم لا . " (4)

وهي **زوجة المعتقل** حيث تعنتي بطفلها وتحمل مسؤولية الأب والأم عندما يتعرض للاعتقال إلى جانب قيامها بعملها كموظفة لتتحمل المسؤولية المالية للأسرة . " كنت أرسله إلى المدرسة التمهيديّة ، أرجع قبله إلى البيت ، نتناول الغذاء معاً ونخرج لنتمشى قليلاً " (5) .

وهي **زوجة الشهيد** ، حيث تتلقى خبر استشهاد زوجها بصدمة بالغة وتصف حالتها: " تشتد أعصابي وتهتز ، تزول العشاوة عن عيني ، وصوت دورية في الخارج يقول ، ممنوع التجول ، أجد نفسي واقفة وأنطلق مسرعة نحوهم ، حاملة الحجارة أو أي شيء أجدّه . " (6) وهي

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 23 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 51 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 56 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 45 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 61 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 63 .

تستشعر تضامن الناس معها والتفافهم حولها ما يساعدها على اجتياز صدمتها . كما نراها تستشعر الوحدة وتتحمل أعباء الحياة بمفردها : " ولدت وحدي ، وفرحت وحدي ، وحزنت وحدي وبكيت وحدي ، لكنني شعرت بأهمية تحملي للمسؤولية . " (1) ومن الجدير ذكره أن الرواية الفلسطينية قد قدمت معظم النماذج النسائية التي زخر بها الواقع ، وتناولت صورة المرأة وقضيتها من خلال إبراز علاقتها بالقضية الوطنية ، وبالعالم من حولها من جهة أخرى ، وبالرجل من جهة ثانية " تلك العلاقة التي ستظل المفتاح الرئيس للحياة الإنسانية . " (2) .

إن علاقة نجوى بزوجها هي تجسيد للعلاقة بين الجنسين في فترة التحرر الوطني حيث شهدت المسيرة الفلسطينية تحول المجتمع الفلسطيني من مجتمع مأساوي ، إلى مجتمع نضالي وذي نشاط اجتماعي وسياسي مستمر ، وهذا أدى إلى نمو الكوادر النسائية السياسية ، وهذا الواقع الجديد يفرض تحولاً نوعياً في العلاقة بين الرجل والمرأة داخل هذا المجتمع . " (3) .

وهي **المرأة المناضلة** : حيث تمارس العمل السياسي منذ وجودها في المدرسة : " كنت أعمل على تحريض زميلاتي ليكنّ مثلي ، كنت مميزة في المدرسة ، وكنت مسؤولة لجنة الطالبات في الكلية ، اشتركت في النشاطات العامة للمرأة . " (4) وبعد مسيرة نضالية نراها تعين في اللجنة العامة لنساء فلسطين في الأرض المحتلة ، وتحاول كل الفصائل اجتذابها بينما تختار أن تعمل من أجل خدمة قضية المرأة .

ونجد المرأة تشارك في فعاليات الانتفاضة والمسيرات الوطنية إلى جانب تحمل مسؤولية البيت وتربية الأطفال حيث تتساءل نجوى : " ماذا تفعل هؤلاء النساء بعد رجوعهن إلى البيت سألت إحداهن فقالت : أرجع لأطبخ وأكنس وأعتني بالأولاد . " (5) ، وتنتقد نجوى المجتمع الذي يحد من دورها وفعاليتها في عملية التحرر والتقدم " سررت بفاعلية المرأة ونشاطها ، لكنه ظل ضمن الحدود الاجتماعية التي رسمها الزوج ورسمته الأطراف الأربعة ، الانتفاضة ستنتهي لكن المرأة لن تنتهي قضيتها . " (6) كما نراها تتحدث عن نشأتها وبيئتها التي أهلتها للعب دور محوري في الحياة السياسية حيث نجحت في التخلص من القيود الاجتماعية حيث تقول نجوى " إنني

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 14 .

(2) حسان رشاد الشامي ، (أطروحة دكتوراة) " المرأة في الرواية الفلسطينية " ، دمشق : جامعة تشرين ،

1997 ، ص 10 .

(3) ربيعة شبلاق ، تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية ، ص 62 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، الفصل الثاني ، ص 2 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 14 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 11 .

جئت من عائلة متوسطة لأبوين موظفين ومتعلمين... ، لقد أتيت لي الفرصة لأقرأ الكثير وأشارك في المكتبات العامة، لقد كنت موضع انتقاد الجيران والأقارب، كان يصرّ الأقارب أن لا أخرج عن تقاليدهم، وانتقدني الجيران بسبب خروجي على أعرافهم " (1) " فالمرأة عندما تتحرر من العبودية وتكسر القيد الاجتماعي المكبل لها ، فإنها بذلك تكون قد كسرت القيد النفسي بداخلها وهو القيد الذي يحول في كثير من الأحيان بين المرء وبين فعل الخير للصالح العام . " (2) ، " وقد بدأ تعامل نجوى مع واقعها الاجتماعي أكثر فاعلية وتأثيراً ، خاصة في الاجتماعات النسوية والعامة ، مما حدا بفصائل الثورة أن تحاول اجتذابها بعد أن أضحت رمزاً نسوياً ، تتبنى مواقف بعيدة عن الأطر التقليدية المرسومة . " (3)

وهي الأم التي تضحي من أجل تربية ابنها وحمايته ، ونراها تشاركه عالم الطفولة - رغم مسؤولياتها الكثيرة - كي تستطيع أن تجيبه على أسئلته الكثيرة ، كما أنها تخاطر في نفسها من أجل إنقاذه من الجنود . " نهضت مسرعة نحوه ، اعترضني الضابط ، صحت فيه أن يبتعد وينزل فضاء . " (4) .

ت- الطفولة :

تظهر ملامح الطفل في الرواية وقد تخلّى عن عالم البراءة والسذاجة ، والتحق بأدوار الرجال ، وقد ظهر ذلك في ملامح صورة كل من محمد ابن المخيم ، و فضاء ابن الشهيد خالد ويظهر محمد الذي لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً : " يبيع الترمس أحياناً ، يبيع الجرائد أحياناً أخرى ، يبيع الخضار ، يبيع كل شيء . " (5) ، كما يظهر ذلك من خلال لعب الأطفال التي تعكس أجواء السياسة التي يعيشونها بشكل يومي ، حيث طغت مفرداتها على مفردات الطفولة المعهودة : " يخرج فضاء ويلعب مع زملائه لعبة الانتفاضة ، يصرخ في الأطفال بأن هناك منعاً للتجول حتى نكاد نصدق ذلك ، يذهبون ويشرون كبريتاً ويسحقون عيدانه ، يحشونها في رصاصة فارغة . " (6)

والطفل يعيش والخوف والارتباك حين يداهم الجيش منزل أسرته ، ونراه يرفض أن يعامل معاملة الأطفال ، فقد ثار عندما تحسست أمه جسده بعد أن أطلق الجنود سراحه ، وطلب منها أن

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 2 .

(2) فيحاء قاسم عبد الهادي ، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية ، ص 128 .

(3) زكي العيلة ، المرأة في الرواية الفلسطينية ، ص 212 .

(4) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثالث ، ص 1 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الأول ، ص 20 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثاني ، ص 22 .

تخجل وأن لا تعامله بهذه الطريقة . كما أنه يشعر نفسه رجلاً بعد استشهاد والده ، حيث سيشارك أمه مسؤولية العناية بالطفل ، وتتناقض مشاعر الطفولة مع الإحساس بالمسؤولية عندما تذهب أمه من أجل الولادة ويرد على لسان نجوى: " فرح كثيراً ، بكى ، وقال : سأبقى في البيت لحين عودتك ، وسأساعدك في تربيته . " (1) . ويلاحظ المتتبع لأدب الانتفاضة أن الأطفال قد اخترقوا حواجز الضعف والخوف بسبب التغييرات العميقة في البنية النفسية التي أحدثتها الانتفاضة . " (2)

ويعيش الأطفال أجواء سياسية واجتماعية صعبة تولد فيهم العديد من التساؤلات العميقة حول العدالة والظلم والحق ، وهي تساؤلات تفوق مداركهم ونفسد أحلامهم البريئة ، " هل سيصبح الجندي مسالماً إذا ابتعد قليلاً ؟ كيف سيتحول شامير إلى رجل يحب السلام ؟ وتشك نجوى في قدرة الاختصاصيين في التربية وعلم النفس على التعامل مع أطفال فلسطين وفق المرحلة السياسية التي يعيشونها .

وعلى ذلك نلاحظ أن مظاهر الطفولة في هذه الرواية " مميزة فهي مسؤولة حيناً ، تساهم في إعالة أسرتها وهي متفوقة حيناً آخر قادرة على ما يعجز عنه الكبار بذكائها .. وهي تنتقل فجأة من طور الضعف إلى مرحلة النضج . " (3)

ث- الآخر :

ويظهر الآخر الأمريكي الذي يريد السيطرة على العالم ومقدراته دون أن يقيم وزناً لتطلعات الشعوب وأمانيتها ويرد ذلك على لسان نجوى : " القرار لا يحدده بوش وأعدائه الأمريكيون فقط ، بل تحده أمريكا بصفتها قائدة العالم الإمبريالي في السيطرة على مقدرات العالم وعدم السماح بإعادة رسم الخارطة السياسية بما يصطدم مع مصالحها كما فعل العراق . " (4) وهو الذي يسيطر على هيئات الأمم المتحدة التي يفترض فيها أن تحدّ من طغيان الدول وتمنع التجاوزات والاعتداءات .

كما يظهر الآخر الأمريكي الذي ينادي بحقوق الإنسان والديمقراطية ظاهراً ويقتل المدنيين في بغداد ليل نهار ويظهر ميزان العدالة الأمريكي الراجح الكفة دائماً لمصلحة حليفته إسرائيل حيث يحتج ويحشد احتجاج العالم معه إذا أصيب أحد المدنيين الاسرائيليين ، كما يرفضون الربط بين قضية فلسطين وقضية الخليج . " (5) وتصف نجوى الآخر الأمريكي بأنه عدو للإنسانية وقائل لها

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 31 .

(2) محمد توفيق الصواف ، الانتفاضة في أدب الوطن المحتل ، ص 114 .

(3) نجمة خليل حبيب ، النموذج الإنساني في أدب غسان كنفاني ، ص 33 .

(4) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 3 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 19 .

وتشير إلى التناقض بين قولهم في الإنسانية وممارستهم " تباهاوا بحبهم للطير وأذاعوا برنامجاً مصوراً عن غراب البحر وهو مبلل بالنفط، يأخذونه ويغسلونه ويعالجونه بينما يصطحبون الدجاج في ثكناتهم العسكرية وفي مواقع المواجهة لتكون دليلهم إن كان هناك هجوم كيماوي. " (1) . ويمكن إجمال صورة الآخر الأمريكي هنا على أنها " تجسيد لكل المعاني السيئة والقيم الهابطة ، والانتهازية والعدوانية والكراهية والإيذاء ، هو الجانب الأسود للحياة على الأرض ومجهض لكل المعاني الجميلة ، والجوانب المضيئة للإنسانية ، وهو رائد وراعي الظلم . " (2) .

ويظهر الآخر الإسرائيلي من خلال تأثير إعلامه السلبي ، ومن الجدير ذكره أن الفلسطيني كان مضطراً لمتابعة الإعلام الإسرائيلي في تلك الفترة ؛ ليعرف كيفية حماية الغرف من السلاح الكيماوي ومعرفة المناطق التي سيتم توزيع الكمادات الواقية فيها حيث لم تكن السلطة الوطنية الفلسطينية موجودة في تلك الفترة. فقد ورد على لسان "الراوي مروان" : "الإذاعة الإسرائيلية طلبت منا جميعاً أن نتابعها ، إنها تحاصرني ، تضعني في سجن رهيب ، لماذا أصدقها ؟ سواء صدقتها أم كذبتها فأنا مجبر على سماعها . " (3) وهو إعلام موجه لمحاصرة الفلسطيني والنيل من عزيمته ؛ فتظهر الأغاني التي يتم بثها في زمن محدد لتتغير معانيها الفنية وتتحول إلى وسيلة للقهر والكيد فأغنية " لا تلعب بالنار " هي مجرد تحذير مباشر لنا ولكل العرب وأغنية " على جسر اللوزية " تنتقل بنجوى إلى جسور العراق المهذمة أما الصوت الوحيد الذي تطرب له نجوى هو " صفارة الإنذار وصوت (نحمان شاي) يعلن عن هجوم صاروخي على إسرائيل . " (4) ومن مظاهر التأثير السلبي والسياسة الموجهة لهذا الإعلام الذي ما فتئ يستهتر بالثقافة العربية ولغتها ذلك التلغاز الإسرائيلي الذي " يشوه ويحوّر كل شيء ، تتغير الكلمات والعبارات بحيث تصبح الجمل مكسّرة ومبعثرة وصعبة التفسير ، ويظهر ذلك في الترجمة إلى العربية فمشروط تصبح " شرموط " بهدوء : بدهاء . السلام : الملاس . الوحدة : الحدوة . الثورة الروثة : مفاوضات : مضايقات . الفلسطيني : السفلى طيني . " (5) .

وتظهر نظرة الآخر إلى الفلسطيني على أنه بربري ، لم يرق يوماً إلى المستوى الحضاري الذي يعيشه " يظنون إننا بربريون ، ننقل الماء على رؤوس نساتنا ، وعلى جنبات حميرنا ، وننبرز

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 28 .

(2) صبحية عودة زعرب ، الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني ، ص 174 .

(3) صافي صافي ، م . س . ، ص 21 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 25 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 38 .

في العراق . " (1) كما يلزمه هاجس الخوف من الفلسطيني الذي يتحين الفرصة من أجل القضاء عليه وهو ما يبرر لهم قتلهم للفلسطيني دون رحمة فقد ورد على لسان أحد الاسرائيليين " إنهم يريدون قتلنا بصورة وحشية وبلا رحمة، أشعر بالفخر لأنني قتلتهم. " (2) " حيث عمل إعلام الآخر على إقناع شعبه دوماً بأنه مهدد كل الوقت من قبل ذلك العربي الذي يتهدد بالهجوم والقضاء عليه . كما اهتم التعليم بغرس هذه الصورة للعربي في الأذهان من أجل تكريس العداء للعرب ، مما جعل هذه الصورة المشوهة جزءاً من ثقافة المجتمع الإسرائيلي . " (3)

أما النظرة إلى الآخر من قبل الفلسطيني فقد ظهرت ضمن تيارين ، وقد مثل الشهيد خالد التيار الذي يعتقد بإمكانية السلام والحوار والتعايش بين الشعبين " يجب أن نقنع جيراننا بأننا نريد السلام ، ويجب أن نصل إلى كل بيت ، فلسطينياً كان أم إسرائيلياً ، حتى الجنود يجب أن يقتنعوا أننا نريد السلام . " (4) وتأتي هذه النظرة من خلال فكر إنساني حالم بأن يسود الأمن والأمان هذا العالم الذي يتسع للجميع " ما معنى أن تهدر دماء الهنود المسلمين والهندوس على موقع أثري قديم بينما يموتون من الجوع ، ما معنى الكره المتواصل بين اليابانيين والصينيين أو بين الهنود والباكستانيين . " (5) وتختلف بقية الشخصيات من حيث قناعاتها بجوى السلام والحوار مع الآخر وترى فيه استسلاماً ويرد ذلك على لسان نجوى حيث تقول: " السلام عندهم أن نكون سقائين وخطابين في خدمتهم ، السلام معهم هو أن نقبل بالعيش معهم دون إبداء أية ملاحظة تخدش حياء " امرأة أو طفل أو محارب أو مستوطن . " (6) ويرد استنكار مروان لهذه الكلمة التي فقدت معناها الحقيقي وأصبحت بمضمونها الإسرائيلي كلمة تثير الاشمئزاز ، كما يستمر كل من محمد وفضاء في مواجهة الآخر مما يعطي بعداً رمزياً برفض الجيل القادم لمضمون السلام الحالي كما تأتي نهاية خالد ومقتله رمزاً في الاتجاه نفسه . فالآخر بالنسبة لهذه الشخصيات يبدو " غير ناضج لتحمل مسؤولية السلام وغير قادر على التعايش مع جيرانه، وهو عدائي وموهوم" (7).

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني، ص 26 .

(2) صافي صافي ، م.ن . ، ص 27 .

(3) وليد أبو بكر ، صورة العربي في الأدب الإسرائيلي ، ص 42 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 17 .

(5) صافي صافي ، م.ن . ، ص 16 .

(6) صافي صافي ، م.ن ، الفصل الرابع ، ص 2 .

(7) المتوكل طه ، صورة الآخر في الشعر الفلسطيني ، ص 185 .

ج - الغربية:

لقد أسهبت الرواية في الحديث عن الغربية والاعتراب من حيث تأثير المكان الجديد واختلاف الثقافة ، ومشاعر الشوق والحنين للوطن ، وما تعرّض له المغتربون الفلسطينيون في الكويت من مظاهر التمييز أثناء حرب الخليج وآثار هذه الحرب عليهم . . " ويبدو أن الإنسان الفلسطيني بحكم تكوينه النفسي والبيئي والفكري يكون عزيز النفس جيّاش العواطف ، إذ هو شديد الرفض للأشياء التي تحط من قيمته . (1) .

ويصور الراوي مروان مشاعر المغترب الذي يصرّ على البقاء بعيداً عن وطنه بسبب الإغراءات المادية التي توفرها الغربية ، وبسبب الشعور النسبي بالأمان فيها . كما تظهر مشاعر الشوق والحنين المستمرة للوطن حيث ورد على لسان مروان: " تمنيت أن أصل الوطن وأصبح بلون ترابه ، حيث لا أشعر بالغربة ولا الاعتراب ، وهكذا انبعثت في الحياة من جديد . " (2) وتختلف طبيعة العادات والعلاقات في الخليج " لا يسلم الرجال على النساء بالأيدي هناك ، يجلس الرجال معاً وتجلس النساء في مكان آخر ، ومن خلف باب الصالون تتادي الزوجة زوجها أو تطلق إشارة لأن يأتي ويأخذ حصة الرجال من الشاي والقهوة . " (3)

ويعامل الفلسطيني المغترب كأجنبي وتطلق عليه صفة " أجنبي " بلهجة أهل البلد ، ويبرز التمييز من خلال أغاني الأطفال عندهم " هذا مصري فولي ، هذا فلسطيني حمصي ، هذا هندي ناسي ، وهذا فلبيني سيني . " (4) ، وتبدو إقامة علاقات اجتماعية مع أهل البلد غاية في التعقيد والتداخل حيث تسود نظرة دونية إلى الأجانب الذين يمكن أن يتعرضوا للضرب إذا دخلوا بعض مناطقهم ، كما أن زيارة أحدهم إلى بيت من بيوت المغتربين تجعله محط أنظار جيرانه الذين قد ينظرون إليه برؤية وتشكك وفساد أخلاق .

ويصف الراوي العلاقة بين المغترب في الكويت وأهلها بأنها تتاحرية ، حيث يعتقد الأجانب أن لهم الفضل في بناء الكويت الحديثة ، ويعتقد أهل البلد بأنهم قد جاءوا لسرقة أموالهم وهم ينظرون إلى الأجانب كخدم مهما كان حظهم من التعليم أو الثقافة . (5) وتظهر دعوة الكاتب إلى ضرورة البقاء في الوطن رغم كل الظروف الخائفة فيه من خلال النهايات التي رسمها للشخصيات المغتربة . فالراوي قد فقد أمواله ومدخراته وتوفيت ابنته ميسون التي أنجبها في بلاد

(1) نادي ساري الديك ، محمود درويش ، الشعر والقضية ، ص 9 .

(2) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 6 .

(3) صافي صافي ، م.ن . ، ص 9 .

(4) صافي صافي ، م.ن . ، ص 13 .

(5) صافي صافي ، م.ن . ، ص 14 .

الغربة ، وفقد أخوه عبد القادر جميع أفراد أسرته في ملجأ العامرية وأصبح مشرداً ينتظر موافقة الحكم العسكري كي يزور وطنه ، وكأن لسان حاله يقول أن جميع الإنجازات في الغربة مهما عظمت فمصيرها إلى الزوال ، وأن الإنجاز المادي أو المعنوي الحقيقي هو الذي يحققه الإنسان في وطنه .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرواية قد كتبت في ظل حرب الخليج ، لذلك نجد أن الخطاب السياسي قد طغى على بعض أجزائها، وقد عاش الكاتب هذه الفترة مع أبناء شعبه في مخيم قدورة يلتقط آمالهم ويعيش أحزانهم ، وصدماهم ، فقد وردت الكثير من المشاهد التي تصور تفاعل الناس مع أحداث هذه الحرب والآمال التي علقوها عليها ، ويصفهم الراوي بقوله: " الجميع كانوا في انتظار الجديد وما هم يجدونه ، بعثت فيهم العروبة مرة واحدة ، كانوا أكثر قرباً من أي وقت رأيتهم فيه ، بعث فيهم المارد العربي الذي نام طويلاً . " (1) ونراه يصف مرارة الخيبة بعد هزيمة العراق : " تلاقت العيون حزينة ومشمئزة ، ورأيت دموعاً في المآقي ، وغصّات في الحناجر ساد هدوء ، راحت العيون تتطلع نحو الأرض ثم خرج كلّ إلى بيته . " (2) وعلى ذلك يمكن اعتبار هذه الرواية " صرخة إدانة ضد المحيط الخارجي القاتل للحلم والملوث لحياة الإنسان . " (3)

أما على الصعيد الاجتماعي فيظهر التعاضد والتكاتف بين أفراد الشعب الفلسطيني في المحن والشدائد حيث يعتبرون أنفسهم أسرة واحدة تجمعها وحدة المشاعر ويوحدها الهدف والمصير، ونرى ذلك في أكثر من مشهد في الرواية ومن ذلك تضامن الناس مع زوجة الشهيد خالد والتفاهم حولها بعد ولادة فضاء حيث ورد على لسان نجوى : " غاب شباب الحيّ وجاءوا بهدية، جاءت النساء بهدية وجاء الرجال بهدية ثالثة، لم أكن أعرف بأن الحيّ استطاع تنظيم نفسه لهذه الدرجة . " (4) .

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 22 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثالث ، ص 6 .

(3) نزيه أبو نضال ، التحولات في الرواية العربية ، ص 13 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، الفصل الثاني ، ص 34 ، 35 .

المبحث الثالث : الصعود ثانية

1- تلخيص الرواية (1) :

تدور أحداث الرواية في دولة عربية لم يحددها الروائي بل أعطى الأمانة من الصفات الجغرافية ما يلائم أية دولة وذلك لإضفاء صفة العموم والشمولية وتحدث عن مشكلة طالما تناولها فكر الإنسان الأديب وهي الاعتراف تحت وطأة التعذيب والقهر. الأمر الذي يولد صراعاً نفسياً رهيباً تتخلله لحظات قاسية في محاسبة الذات والآخرين. أما زمنها فهو آخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات حيث الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982 .

يلتقي ماجد بمجاهد الذي يحمل فكراً مختلفاً في زنازين التحقيق، ويبدوان في حالة من الإعياء الشديد ، ويبدأ كل طرف بنقد الأحكام والأعراف الحزبية التي تغفل إنسانية الإنسان وتتباين شخصيات الحزب الواحد في تبرير الاعتراف أثناء التحقيق ، حيث أن همّام اليساري يعتبر الاعتراف خيانة ، أما حسين فيعتبر أن الاعتراف جائز أحياناً .

وتمضي الرواية على لسان الكاتب بضمير المتكلم في سرد رحلة العذاب وطرق التعذيب الرهيبة ، والقمع الجسدي والنفسي الذي يتبعه النظام السياسي من أجل الحصول على الاعتراف ويلتقي ماجد برفاقه في السجن ، فتتغير معاملة هشام له بعد علمه عن اعترفه في التحقيق ، كما يحتدّ حاتم ويوشك أن ينفذ عليه ، ويتم نقله إلى غرفة أخرى ، هي غرفة المجرمين بالعرف المدني ، فيظهر أحمد قاتل أبيه الذي اعتدى على زوجته ، وآخر مزور لجواز السفر من أجل العلاج ، وثالث متعاطٍ للحشيش وتظهر الأبعاد الإنسانية في هذه الشخصيات ودوافع جرائمهم .

ويكشف ماجد عن سبب اعترافه ، حيث ادّعى والده أن والدته مريضة جداً مما أدى إلى انهياره ، وقد اكتشف لاحقاً أن هذه مجرد كذبة في محاولة من الأب لإنقاذ ابنه من الاعتقال والتعذيب . وهذا شبيه بما فعلته أنيسة أخت رجب في شرق المتوسط ، حيث ساهمت الأخبار التي نقلتها له عن عذابات أمه ومرضها في انهياره ، حيث يصفها بقوله: " أنيسة التي دمرت حياتي ، جعلت أيامي الأخيرة في السجن جحيماً ، كانت تنقل إلي حقرات العالم الخارجي وانتهائه " . (2)

يخسر ماجد علاقته بمحبوبته ريم بعد صراعٍ مرير مع نفسه، ويقرر أنه إنسان آخر بعد الاعتراف ويحتاج إلى بناء نفسه حسب رؤية جديدة ويمضي في السجن مدة ستة أشهر، الأمر الذي ناقض الصفة التي عقدها معه المحقق الذي يخبره أن الفترة التي قضاها في السجن كانت عقاباً لنواياه ضد النظام ويلجأ إلى بيت خاله بعد خروجه من السجن لتبدأ رحلة البحث عن الذات أو "

(1) صدرت عن دار الكاتب في العام 1994 ، وتقع في خمسة فصول، تضمها مئة وسبع وسبعون صفحة من

القطع المتوسط .

(2) عبد الرحمن منيف ، شرق المتوسط ، ص 44 .

التكفير عن ذنب اعترافه ، " ويبقى تحت مراقبة أجهزة الأمن ولكنه يواجههم بسخرية وثبات حتى يقلعوا عن مراقبته . (1) .

ويبدأ بمحاسبة فردية وحزبية صريحة " اكتشفت أن عالم السياسة والعمل السري ليس هو كل شيء ، اكتشفت أنني تركت دراستي وأهلي وأقاربي وحتى مشروع خطبتي ، عرفت أن هناك أشياء غير السياسة البحتة من حقي أن أعيشها " (2) .

ويقرر ماجد أن يلغي إفادته أمام القاضي والتي تتضمن اعترافه على همّام وكانت تلك خطواته الأولى في طريقه لعلاج نفسه ، الأمر الذي يلقي به في السجن مرة أخرى ولكن هذه المرة على طريقته ويستقبله هشام استقبال من قبل توبته : " عانقني وقبّلني قائلاً .. أهلاً يا رفيق " (3)

وفي السجن يفاجأ ماجد بأن حاتم وهو مسؤول حزبي كبير قد تعاون مع النظام مقابل إطلاق سراحه .

تدب النشوة في قلبه بعد قراره الشجاع ويعيش حياة سعيدة في السجن ويحظى باحترام كل رفاقه ويبدأ بطرح وجهة نظره وإن اختلفت مع حزبه ورفاقه .

يقرر ماجد العودة إلى أرض الوطن بعد خروجه من السجن ، لكنّ همّام يقرر وجوب ذهابه إلى بيروت لمواجهة الاجتياح الإسرائيلي لها ، وأثناء الاجتياح يشارك ماجد ورفاقه والمعتقلون السياسيون من مختلف الاتجاهات السياسية ، في إرسال برقيات التضامن مع المقاومة وشجب العدوان وإعلان الإضراب في السجن .

وأخيراً يقرر ماجد العودة إلى أرض الوطن ، وينال قراره احترام مسؤوله هشام الذي يقرر أن يرسل رسالة إلى الرفاق للاهتمام به.

2- المضامين الروائية

أ- تجربة الاعتقال :

" يعود اهتمام الرواية العربية بقضية السجن السياسي إلى عدة عوامل منها : أن الأدب ينزع بطبيعته إلى الحرية حيث تمثل هذه التجربة تحدياً للمبدع لا بد له من أن يجابهه كما أن العالم العربي أصبح من أكثر مناطق العالم خرقاً لحقوق الإنسان وصارت أنظمتها الحاكمة هي الأشد استبداداً وتعسفاً في معاملة المواطن العربي . " (4) .

(1) صافي صافي ، الصعود الثانية ، ص 113 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 133

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 148 .

(4) عمار علي حسن ، النص والسلطة والمجتمع " القيم السياسية في الرواية العربية " ، ص 180 .

تعرضت الرواية لتجربة الاعتقال وتأثيرها على النفس البشرية ، كما صورت أساليب التعذيب الرهيبة التي يتعرض لها المعتقلون، والمهانة التي تترك آثاراً قاسية لا يفلح الزمن في محوها ، كما تناولت العلاقة بين المعتقلين ، وصورت مشاعر الأهل والأقارب وخوفهم الشديد على أبنائهم وعجزهم عن مد يد العون لهم في ظل نظام عربي يقوم على قمع الرأي الآخر ومصادرة الحريات ، كما قارنت الرواية بين السجن " الصغير " والسجن الكبير وهو الحياة في ظلّ القهر ومصادرة الحريات ، وصورت رحلة الصعود الإنسانية من مرحلة السجن الداخلي وهي مرحلة الجمود الفكري والخوف والوهم إلى مرحلة التحرر الداخلي وانعتاق الذات من أوهاها وخوفها حيث تجد أمنها وسعادتها من خلال الالتصاق بالجماهير وهي حرية يمكن للإنسان أن يشعر بها حتى وإن تواجد بين القضبان .

ب- الآخر :

ويمثله في الرواية النظام العربي القائم على مصادرة الحريات ، وذلك من حيث أنه يشكل "مصدراً دائماً للقلق ، ويجب اتخاذ الحيطة والحذر منه لأنه لا يؤمن جانبه ، والعلاقة معه تقوم على أساس غالب ومغلوب . (1) ويتشكل التناقض في هذه الرواية بين النظام العربي وأحزابه السياسية ، وتبدو العلاقة بينهما في الرواية قائمة على التناحر والنزاع ، الأمر الذي يحدّ من فاعلية المواطن العربي ويأسر آفاقه التي تصبو إلى الكرامة والعدل والتحرر من قيود الخوف والتهديد ، ليأخذ دوره الإنساني في عملية البناء الحضاري . فالآخر بالنسبة للفلسطيني قد مثّل " أطرافاً أخرى لا تقف في مقابل الأنا وقوفاً ضدياً ولكنها تمثل صورة من الخذلان أو الانحياز إلى الآخر بأي شكلٍ من الأشكال ، فالعربي الذي يمتلك وطناً التجأ إليه الفلسطيني وعانى فيه من القهر والغربة وعدم الاستقرار . " (2) .

وقد عمم الروائي الأمكنة من خلال الإشارة إلى المكان باسم " نظام الوادي " من أجل شمولية تناول والوصف والنقد ؛ فلم يكن النظام السياسي وحده موضع الانتقاد ولكنه طال الأحزاب السياسية أيضاً التي تساهم بدورها في زيادة الرقعة القائمة في هذه العلاقة وقد جاءت صورة النظام في الرواية كما يلي :

(1) الطاهر لبيب ، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه ، ص 21 .

(2) حسن قسيم محمد عبيدات ، (أطروحة دكتوراة) بعنوان " الآخر في الرواية الفلسطينية المعاصرة " القاهرة جامعة القاهرة ، 2002 ، ص 6 .

النظر إلى الأحزاب السياسية كتناقض يهدد استمرار السلطة ، حيث يبدو الحفاظ على هذه السلطة واستمرارها هو الهدف المركزي للنظام " فقد ورد على لسان أحد رجال المخابرات: " أي نظام لا يستطيع الصمت ، إنه لأمر طبيعي أن يدافع عن نفسه ، كل الأنظمة تدافع عن نفسها ونجد النظام مع حرية القول ولكنه ضد حرية الأفعال : " تكلم كما تريد ، لكن لا تتخربط في عمل سري . " (1) وهو يعتمد على القتل والبطش في مواجهة الأحزاب المعارضة حيث ورد على لسان مجاهد : " لقد سحق الشعب سحقاً ، أبادوا أحياء بكاملها ، أبادوا السجناء .. كنا نختفي بين الناس لكنهم كانوا يبيدون الناس. " (2) وتظهر صورة النظام مستهتراً بإنسانية الفرد المعارض ، ويطلق لفظ " حفلة " على أبشع ممارسات التعذيب والإذلال . حيث ورد على لسان ماجد : " ربطوا رجلي بحبال ورفعوها ، أمسك بي اثنان ورأيت " أبو سمرة " ينزل من السماء فتزل يده كالمهدة وتلقي بحملها على رجلي وتبتعد ، تعلق وتسقط محدثة دويماً في جسدي . " (3) .

أما عن العلاقة بين النظام والناس ، فيظهر في الرواية أن النظام يرى أن المواطن الصالح هو المخلص للدولة ، أما الناس فقد ملوا الأحزاب وملوا النظام أيضاً ، لكنهم يتعايشون معه كما أنهم يركضون وراء لقمة العيش ، ويعيشون على فتات النظام وهم يرون أن السياسة لا تطعم خبزاً . (4) ، وتتردد الأمثال الشعبية التي تدعو إلى تجنب المواجهة مع النظام ، وتدل على علاقتهم القائمة على النفاق أو الخوف ، ويبدو التعاطف الحذر من الناس مع المعارضين ويظهر ذلك في موقف المرأة التي دعت " ماجد " ورفاقه إلى الهرب من كمين لأجهزة الأمن ، كما ويظهر ذلك من خلال اعتذار خبراء الخطوط عن قبول دعوة أجهزة الأمن من أجل تثبيت اعترافه: " أرسلوا لأكثر من خبير خطوط وحين علموا بتفاصيل القضية اعتذروا . " (5) .

ت : النزعة الإنسانية:

لقد مثلت شخصية ماجد في رحلتها عبر ذاتها وتناقضها مع المظاهر السلبية في المجتمع العربي ونقدها للجمود الحزبي رؤية شاملة من أجل الوصول بالفرد إلى قيمته الإنسانية " أما ذكره لطائفة معينة فهذا يعني الانتماء القومي والأممي التي هي روح إنسانية أكثر منها أيديولوجية كما

(1) صافي صافي ، رواية " الصعود الثانية " . ، ص 37.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 16 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 61 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 117 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 162 .

نحسها في فكر ماجد . " (1) وهو لا يرى في معاناته النفسية والجسدية سبيلاً من أجل تحسين صورته في الحزب بعد اعترافه ، وقد ورد على لسانه : " الخيار الوحيد أمامي حتى أعود إنساناً " (2) وهو يرى في تلك المعاناة معركة الحياة ويرى موقعه فيها من خلال احترامه لنفسه وللشعب والقضية . وتلتقي هذه الرواية مع " شرق المتوسط " في تصويرها الألم الإنساني الناتج عن الاضطهاد والظلم حيث ورد على لسان بطلها رجب في وصفه لعذابات البشر من منابت مختلفة : " أمس فوق ظهر الباخرة ، كانوا يغنون بشكل مختلف . كانت أفواههم وهي تصرخ بتلك الأهات تحمل معنى ألم الإنسان ، رأيت دموعهم المتحجرة في عيونهم . " (3) .

ومن هنا كان نقد ماجد للنظام السياسي والمعارضة كونهما يهملان هذه القيمة ويعتبرانها آخر همها فزراه يقول : " فمتخذو القرارات يعتبرون بقية البشر مجرد أدوات لتحقيق لمطالبهم ، ما أحلم به هو أن يكون هناك تطابق كامل بين القرار والوضع الإنساني . " (4) .

وفي الإطار نفسه نراه " ينزع للحديث عن التناقض الاجتماعي، رجل ، امرأة، ذكر أنثى وهو ينظر للمرأة على أنها إنسان قبل أن تكون أنثى ، هذه هي النظرة الحضارية عنده وهو في الوقت نفسه يحب ويعشق ويحس بها كأنثى دون أن ينزل من المستوى الإنساني عنده وعندها . (5) ونجد هذه الشخصية الإنسانية تقترب من السجناء الجنائين وتستمع لمشاكلهم وتعيشها وتعتبرهم ضحية المجتمع الذي داس إنسانيتهم ثم عاملهم كمجرمين ، ونجد الراوي يصاب بحالة شديدة من الحزن بعد إعدام أحمد الذي قتل أباه لاعتدائه الجنسي على زوجته وهو يصفه قائلاً : " وجدت أحمد أكثر إنسانية ونضجاً ، كان يهوى الغناء والعزف على أوتار العود ، كان يغني والحزن يتناثر من عينيه " (6) . كما نلاحظ أن ماجدا يوظف ثقافته الدينية والأدبية والفنية والتي هي جزء من الثقافة الإنسانية ويستعين بها من أجل الوصول إلى ذاته الإنسانية التي لم يستطع الحزب أن يحد من تطورها ولا النظام من قهرها . ومن هنا فإن رحلة ماجد في الصعود تمثل " حالة السعي الدائم نحو الإنسانية الكلية التامة التي يتطلع إليها ، إنه يريد أن ينفذ إلى رحابة الإنسان الكل ليتخلص من

(1) تحسين يقين ، مقالة بعنوان : رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ، 2001 ، ص 69 .

(2) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 121 .

(3) عبد الرحمن منيف ، شرق المتوسط ، ص 133 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 154 .

(5) تحسين يقين ، مقالة بعنوان : رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، م . س . ، ص 70 .

(6) صافي صافي ، م . س . ، ص 77 .

ضيق الإنسان الفرد. " (1) ولعل ذلك يأتي من " نظرة الأديب إلى الأدب الكبير الذي يصلح لعصره ولكل عصر وينفع الناس ويعرض لشؤونهم ، ويوجه حياتهم في جيلهم ثم يمضي بعد ذلك لينفع الناس في كل الأجيال حيث ينظر بإحدى عينيه إلى الوطن الصغير ممثلاً في بيئته وزمنه ، وبعينه الأخرى إلى الوطن الأكبر ممثلاً في الإنسانية . " (2) والروائي ضمن هذه النظرة ينتقل من محلية التجربة إلى إنسانيتها حيث لا تعارض بينهما " فالأديب المعاصر يمكن أن يصغي إلى نبض الحياة في أضيقة زقاق من قرينته التي لا موضع لها على أي مصور جغرافي ، محلقاً في الوقت نفسه في رحاب الأفق الإنساني ، فوق كل الحدود " (3) .

ث- المرأة : وقد ظهرت عدة نماذج لها ، ومنها :

الأم: وظهرت ملامحها من خلال " أم ماجد " ، ولم يعطها الكاتب اسماً لتبدو ككل أمهات المعتقلين ، حيث ظهرت صبورة ، تتحمل المشاق والآلام من أجل تربية أبنائها ونراها توصيه بعدم الاقتراب من عالم السياسة خوفاً عليه ، وحماية لمستقبله ، وكأنها تستشعر ما سيلمّ به بسببها وهي سبب إحساسه الإنساني المرهف حيث زرعت فيه قيمة حبه لذاته وللآخرين منذ الصغر ، وقد رأى في انتمائه السياسي طريقة للدفاع عن الآخرين المظلومين . ونراها ينفطر قلبها حزناً عند لقائه في السجن ، وتشعر أن كل السجناء أبنائها وتدعو الله أن يفرج عنهم جميعاً وهي تشكل الملاذ الآمن والقيمة الإنسانية التي لا تتغير بتغير الظروف ، وهي تبرز معاني التسامح والعفو مهما بلغت الأخطاء فنراها تعمل على رفع معنوياته في السجن رغم وصيتها له بالابتعاد عن عالم السياسة وتطلب منه أن يواجه الموقف كرجل (4) كما تلجأ زينب إلى أمها بعد أن تزوجت من المناضل " همام " رغماً عنها " زينب أفرج عنها وعادت إلى أهلها إنها الآن بين أحضان أمها . " (5) .

وتظهر " أم هشام " التي تتحمل بعض المسؤوليات النضالية حيث تظهر كحلقة وصل بين التنظيم داخل السجن وخارجه فقد ورد على لسانها " أخبرني هشام بأنه سيرسل رسالة للأصدقاء هناك ، يوصيهم بالاهتمام بك ، أعطني عنوانك . " (6) .

(1) عبد الرحمن ياغي ، جولات في النقد الأدبي، ص 186 .

(2) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص 307 .

(3) عائشة عبد الرحمن ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، ص 213 .

(4) صافي صافي ، الصعود الثانية ، ص 176 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 96 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 177 .

المرأة المناضلة : حيث يبدو الأثر الكبير للثورة في النهضة النسائية وفي تطور المفاهيم والأفكار بالنسبة للنظر إلى المرأة على " أنها كيان خاص مستقل ، له حقوقه وعليه واجبات تجاه وطنه " (1) ويظهر ذلك من خلال شخصية " زينب " التي تظهر عضواً نشطاً في الحزب تقوم بمهامها النضالية ، وتلتزم بالقرارات الحزبية شأنها في ذلك شأن الرجل ، وهي تملك قراراتها الخاصة في السفر إلى بيروت والزواج من الشخص الذي اختارته ، ولا تولي العادات الاجتماعية أي اهتمام فتتحدى رغبة أمها في إقامة حفل زفاف لها ، ويرد على لسانها مخاطبة أمها : " الذي أريده يعيش الآن في الوادي ولا تنسي أنني أرضخ لقرار حزبي بغض النظر عن المسائل الاجتماعية التافهة . " (2) . أما النظام فإنه لا يسجن النساء بتهم سياسية حيث تم الإفراج عن زينب وزوجة هشام بعد التحقيق معهما عدة ساعات .

كما يظهر أن عمل المرأة النضالي هو الذي يحقق لها مبدأ المساواة مع الرجل " الرجل ينقل البيانات ويوزعها ويقاوم ، والمرأة إذا قامت بنفس العمل أصبح لا فرق بينهما . " (3) . وتظهر بعض ملامح التحرر الاجتماعي لدى أعضاء الحزب والانفلات من عقاب أعرافها من خلال سماح همام لزوجته المناضلة زينب بالسكن مع ماجد في نفس الشقة وذلك للضرورة الأمنية . أما نظرة المجتمع لهذا التحرر فيظهر رافضاً له بشدة ويظهر ذلك من خلال موقف خال ماجد الذي أعطى " زينب " صفة المومس واتهم الرفاق أنهم كانوا يتبادلونها في البيت كما يعتبر الزواج خارج المحاكم الشرعية مرفوضاً حتى وإن كان ذلك بسبب مطاردة أجهزة الأمن لزوجها فقد ورد على لسانه : " هذا ليس زواجاً ، لقد كنتم تتبادلونها . " (4) .

ويظهر نقد الجمود الحزبي وإهماله للعلاقات الإنسانية أكثر وضوحاً من خلال موقف كل من هشام وهمام لزوجتيهما المناضلتين بعد الاعتقال . حيث اعتبر أن سبب إطلاق سراحهما هو الاعتراف ، فتخليا عنهما متجاهلين بقسوة تامة قيمة المشاعر الإنسانية والحياة المشتركة بينهم ويظهر ذلك حين قرر هشام أن يلتقي زوجته بعد إطلاق سراحها " وجه لها تهمة الاعتراف أنكرت ، أبلغها بتجميد عضويتها لحين اتضح الأمور وقال : لن أتصل بك منذ الآن . " (5) **وتظهر صورة المحبوبة** من خلال شخصية ريم وعلاقتها بـ ماجد وهي تمثل المرأة المحافظة التي تهدف من علاقتها مع الرجل إلى الزواج وبناء الأسرة، وتظهر ضعيفة لا تمتلك حرية القرار في زواجها

(1) سيد حامد النساج ، تطور فن القصة القصيرة في مصر ، ص 118 .

(2) صافي صافي ، الصعود الثانية ، ص 96 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 97 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 94 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 97 .

حيث تتزوج من غير ماجد حسب رغبة أخيها ، وهي لاتهتم بالثقافة بشكل عام وإنما تظهر كشخصية رومانسية تدور في فلك عواطفها ولكنها لا تملك الجرأة كما " زينب " في الوقوف ضد رغبة أخيها، ولا تجرؤ على زيارة ماجد في السجن وقد ورد على لسانها " كيف أزورك في هذا الوضع، كل الناس بمن فيهم خالك اتهموك بصفات لا أستطيع التلفظ بها، لقد كنت محاصرة فكيف أزورك . " (1) ، والحصار هنا هو طوق العادات والتقاليد في المجتمع .

كما يعرض الكاتب للظلم العام الذي تتعرض له شريحة واسعة من النساء في علاقتها مع أزواجها، وهو ظلم إنساني يتخفى بين ادعاءات الحياء والمحرمات الجنسية . فقد ورد على لسان زينب في معرض وصفها لتلك العلاقة : " هو الذي يبدأ وهو الذي ينهيه ، لم أسمع أن امرأة تطلب ذلك من زوجها ربما لو فعلت ذلك لشك فيها ، لا يريد أن تكون مثله ، فهو الرجل وهي المرأة . " (2) .

وتجدر الإشارة إلى النقد الاجتماعي الذي يظهر خمول الناس الفكري ومحدوديته ، حيث تعمل الشريحة الأوسع منهم من أجل توفير لقمة عيشها ولا تمتلك رؤية شمولية نحو التقدم والتطور ، حيث يؤثرون القديم رغم تخلفه على اللحاق بالركب الحضاري ويصرّون عليه بسبب تعودهم وخوفهم من أي جديد ، " فقد تسببت آليات القمع والقهر المنظم في آلة الدولة في المجتمع العربي إلى كل أدران التخلف والتدني وسيادة اللاعقلانية والتفكير المطلق والغيبى وإلغاء الحوار والخلق الإبداعي . " (3) وقد شمل هذا النقد بسطاء الناس ومتفقيهم على حدّ سواء، وقد ورد ما يشير إلى ذلك من خلال موقف الأطباء الراضين لاستخدام الأجهزة الدقيقة في العمليات مبررين ذلك بأنهم لا يجدون متعة في استخدامها " وحاجتهم الأطباء الراضين لاستخدام الأجهزة الدقيقة في العمليات مبررين ذلك بأنهم لا دقة لصانعي الآلات لتطويرها ، لكن العرب لم يقتنعوا . " (4) كما يظهر ذلك من خلال إعجاب الناس بشرطي المرور الذي يعمل على تنظيم حركة السير بأعضائه متناسين التكنولوجيا " كانوا يخضعون لإشاراته ، يتناسون التكنولوجيا ويتبعون الحرفية . " (5) ولا يخفى البعد الرمزي في هذا المشهد حيث حاجة الناس المستمرة إلى من يضبط سلوكهم وينظم حياتهم وافتقارهم إلى الموازن الذاتي في ذلك .

(1) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 142 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 103 .

(3) عبد الرحمن أبو عوف ، القمع في الخطاب الروائي العربي ، ص 10 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 125 .

(5) المكان نفسه .

لقد أقام الكاتب في هذه الرواية " جسراً يمتد إلى المستقبل امتداداً لا يحده شيء ، ومادة هذا الجسر هو همّ الكتاب بأفكارهم وأخلاقهم وتمردهم على كل ما وجد من الأكاذيب والحقائق أيضاً ، فالحقيقة الموجودة ليست هدف الكاتب ، وإنما هدفه الحركة والتغيير . " (1) .

(1) حسين مروة ، دراسات نقدية ، ص 90 .

المبحث الرابع : اليسيرة

1- تلخيص الرواية: (1)

تعتمد الرواية على مزج الأسطورة بالواقع وتتخذ من التراث وسيلة لذلك؛ فاليسيرة هي قرية فلسطينية تقع ما بين السهل والجبل ويمكن أن تكون أية قرية قبل عام الهزيمة والتهجير (1948)، ويمكن للقارئ أن يشاهد لوحات متناسقة عن الريف الفلسطيني البسيط والعادات والمعتقدات والبيئة ، كما أنها تتخذ معناها الأسطوري من خلال الأحداث الخارقة ومن خلال التفسيرات المباشرة للراوي لسبب تسميتها " يقول المتقنون بأن اسمها الأول كان " أشيرة " وهي خالقة الآلهة ، وهي " أشيرة البحر " أي الربة والسيدة العظيمة ، وعندما احتل البعل مكانته الرفيعة ، وأصبح خليفة ، أصبحت زوجة له بحكم الإرث " (2) .

تبدأ الرواية بالحديث عن شخصيتين مركزيين في الرواية هما: " أبو عمي " و " فظيعة " حيث أحاطت ظروف خارجة عن المؤلف بولادتهما ونشأتهما وزواجهما ما أضفى عليهما طابعاً أسطورياً ؛ أما " أبو عمي " فقد ولد أيام الثلجة الكبيرة وتوفيت أمه في يوم مولده ورضع من معظم نساء أهل القرية أما أصله فربما يعود إلى قبيلة خزاعة وهم من العرب الأقحاح الذين جاءوا من اليمن بعد خراب سد مأرب ، أما عن " فظيعة " فقد ولدت في نفس يوم مولد " أبي عمي " لأم تعمل " قابلة " ولكنها قد تأخرت كثيراً عن الإنجاب فدعت ربها في السابع والعشرين من شهر رمضان أن يرزقها مولوداً وقد كشفت عن صدرها فانبعث نور من السماء أفقدها وعيها ، فصحت وقد تجمع الناس حولها فأخذت تصرخ " فظيعة " ويقول بعض أهالي القرية أنها تلعنمت وقالت : فظيعة . " (3) .

أما زمن الرواية فهو يمتد منذ خروج الأتراك من فلسطين مروراً بالانتداب البريطاني وسيطرة اليهود على فلسطين ، وتبدأ أحداثها بالتداعي بعد مقتل المختار " العابد " الذي كان ظالماً حيث كان يأتي بالضيوف من القرى المجاورة ويكرمهم كراماً شديداً من قوت أهل " اليسيرة " وكان يقتل من يمنع عنه قوته.

وتبدأ علامات غير عادية تظهر على كل من " أبي عمي " و " فظيعة " بعد انتشار خبر مفاده أنهما يتكلمان ويجيبان على أسئلة الخلق رغم طفولتهما حيث يدخل عليهما الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد فقط بعد أن يكونوا قد توضحوا ، وحدث أن دخل عليهما الطفل " عجيز " وهما نائمان ولم يرد عليهما السلام فأصيب بحالة من الإعياء والهذيان والانعزال فاستعان والده بالشيوخ "

(1) صدرت عن منشورات دار الكاتب في القدس ، في العام 1992 وتقع في مئة وخمس وخمسين صفحة.

(2) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 26 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 7 .

عبد النبي " الذي استقر في " اليسيرة " وأحضر معه عدته المكونة من الطبول والأعلام الكبيرة والكأس بعد أن نبذه أهل قريته لعزلته عنهم ولاعتبارهم طقوسه وعدته دخيلة على الدين الحنيف.

نال الشيخ " عبد النبي " احترام أهل اليسيرة وتحول بيته إلى مزار " كانوا من خلاله يفرغون طاقاتهم ، ويعودون أقل توتراً وأقل انشداداً ويقظة " (1) .

وتتحدث الرواية عن التغييرات التي أصابت القرية الفلسطينية بعد خروج الأتراك حيث شقت الطرق لإقامة سكة حديد وبدأ الإنجليز ببناء مخازن الحديد والخشب وأخذ الناس يعملون في (الكامب) .

التقت مصالحي المختار أبي مسعود مع وجود الإنجليز والمستعمرين اليهود حيث أخذ يطمئن أهالي القرية ويقلل من خطورة إقامة المستوطنات وكان يلتقي مع المستوطن (بوكاج) خارج البلدة للاتفاق على أعمال تجارية . وهنا تبرز شخصية " الطبع " الثائر الذي يقاوم الإنجليز ويدب الرعب في قلوبهم وقد كان صديقاً لحسن سلامة وعبد القادر الحسيني حيث احتفظ بصورتيهما حتى مماته. وحدث نزاع بين " أبي مسعود " و " الطبع " وامتد ليشمل كافة أرجاء القرية ويظهر أهلها مشاعر الحقد تجاه المختار وأسرتة إلا أن يتدخل الشيخ عبد النبي " و " عجيز " و " أبو عمي " و " فظيعة " حيث قدموا يدقون الطبول والدفوف ويرفعون الأعلام فعاد الهدوء والوئام يخيمان على " اليسيرة " .

يشند وطيس المقاومة ويستشهد " أخو الطبع " ويمسي " الطبع " مطلوباً للإنجليز ويطارد في البراري ، وكان في تلك الفترة قد كلف بجمع تبرعات للثورة ومن هنا بدأت شخصيته تتبدل من الثائر إلى المستفيد والمستغل لمصالح الناس .

تزوج أبو عمي من فظيعة كما تزوج الطبع من جليلة التي كانت إحدى عشيقاته وذلك في فترة الإضراب الشهير عام 1936 ، واستمرت حفلات الرقص أسبوعاً حضرها وجهاء ومخاتير القرى المجاورة ، كما حضرها زعماء الثورة ، وكانت أجواء العرس تحمل معها الكثير من الخطايا والآثام حيث رقص العرسان وهم في حالة من العري والسكر وفي الليلة الأخيرة من العرس نزلت الشهب من السماء بكثافة ، وأصيب الناس بالهلع ، وقتل المختار برصاصة من مسدس " الطبع " حيث أصابه بها حين كان يحاول إخراجها من المسدس بعد أن علقت به ، ولكن الفرح يستمر بعد أن يلبس ابن المختار الحاج مسعود عباءة والده ويقول أن الحي أبقى من الميت (2) ، وفي نهاية العرس تأتي النيران على البلدة وتقتل من أهلها ومن القرى المجاورة وتشوه من الخلق كثيراً ، ويعتبر الناس ذلك عقاباً من الله ، كما تضيع الرموز الدينية (عدة الشيخ عبد

(1) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 25 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 62 ، 63 .

النبي) ويعتبر الناس ذلك نذير شؤم وتتوحد جهود أهل القرية في البحث عن هذه الرموز وجمع المال من أجل صنع عدة جديدة .

ولكن ظروف الناس المادية تصبح سيئة للغاية بعد توقف الأعمال ويذهب كل من أبي عمي والحاج مسعود لأداء مناسك الحج ، وشرح أمر اليسيرة هناك لعلهما يأتیان بالمساعدة اللازمة ولاحظ أبو عمي عندما غاص في الصحراء أن هناك عين ماء " يقال لها عذاري ... ماؤها يجري ولا يصل للنخل القريب منها ، بل يبتعد عنه ويسقي شجراً بعيداً " (1) .

يتم اكتشاف مغارة في جبل " بابون " تحتوي على سكاكين وفؤوس وكتابات على الجدران ويفرح أهل اليسيرة بهذا الاكتشاف الذي يدل على عراقة قريتهم وتدينها منذ الزمن الأول . ولكن علماء الآثار اليهود وبمساعدة من " الواوي " الذي بادر لمعاونتهم مقابل المال كانوا قد اكتشفوا موقع اليسيرة القديم ونسبوه إليهم مدعين حقهم التاريخي فيها .

ترداد أخبار الرحيل والترحيل والمجازر اليهودية في القرى المجاورة ويرحل أهالي اليسيرة عنها بدون مقاومة ويذهبون إلى قرية في الطرف الشرقي تدعى (بيت الله) وتقع اليسيرة تحت سلطة اليهود الذين عاثوا فيها فساداً فقتلوا الكسيح والأعمى ونهبوا خيرات البلدة ولم يبق فيها إلا أم فظيعة . وبدأ أهل بلدة " بيت الله " بالسخرية من ألقاب أهل اليسيرة وبعض عاداتهم حتى سمع " الطبع " أحد سكان القرية يخاطب ابنه بأنه سيشتري له لاجئاً في العيد ، ويدب خلاف عنيف بين الطرفين وينتهي بتدخل أفراد الشرطة التي تعين بدورها الواوي (المعروف بتعاونته مع الإنجليز واليهود) مندوباً للحكومة ، بعد أن سرق ونهب أموال أبناء بلدته والقرى المجاورة وقال عنه أحدهم " الحرامي بظلّ حرامي لو شلنا عن راسه العلامة " (2) .

تختلط الحقائق وتتبدل ويطل التزوير رموزاً وطنية وأعمالاً نضالية؛ فقصة قتل الطبع لثلاثة من الجنود الإنجليز يحولها الواوي والحاج مسعود إلى سرقة ثلاثة خيول من الإنجليز وفي محاولة تفسيرية لما حلّ باليسيرة وأهلها نجد الراوي يعلق بأن اهتمام أعيان اليسيرة بمناصبهم ومصالحهم وعدم اهتمامهم بالحضارة وحركة التاريخ قد أدى بهم إلى أن يعيشوا على هامش الحياة فيظهر الطبع يلعب السجعة مع المسنين ، والحاج مسعود يلبس الدماية دون حيلة أو وسيلة أما الشيخ عبد النبي، فقد كان يسجل كل شيء ولعلّ أهم ما سجله، كتاب في أصل الخلق وفصله ونهايته .

(1) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 78 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 92 .

2- المضامين الروائية

أ- ثنائية الإنسان والمكان:

وهي الثنائية التي بنيت عليها الرواية ، فتظهر اليسيرة وكأنها تمثل الريف الفلسطيني " المكان " ، وأهلها يمثلون أهل ذلك الريف " الإنسان " في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي . و" اليسيرة " تمتلك موقعاً جغرافياً مميزاً لذلك فقد كانت محط أنظار الأمم الغازية على مرّ العصور " إن موقع اليسيرة جعل منها موقعاً عسكرياً مهماً سواء لثوار الحركة الوطنية أم لقوات الانتداب البريطاني والاستيطان المدني والعسكري اليهودي. " (1)، والمكان هو مهد الديانات السماوية ، وقد وطأ الأنبياء هذه الأرض ووسموها بهالة مقدسة لا تفارقها ما استمرّ الزمان . ونجد في المفاتيح ما يشير إلى تواجد الأنبياء في اليسيرة وخاصة أنبياء بني إسرائيل ، ومنها قصة سيدنا موسى في المفتاح الخامس " صعد إلى الجبل يدعو الله ليقيم دولة في " اليسيرة " قضى فيه أربعين يوماً وليلة ليأخذ الوصايا على حجارة مكتوبة . " (2) ، كما يتحدث عن مسيرة النبي عيسى عليه السلام والمؤامرات التي حاكها اليهود ضده في هذه الأرض المقدسة " وقالوا هذا من عبدة الشمس فلا تقربون ، وإذا وجدتموه داخلًا تقتلون ، وكان يوم سبت ، يوم أحيأ ميتاً من قبره ففعلوا يقتل ويدفن محله ، وحاكوا المؤامرات ضده . " (3) ، وقد ورد في هذا السياق أيضاً وصايا الأنبياء للبشر بأن يلتزموا بشريعة الله العادلة وينسجوا علاقاتهم الإنسانية وفق دستوره العادل والشامل ، لكنّ الطمع قد أعمى بصرهم وغلظ قلوبهم فكانت الحروب الدامية على هذا المكان ، وكان عقاب الله للإنسان وقد ورد ما يشير إلى ظلم الإنسان في المفاتيح أيضاً ومن ذلك الحروب الصليبية التي اتخذت من الدين وسيلة للتغطية على أهدافه المادية الشجعة " ألقوا بالرضع من فوق السور ، فهرب البعض والبعض اختبأ في الدور انتهكت أعراض النساء وشووا الرجال فوق النيران ، وكان ما كان .. ويومها قتل سبعون ألف جسد . " (4) إن " اليسيرة " بهذا المفهوم هي فلسطين التاريخية الشاهدة على قيام الديانات والحضارات المختلفة التي زالت جميعها وبقي المكان على مرّ العصور .

وقد أورد الروائي في مفاتيحه إشارة إلى جهود السامرة ليشير إلى إمكانية التعايش في المكان رغم الاختلاف في المعتقدات ، حيث حفظوا حق الجار فصانهم الجار وأمنهم على حياتهم ودينهم وأموالهم فعاشوا معاً على مرّ الزمان دون قتال أو دمار " أحبوا أرض الله ، وصارت لهم مستقراً دون حرب ، دون قتل ، بل رضوا في العيش سلماً ، فبنوا معبدهم ، وصلوا لإلههم ، وإله غيرهم

(1) صافي صافي ، رواية "اليسيرة " ، ص 47 .

(2) صافي صافي ، رواية "اليسيرة " ، المفاتيح ، ص 24 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 35 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 46 .

وغنوا عندها على أطراف "اليسيرة" (1) ، وقد تدرج الروائي في مفاتيحه ليصل إلى فترة الحرب العالمية الأولى وهي فترة الزمن الروائي لتصف هذا المكان والإنسان الذي يعيش فيه . حيث يظهر المكان وهو الريف الفلسطيني ، بتقاليده واعتقادات أهله وأعمالهم وعلاقتهم به وقد شمل هذا الوصف أوصافهم الخارجية أيضاً ، وترد صورة أهل اليسيرة وميلهم الفطري إلى تفسير بعض الظواهر تفسيراً أسطورياً ويعمدون إلى استبعاد التفكير المنطقي والتحليل العلمي لما يعترضهم من حوادث ، والأمثلة كثيرة في الرواية ومنها تعاملهم مع كل من أبي عمي و فطيعة و عبد النبي وعجيز على أنهم بشر يمتلكون قوى خارقة .

لقد وصفت الرواية الناس في الريف الفلسطيني وصفاً دقيقاً، فتناولتهم بالوصف الشكلي والتحليلي وتغلغت في دقائق نفوسهم لتكون لوحة غنية بالمشاهد التراثية التي تمثلهم في فترة العقد الثاني من القرن الماضي ، ولعل ما قصده علي الخليلي في تقديمه للرواية أنه: " يمكن للباحث التراثي أن يتعلق بها في بحثه، ويمكن للباحث في علم الإنسان - الأنثروبولوجيا - أن ينشد إليها." (2)، هو ذلك الوصف الدقيق لأهل اليسيرة الوارد في الصفحات (27 - 29) . " أما الباحثون الاجتماعيون فلقد أكدوا أن أهل اليسيرة معروفون تماماً في أشكالهم ، ومعروفون أيضاً في طباعهم ، يهيمون في مشيتهم همّاً ، أي أنهم يسيرون بسرعة كما لو كان أمر مهم في انتظارهم وترى جذوعهم متجهة إلى الأمام قليلاً ، وفي مشيتهم شيء من القفز ، بل إنه أقرب إلى القفز وهم سريعو الغضب وسريعو الإرضاء ، وهم بالفعل كريمون ، لا يردون ضيفاً . " (3)، وإلى جانب الحزم والسذاجة معاً هناك الوضوح الذي أشار إليه الكاتب بالعري ورسم له لوحة كاملة تذكرنا " بقصة امرئ القيس الشاعر الجاهلي مع نساء حيه على غدير الماء عندما طلب منهن الخروج عاريات يوم دارة جلجل . " (4) ولم يكن العري الجسدي هو المقصود بعينه ولكنه إحياء من الكاتب بتعريفه حقائق معينه وهو ما حصل مع تطورات الأحداث في الرواية كما يصف الكاتب أثر الشائعات والحيز الفكري والزمني الذي تشغله لدى أهل اليسيرة حيث ورد في الرواية " ويقال بأن أهل اليسيرة عطلوا أعمالهم عشرات الأيام إثر انتشار شائعة على لسان " شيخ البلدة " وإمام مسجدتها تقول بأن هذه علامة من علامات القيامة . " (5) .

(1) صافي صافي ، رواية "اليسيرة" ، مفاتيح اليسيرة ، ص 30 .

(2) علي الخليلي ، غلاف رواية اليسيرة .

(3) صافي صافي ، رواية "اليسيرة" ، ص 28 .

(4) نادي ساري الديك، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 164 .

(5) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 9 .

وأهل الیسیرة یعیشون فی عزلة مکانیة أدت إلی " متتالیة من القواقع المادیة والمعنویة احتبس الإنسان داخلها ، وخلق حواجز وحدوداً شکلت عوائق تقف فی وجه الإنسان فی سعیه للاتصال بالعالم والآخرین . " (1) .

ونجدهم یتوجهون إلی الله ویؤدون واجباتهم الدینیة حق تأدیتها فی حالات الخطر والجزع كما حدث إثر حادثة الفیضان فی البلدة " نادى المؤذن لصلاة الظهر ، لكن معظم الرجال آثروا أن یصلوا فی بیوتهم ، لكن الرجال ارتعبوا إثر عودة انتشار الإشاعة التي تقول بأن الیوم ربما یرتکبون المعاصی ویسکتون عن الآثام فی أوقات الرخاء ویظهر ذلك فی مشهد عرس كل من فطیعة و أبی عمی حیث ارتکبت الكثير من المعاصی .

ونراهم یؤمنون بالسحر والشعوذة والعرافین ویمارسون اعتقاداتهم الخاطئة فی معالجة الإنسان المسحور كما حدث مع " عجیز " حیث أرسل والده فی طلب الشیخ الذی قرأ ودعا ودهن جسده بزیت الزیتون ، وجيء بشیخ من قرية أخرى ، جاء یحمل عصا رمان وأغلق علیه باب البیت ، وعمل فی ضربه . " (3) .

وأهل " الیسیرة " یقفون ساکنین متفرجين أمام التحدی الأكبر الذی یواجههم وهو ضیاع أراضیهم واغتصابها من قبل الاحتلال ، فلا تكاد تظهر سوى شخصیة " الطبع " كشخصیة مقاومة وحتى هذه الشخصیة فإنها تتحرف عن مسارها الوطنی لتعمل من أجل مصالحها الذاتیة .

ویلجأ أهل الیسیرة إلی الوهم والخرافة فی التعامل مع الموقف المصیری فی حیاتهم حیث یتوجهون إلی " فطیعة " لتقرأ لهم فناجین القهوة وتحديثهم عن مستقبلهم الغامض . كما قاموا بتحدید مراجعهم الدینیة والسیاسیة وسكنوا إلیها رغم قناعاتهم بأن هذه المراجع تعمل وفق ما تقتضیه مصالحها الذاتیة بل نراهم یدافعون عن الأخطاء الظاهرة لهذه المراجع كدفاعهم عن انتهازیة الطبع وسرقاته للأراضی والأموال فهم كانوا بحاجة إلی شخصیة کالتي نسجوها فی خیالهم حتی یرتفعوا العیش والاستمرار فی الحفاظ علی هویتهم واعتزازهم بذاتهم ، كما أنّ أهل الیسیرة لا یعرفون القیمة الحضاریة لبلادهم إلا حین یرتفعون لیکشفها غیرهم من الأجانب والیهود ولا یرتفعون تثبیت هذا الحق لضعفهم وتخلفهم وقوة عدوهم . " (4) .

(1) سیزا قاسم ، بناء الروایة ، ص 167 .

(2) صافی صافی ، م . س . ، ص 13 .

(3) صافی صافی ، م . ن . ، ص 19 .

(4) صافی صافی ، الیسیرة ، ص 83 .

ومن هنا فقد جاء احتلال المكان دون مقاومة تذكر وقد وصفه الروائي بشكل ساخر " ومات في هذا الهجوم عجوز وحماره بعد إلقاء ثلاث قنابل على " اليسيرة " وهي نفس السهولة التي دخل بها الإنجليز إلى قريتهم بعد رحيل الأتراك وقد ورد في ذلك على لسان الروائي " وأن القنابل الثلاثة التي ألقيت كانت كافية لهب الأتراك. " (1) . ولم يكن لأهل المكان أي دور يذكر في كلا المرحلتين .

ب- الآخر :

لقد تناولت الرواية أواخر الوجود العثماني في فلسطين وسلطت الضوء على مظاهر هذا الوجود حيث يبدو الناس وقد أرهقتهم الضرائب المفروضة على الأراضي " ضريبة العشر " ما اضطر بعضهم إلى ترك أرضه والرحيل عن قريته كما حدث مع الشيخ " عبد النبي " (2) وتميزت مشاعر الناس لهم بالكره وتمني الزوال كما يظهر في الفقرة التالية والتي تبين أيضاً تشجيع العثمانيين واهتمامهم بالحركات الصوفية " يقول آخرون بأن سبب مجيء الشيخ عبد النبي اليسيرة هو امتلاكه للعدة المكونة من الطبول والأعلام الكبيرة والكأس وأن كره قريته الأصلية للحكم التركي جعلهم يضجون بكل ما ارتبط به . " (3) ولكنهم ورغم سوء أحوالهم الاقتصادية في ظل الحكم التركي إلا أنهم يسمون السنة التي خرج منها الأتراك من بلادهم بسنة النحس لشعورهم بالقرب الديني منهم . فقد ورد على لسان الراوي " ورغم المجاعة وقلة إنتاج الأرض إلا أن هناك نوعاً من الألفة بين أهالي البلدة وأهالي القرى المجاورة قد تكونت مع الأتراك ولم يريدوا أن يتعاملوا مع حكام جدد لا يعرفون لسانهم ولا طباعهم " (4) .

الإنجليز : وهم يعتمدون في حكمهم للقرى على المخاتير الذين يقومون بتطبيق قراراتهم ، وقد لعب الإنجليز دوراً في تغيير الحرف والمهن التي اعتاد الناس عليها قبل مجيئهم حيث أصبحوا يعملون في المحاجر وسكك الحديد وتحسنت أحوالهم الاقتصادية كما قل عملهم في الزراعة وقد ورد على لسان الراوي : " فهذه أول مرة يتاجرون فيها بالحجارة وبهذه الوسائل الحديثة للنقل وبنى الإنجليز مخازن للحديد والخشب ، وكان قد أقيم في الكامب المحددة والمسبكة . " (5) .

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 21 .

(2) المكان نفسه .

(3) المكان نفسه .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 4 .

(5) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 30 .

وتظهر الرواية غفلة الناس وجهلهم لطبيعة أهداف الانتداب الإنجليزي في بلادهم وسياستهم الرامية إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وذلك من خلال مساعدتهم في بناء المستوطنات وتوفير الأمن والحماية لهم " ولا ينكر أهل البلدة بأن الأمور اتضحت لهم لاحقاً ، حتى أبو مسعود الذي تمّ بناء معظم الكامب على أرضه فإنه بدا نادماً . " (1) . كما صورت الرواية اعتماد الإنجليز على الجواسيس من أجل توطيد حكمهم ومطاردة الثوار " طلب الإنجليز أن يتجمع الشباب وحدهم وكانوا يمرون من أمام إحدى الدوريات التي يجلس في داخلها أحد الجواسيس وإذا ما عرف أحد من الثوار يقول " أول رايت " (2) كما سلطت الرواية الضوء على حالة الناس الاقتصادية أيام الإضراب الشهير " 1936 " " الكلّ يعرف أن الإضراب قد أكل الأخضر واليابس في طول البلاد وعرضها . " (3) .

أما صورة الإسرائيلي فتظهر في صورة التاجر (بوكاج) الذي يعقد الصفقات السرية مع المختار وهي علاقة مرفوضة من قبل أهل البلدة وحتى أطفالها الذين يستكرونها من خلال أغانيهم ، ويظهر عمل اليهود السري تحت غطاء البعثات الأجنبية من أجل تثبيت فكرة الحق الديني والتاريخي لليهود في فلسطين من خلال الحفريات المختلفة " جاء كبير الخبراء وقال كلمات لا هي عربية ولا هي أجنبية بل تكلم باليهودية قال : هذه هي اليسيرة " جبل بابون " كان مكاناً طاهراً ، أرض بابون كانت مكاناً نظيفاً ، فصفق الذين معه وغنوا ورقصوا . " (4) .

ويظهر أثر المجازر البشعة التي قام بها اليهود أثناء سيطرتهم على بعض القرى الفلسطينية حيث هرب أهالي بعض القرى وهجروا قراهم خوفاً على حياتهم وأعراضهم وذلك قبل دخول قوات الاحتلال إليها . " وجاءت الأخبار على أن اليهود دخلوا قرية مجاورة وقتلوا أهلها جميعاً ، وأنهم يتقدمون باتجاه اليسيرة ، فبدأ معظم الناس بتحضير أغراضهم الضرورية لأخذها معهم . " (5) .

وتقترب هذه الرواية من مفهوم الرواية التاريخية الحديثة كونها توصلت التاريخ لا كوثيقة تاريخية ، ولا محاكاة للتاريخ ، وإنما لتجسيد دلالة فنية محددة فالروائي كان مسؤولاً عن تقديم الحياة الداخلية للبشر الذين عاشوا تلك الحضارة ، وذلك من خلال انتقال الأحداث من الفترة العثمانية إلى الاحتلال الإسرائيلي مروراً بالانتداب البريطاني .

ت- المرأة :

(1) المكان نفسه .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 9 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 58 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 81 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 85 .

وتظهر في الرواية كأحد مظاهر اللهو والمتعة في المجتمع وعلى ذلك نراها تلعب دوراً رئيساً في مجتمع يبحث دائماً عن أسباب اللهو والترف ، كما نراها تلعب نفس الدور في تناقل الأخبار وبثها في البلدة . وتساهم المرأة كثيراً في رسم صورة اليسيرة العارية التي لا مكان فيها للأسرار الخاصة ، وقد ساهم عمل " أم فطيعة " كقابلة للبلدة في انتشار الأخبار فيها ، والمرأة هي " قارئة الفجان " التي تشعب انحراف أهل اليسيرة الفكري باعتمادهم على قراءة الحظ والمستقبل من خلال العرافين وركونهم إلى العجز والكسل ، لذلك نلاحظ انتقال هذه الوظيفة من أم فطيعة إلى ابنتها مع اختلاف المرحلة والظروف المحيطة بها .

إن القدرات غير الطبيعية التي اعتقد بها أهل اليسيرة لكل من أم فطيعة وابنتها كانت نتاج ثقافة مجتمع يلجّ عليه هذا النمط من التفكير ونراها لاتساهمان في خلق هذه الأنماط الفكرية وإنما تتقبلانها كفكرة موجودة في أذهان الناس وتعملان على ترسيخها . فقد شكّل حمل أم فطيعة بعد فترة انقطاع طويلة حادثة خارقة بالنسبة لأهل البلدة ، وشكلت ظروف الجو الطبيعية حين حاول قسم من أهل اليسيرة قتلها رسالة من السماء تعزز مكانتها ، ويتوالد الوهم والخرافة في تصور القدرات الخارقة لشخصية فطيعة منذ وجودها في رحم أمها ، ويلجأ إليها الناس من أجل التبرك ويعد ذلك جزءاً من تفكيرهم الخرافي " فالخرافة تستوطن حيث يستوطن الجهل فالمجتمع المتخلف حين يعجز عن تفسير ظاهرة من الظواهر التي تضرب به ، ينسبها إلى قوى غيبية ليس في الإمكان مقاومتها . " (1) .

ويربط الناس بين شخصية المرأة والخيانة حيث تم اتهام فطيعة في إقامة علاقة غير شرعية مع الطبع واتهام جلييلة زوجة الطبع بإقامة علاقة غير شرعية مع المختار حيث ربطت " الثقافة الشعبية ربطاً محكماً بين شخصية المرأة والخيانة وبين المكر والمراوغة والخداع " وبرغم تفريق الثقافة الشعبية بين امرأة وأخرى ، لكنها في عملية التفريق هذه تعتمد أسساً سطحية مثل جمال المرأة وشكلها. " (2) كما نلاحظ أن المرأة في الرواية " ليست دائماً هي المرأة الأنثى وإنما تتحول أحياناً إلى رموزٍ أخرى قد تدلّ على الحياة أو الحرية أو الدنيا خاصة في لحظات الخيانة أو الضعف أو السخرية التي تنطبق على الحياة كما تنطبق على المرأة . " (3)

وتظهر المرأة كإحدى مصادر التأريخ للبلدة : " تقول واوية بأن الأمور لم تتوقف عند مقتل أخي الطبع بل إن الإنجليز عرفوا بأن أحد الثوار كان مختبئاً في بيتها عند مخزن التبن

(1) عبد الرحمن عباد ، القصة والأفصوصة الفلسطينية ، ص 187 .

(2) فيحاء قاسم عبد الهادي ، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية ، ص 122 .

(3) أحمد الزعبي ، في الإيقاع الروائي ، ص 63 .

. " (1) ، كما تظهر المرأة ضحية للثارات بين الشخصيات ووسيلة للإذلال ويظهر ذلك حين استدرج " الطبع " أخت المختار " مظوية " وأوهما بحبه واغتصبها بعد أن تسربت شائعة في البلدة تقول أن هناك علاقة بين زوجته " جلييلة " والمختار . وقد كانت هذه الحادثة وسيلة لابتزاز المختار الذي وافق صاغراً على إعطائه " مائة شجرة زيتون مع أرضها ، إضافة إلى خمسين دونماً في السهل حتى يتم الزواج ويستتر الفضيحة . " (2) وتظهر المرأة غير آبهة بانحراف زوجها السلوكي ، فنرى جلييلة - زوجة الطبع - لا تحاول ردع زوجها أو الاحتجاج رغم معرفتها أن له عشيقات كثيرات ، كما أن " واوية " تقبل الزواج من " الواوي " رغم سمعته السيئة وعبثه الدائم مع النساء . ولم تظهر صورة المرأة سلبية حتى نهاية الرواية ، فقد ظهرت تشارك في عملية المقاومة ضد الإنجليز حيث شارك في نقل السلاح والاتصال بين الثوار " كانت " فظيعة " إحدى وسائل الاتصال ، تشاركه - أي الطبع - بنقل السلاح وإخفائه ، وكانت تقضي معه وقتاً وهي تنقل له صورة عن الوضع في اليسيرة . " (3) كما أن " أم فظيعة " هي الوحيدة التي تمسكت ببلدتها ورفضت الرحيل منها رغم الخطر الداهم ورحيل معظم أهالي القرية عنها . ولم تقتصر صورة المرأة الساذجة ، والمقبلة على الانحرافات والأوهام على نساء أهل اليسيرة فقط ، بل تظهر نساء قرية (بيت الله) بعد الاحتلال ولجوء أهل اليسيرة إليها يلجأ إلى الشيخ عبد النبي لطلب العلاج وحلّ المشكلات ، ورغم محاولته صدهنّ إلا أنهن لا يتوقفن عن زيارته والتبرك به ، وحين قرر أن يعاقبهن كي لا يعدن إلى زيارته حيث جعل " ينطّ على ظهورهنّ وأرجلهنّ ورؤوسهنّ ويضرب على الطبل وهن يصحن . " (4) ونجد أنهن يقمن بزيارته زرافات زرافات وبأعداد أكبر من ذي قبل مما دفعه إلى القول : " إن جنّوا جماعتك ، عقلك ما ينفعك " في إشارة إلى رسوخ هذه الفكرة وعمقها في ذهن المجتمع .

ومن الملاحظ أن الروائي قد أشار وفي مواقع متعددة إلى العلاقة بين الهزيمة والخزعات " فغياب روح العلم عن حياتنا عامة هو الذي أفرز في واقعنا بطولات كلامية فارغة ضيّعت الوطن

(1) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 49 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 82 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 58 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 88 .

أو تاجرت به لصالح حساباتها . " (1) . كما أنه أشار إلى أن " الفساد السياسي والتحلل الاجتماعي والانهيار الأخلاقي ليس من الضروري أن يكون مبعثه الاستعمار . " (2) .

كما أن الكاتب قد رسم الأحداث السياسية على الساحة العربية دون إقبال أو ترهّل حيث جاء بها على شاكلة الصور والمناظر المرتبطة بشخصيات محددة ، كذلك رسمه لحال اللاجئين وأوضاعهم في البلاد المجاورة ... ، حيث عقد موازنة بين حال المواطنة والتشرد وعلاقة المتشردين بمحيطهم الجديد وقد وضّح أن المواطنة تسمو على كل شيء . " (3) .

ويظهر الواقع العربي الذي لا يختلف كثيراً عن واقع اليسيرة من حيث الضعف والعجز ويظهر هذا الواقع في ثنايا الرواية حيث يورد الكاتب استفاضة الغريب الغرب من المقدرات والخيرات العربية النفط ويحرم منها القريب العرب ويظهر ذلك عندما يذهب أبو عمي إلى دول الخليج من أجل طلب المساعدة فيلاحظ نبع ماء يقال لها عذاري ، ماء يجري ولا يصل للنخل القريب منها بل يبتعد عنه ويسقي شجراً بعيداً .

وتطرقت الرواية لبعض العادات الاجتماعية في الريف ومن ذلك أن يقوموا بإسقاء الخائف " طاسة الرجفة " وهو ماء يذكر عليه اسم الله وبعض آيات القرآن ليعود إلى حالته الطبيعية ، كما تم تصوير العرس في الريف الفلسطيني حيث ترتدي العروس " سبع بدلات " وتقوم بتغيير واحدة في كلّ ليلة من ليالي الاحتفال ، وظهرت الأغاني الشعبية التي تقال في هذه المناسبة مع الأخذ بعين الاعتبار تغيير الروائي للأسماء في الأغاني لتناسب الشخصيات ومن ذلك ما ورد على لسان جلييلة ليلة عرسها : " لا تقولي لي شو بدني غير الطبع ما بدني الطبع سيد الرجال نيالي بيقد حدي . " (4) كما تظهر القرية أسرة واحدة حيث تتضافر جهودهم في الملمات والأفراح ويتناسون خلافاتهم ويؤازر بعضهم بعضاً .

(1) جمال يونس ، اليسيرة نص يسرح بالمتلقي بين المكان العادي والاستثنائي ، صحيفة الحياة الجديدة ، 5 / 7 /

1997 . ص 15 .

(2) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 162 .

(3) نادي ساري الديك ، م . ن . ، ص 160 .

(4) صافي صافي ، رواية "اليسيرة" ، ص 64 .

المبحث الخامس : شهاب ، الجزء الثاني من رواية السيرورة

1- تلخيص الرواية (1) :

تبدأ الأحداث على لسان الراوي بضمير الغائب حيث يصف حالة الترقب من قبل الطبع وباقي أهل السيرورة لشهاب الذي غاب مدة ستة أيام في المدينة ليحضر " قوشان " يثبت ملكيته لأرضه ، ويبدأ " الطبع " باستعادة دوره المركزي وتأثيره على أهل السيرورة بعدما أخذ " الواي " هذا الدور رغم - ثبوت تعاونه مع الاحتلال - ، ثم يظهر شهاب في اليوم السابع ويشارك جميع أهل القرية ورموزها الدينية (الشيخ عبد النبي وفرقة الكشافة) وحتى الحيوانات في الموكب الضخم لاستقباله . وقد حضر وجهاء وأهالي القرى المجاورة لمشاركة أهل السيرورة سعادتهم ولكنهم يصابون بالذهول عندما يشاهدوه وقد تغيرت ملامحه حيث يبدو عليه الإرهاق والضعف " لم يعد شهاب ذلك النجم المضيء وخاطف الأبصار ، وهو يخترق السماء من فوق ، لقد انطفأ رويداً رويداً " (2) ، ويستمر الاحتفال رغم الحالة النفسية والصحية لشهاب والتي تنبئ بعدم تمكنه من إحضار " قوشان " يثبت ملكيته للأرض .

أما الفصل الثاني فقد ورد على لسان أهل القرية تارة والراوي تارة أخرى حيث يصف شهاب وصفاً جسدياً ونفسياً وثقافياً : " هو رقيق مقابل خشونة أهلها ، طويل الروح مقابل أرواحهم في مناخيرهم ... والجميل مقابل عاديتهم " (3) وقد استمد شهاب تأثيره الأسطوري بسبب اختلافه في كل ما يميزه عن أهل قريته ، فقد اختلف عنهم في الشكل والثقافة والسلوك فأحاطوه بهالة خارقة وتعلقوا به ورفعوه إلى مرتبة السيرورة حيث يقصده الناس ثم يقصدون السيرورة لتحقيق رغباتهم المختلفة .

أما فلسفة شهاب في تحقيق السعادة فتكمن في تحقيق رغبتين ، الغذاء والجنس فهما " غاية الإنسان ووسيلته في الحياة الفعلية ، فالغذاء ليس فقط للقضاء على الجوع ، بل هو من مصادر القوة والصحة ، والجنس ليس فقط من أجل الحفاظ على الجنس البشري من الفناء بل هو أيضاً من أجل المتعة والراحة النفسية " (4) . وقد تزوج شهاب من شرحة رغم عادية مواصفاتها الجمالية إلا أن بساطتها وجرأتها وإتقانها لما تقوم به جعلها المميّزة من بنات السيرورة .

(1) صدرت عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين في العام (2001) وتقع في خمسة فصول واثنين وتسعين صفحة من القطع المتوسط.

(2) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 12 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 24 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 28 .

ويرد الفصل الثالث على لسان شهاب بضمير المتكلم حيث يبدأ بسرد الأحداث التي مرت به في المدينة أثناء محاولة الحصول على " القوشان " حيث يلتقي بالمحامي مراد ويعجب بشمولية فكره وأناقته ، ويتعرف على امرأة يهودية تدعى (شوش) التي تتعرف على أدق تفاصيل حياته وحياة أهل اليسيرة وأراضيها وعاداتها ، ويبدأ باكتشاف عيوبه واستشعار نقصه كلما تعمق في معرفتها ، كما ويتعرف على المحامية سعاد الصيداوي وينبهر بغناها وجمالها وانفتاحها على جميع الأفكار إلا أنها محددة الهدف بشكل كبير .

تصل شكاوى كثيرة ضد " شهاب " وانحرافات السلوكية الممتدة في المدينة إلى مختار اليسيرة إلا أنه وأهل اليسيرة كانوا يحسدونه داخلياً حيث توفر له ما حرّموا منه ، ويستمر شهاب على هذه الحالة حتى يفاجأ بكمين من بعض الرجال في الشارع حيث يأخذونه إلى مزرعة نائية وينتهكون رجولته بالاعتداء الجنسي عليه ، ويصاب بحالة من الهذيان حتى يصل بلدته ، خائر القوى مسلوب الإرادة والفكر .

أما الفصل الرابع فيرد على لسان الراوي الذي يصف ما حلّ بالقرية خلال الأيام الستة التي اختفى فيها شهاب حيث توجه الناس لليسيرة " وقام " الطبع " بتجميع شباب القرية وأغلقوا الطريق المؤدي للمدينة، وحققوا مع شبابها وتحذثوا مع وجهاء المدينة وهددوهم، وكانوا في فعلهم هذا يحاولون تثبيت تفوق اليسيرة وقوة رجالها أمام القرى المجاورة ، وقد اشترك الشيخ عبد النبي في إقامة الصلوات والدعاء من أجل عودة شهاب .

ويرد الفصل الخامس على لسان الراوي بضمير الغائب حيث يلقي الشيخ عبد النبي خطبة طويلة يتحدث فيها عن الذنوب والاستغفار ، كما ألقى الحاج مسعود كلمة برر فيها أخطاء شهاب ووصف مغامراته مع نساء المدينة أنها نوع من الصراع بين القرية والمدينة

وكان الاحتفال بعودة شهاب يصخب حيناً ويهدأ حيناً ، بينما نساء اليسيرة يقمن بإعداد الولايم لاستقبال الضيوف والرجال تتحدث في أمور التجارة والزراعة . ، أما شهاب فقد كان هادئاً ، مسلوب القوة والإرادة ، ويستمر " أبوعمي " في التدقيق في وجوه الزائرين مردداً عبارة واحدة " ما جابش شهاب القوشان " وينفجر " الطبع " مخاطباً شهاب : " قل يا شهاب هل فعلوها فيك " (1) في إشارة إلى اغتصابه ويظل " شهاب " صامتاً عندما يأمر الطبع بقتله حرقاً دفاعاً عن " اليسيرة " وكرامتها وتعلن " شرحة " انفصالها عنه ، وقبل تنفيذ حكم الموت تظهر كتيبة للجيش الإنجليزي ويهرول " الواي " وراءهم ويأخذون شهاب وتتبعه أفعى السقيفة الضخمة وصغارها .

(1) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 89 .

2- المضامين الروائية

أ- الوهم الشعبي والانحراف الفكري :

تستمر الرواية في تناول ثنائية العلاقة بين الإنسان والمكان ، ويصبح هذا التناول أكثر شمولية وذلك بوصف علاقة أهل اليسيرة بالمدينة ، بعد أن تناول الجزء الأول " اليسيرة " العلاقات الداخلية في الريف بالتفصيل ، كما تصف علاقة أهل المدينة بمكانهم لتكتمل ملامح هذه الثنائية .

يسلط الكاتب الضوء في هذه الرواية على زاوية أخرى من زوايا اليسيرة ، إنه الريف الفلسطيني الذي يشكل سكانه - في زمن الرواية - غالبية سكان فلسطين حيث يتناول كيفية انتقاء الناس لرموزهم وقياداتهم الذين يمثلونهم وهو انتقاء عشوائي لا يحكمه المنطق ولا الأسباب الموضوعية ، ويعتمد على الوهم الشعبي الذي هو من نسج خيالهم وأوهامهم لذلك نلاحظ " أن الجماهير التي رفعت شهاب على أكتافها وحولته إلى أسطورة ، تقرر هي نفسها حرق الرجل دون أن تسأل أو تحقق أو تعطي عذراً ، وكأنها لا تستعمل سوى عواطفها السطحية والأولية . " (1) .

لقد شكل اختلاف " شهاب " الشكلي سبباً في بناء أهل اليسيرة لأسطوره ولم يردوا هذا الاختلاف إلى أسبابه الحقيقية البادية أمامهم بشكل لا يقبل اللبس أو التأويل ؛ أما شكله الجميل فنتج عن علاقة غير شرعية بين أمه والضباط الإنجليز ، ويختلف في سلوكه عنهم لامتلاكه المال الذي ورثه عن أبيه ، وبسبب تحصيله العلمي في المدينة ما جعله يتبنى فلسفة ما في هذه الحياة ، ورغم أن هذه الفلسفة تقوم على إشباعه للذاته وخدمة مصالحه إلا أن الناس تستمر في سياسة تبريرهم لهذه الانحرافات " وهذه التبريرات ليست من صنع الكاتب إنما هي " نتاج لثقافة مجتمع يبحث عن اللذات والمنافع على حساب الحق واليقين اللذين يعرفهما الناس جميعاً إلا أن جلّ الناس تغييها نتيجة لخلق الأعدار ووضع الحلول غير المنهجية للناس وذلك يعني إلغاء للعقوبة حتى يسير المجتمع وفق فئة مضللة ضالة تحاول تبرير ما يوهم المجتمع وتغيب الحقيقة عن حياته . " (2) .

ويظهر مصدر هذه المكانة التي أعطاهها الناس لشهاب والتي تعتمد على القول والإشاعة التي يشارك في نسجها كل شرائح المجتمع " عرفوه من الحكايات العديدة التي قيلت في مجالس النساء ومجالس الرجال ، عرفوه من الشباب الأكبر منهم سناً ، و عرفوه مما سمعوه من أخواتهم وبنات جيرانهم ... ، و عرفوه مما سمعوه من أهالي القرى المجاورة الذين كانوا يزورون اليسيرة (3) وينتقل هذا الانحراف الفكري في اختيار الرموز والقادة إلى الجيل القادم حيث أشار الكاتب إلى ذلك

(1) أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية " شهاب " وسؤال الدلالة ، مجلة صوت الوطن ، العدد (86)

2002 ، ص 53 .

(2) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 158 .

(3) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 23 .

بقوله " حمل الرجال والنساء أطفالهم فوق أكتافهم وفوق رؤوسهم وهم يقولون لهم هذا هو شهاب .
" (1) وتظهر طقوس أهل اليسيرة الساذجة من خلال تبركهم بشهاب والسعي من أجل نيل رضاه ،
حيث اعتبروا أن رضى " اليسيرة " عنهم - وهو الذي يمثل الوهم في أسطورة المكان - مرتبط
برضى " شهاب " - الوهم بأسطورة الأشخاص- . وقد وردت نظرة الناس إليه على لسان " الراوي
: " كان شهاب ناجحاً ، كان مشهوراً و ثرياً وسلطاناً ، كان فوق الفشل وفوق الفقر وفوق الحياة "
المغمورة " (2) ، وهم بذلك يشيرون إلى الصفات التي يفتقر إليها سوادهم الأعظم . ويشير أحمد
رفيق عوض إلى أهل اليسيرة بقوله : " لم يغادروا بعد تلك الدهشة من الوجود وذلك الخوف من
المختلف أو الغريب ، إنهم بعد لم يطوروا " رؤية " تمكنهم من البناء عليها أو التحليل من خلالها ،
ولهذا كانت الأسطورة أو قل الخرافة ، هي جزء من عالمهم ومنطقهم ولغتهم . " (3) ؛ فأهل
اليسيرة يهتمون بخلق الأسطورة والوهم لكل ما يستعصى فهمه من خلال فكرهم البسيط وهو ما
حصل بالنسبة لتعاملهم مع شخصية شهاب فعلى الرغم من معرفتهم بأصوله المشبوهة وعلاقاته
المشبوهة لكنهم كانوا معجبين به ، وقد رفعوه إلى مرتبة الأسطورة ، فهل علق هؤلاء أحلامهم
وآمالهم على رجل لا يستطيع أن يتحمل ذلك؟! .

ولم تكن العلاقات القائمة على المصالح الخاصة والإقبال على حياة اللهو التي عبر عنها الكاتب في
حديثه عن أهل اليسيرة - الريف - تميزهم وحدهم بل يشترك سكان المدينة معهم في هذه الصفات
حيث يظهر تعاون سكانها مع مؤسسات الانتداب البريطاني " فلجنة الأراضي تضم غالب الناشئيين
وأمين درويش كمساعدين لمأمور التسوية، وتوفيق ناصر كمساح أراضٍ وشكري صالح وأسعد
سالم ككتاب تسجيل. " (4) ويظهر تعاون المحامي مراد مع الإنجليز واليهود ويظهر ذلك في قول
" شهاب " ولكني لم أشك كثيراً أنه سمسار لصالح اليهود أو الإنجليز . (5) .

ونجد أن المحامية سعاد الصيداوي التي تمثل انفتاح المدينة على الغرب تهتم بمصالحها
الخاصة وتمتعها الذاتية وكأن المادية المطلقة التي تغطي على كل المشاعر الإنسانية والانغماس في
الشهوات هو كل ما يمكن تقليد الغرب من خلاله .

(1) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 20 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 34 .

(3) أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية " شهاب " وسؤال الدلالة ، مجلة صوت الوطن ، العدد (86)

2002 ، ص 52 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 44 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 47 .

ولم يأت توظيف مهنة المحاماة لكل من مراد وسعاد عبناً بل مقصوداً لإظهار التناقض بين أدوارها المفترضة في توظيف علمها وثقافتها من أجل الدفاع عن حقوق شعبهم وبين دورها الذي تقوم به وهو خدمة مصالحها الذاتية القائمة على استغلال سذاجة وفقر الآخرين من أبناء شعبها . وبذلك يشترك أهل المدينة وأهل الريف في انحرافاتهم السلوكية والفكرية وفي علاقاتهم القائمة على تحقيق المصلحة الذاتية ليبقى المكان عارياً، وحيداً، في مواجهة التحديات التي تواجهه ويفسر السهولة التي تدعو إلى السخرية في السيطرة عليه واحتلاله . ومن المفارقات التي تظهر في هذا الصدد تضافر جهود الناس وتنظيم أدوارهم في البحث عن شهاب والاهتمام بتوطيد سلطة " اليسيرة " أمام القرى المجاورة وتخليهم عن هذا الدور في مواجهة الاحتلال .

" إن التركيز على الجهل والنساء خلال الفترة التاريخية التي تناقشها الرواية يحمل في حد ذاته دلالة هي حجم الرواية الإشاري ، إذ أن هزيمة (1948) كانت تحمل بذورها في الحياة السلوكية للمجتمع ، تلك البذور التي لم تتغير كثيراً فكانت هزيمة (1967) متوقعة تماماً . " (1) كما أن التعمق في روحية المجتمع يؤدي إلى شد عضد الرواية والروائي معاً حيث يبحث الكاتب في دهاليز المجتمع وهمومه حتى يستطيع إثبات الذات من خلال فهم القوانين والقيم التي تحكم المجتمع فينميها أو يحاربها . " (2) .

ب- المرأة :

وتظهر صورة المرأة البسيطة في الريف والتي تركز طموحها واهتمامها في البحث عن زوج مناسب لها ويظهر ذلك في تنافس بنات اليسيرة من أجل الفوز بشهاب زوجاً لهن . كما تظهر مصدراً هاماً من مصادر حفظ التراث والفولكلور وذلك من خلال ترديده في الأفراح والمناسبات المختلفة ، ويرد ذلك في عدة مشاهد في الرواية منها ما غنته " شرحة " أمام شهاب لتسترعي انتباهه " مقالات الجليّة بنت مرة :

شربت الخمر ما بين الإمارة

شربنا الخمر في كاسات جوهر

فزال العقل وأصبحنا سكارى . " (3)

(1) علي الخواجة ،جوائز الفحم ، ص 29 .

(2) مجموعة مؤلفين ، نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية ، ص 149 .

(3) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 37 .

وتستمر صورة النساء اللواتي يعتمدن على الوهم والخرافة في تسيير حياتهن وذلك من خلال قراءة فناجين القهوة لمعرفة الحظ وقراءة المستقبل حيث تستمر فظيعة في لعب هذا الدور وتلجأ إليها شرحة لمعرفة مصير زوجها بعد اختفائه في المدينة.

أما المرأة في المدينة فتظهر مثقفة ولها دور في الحياة الاجتماعية وتبدو محددة الأهداف ولا يشغل شعورها العاطفي حيزاً من تفكيرها، كما تبدو متحررة من الضوابط الدينية والاجتماعية حيث تقيم العلاقات المتعددة ولا تأبه لاعتراض المجتمع وهي تدعو شهاب أن لا يعير هذا المجتمع أي انتباه " إنهم لا يستطيعون عمل شيء سوى الصراخ ، وحتى ذلك تستطيع منعهم منه . " (1) . ومن الملاحظ أن الكاتب قد وصف جسد المرأة من خلال شرحة في بلدته مما يشير إلى اهتمامه المركزي فيها بالمتعة والشهوة " كانت تهزّ كتفيها من فوق ومن تحت ، وتلفهما لفاً في حركة دائرية متناسقة ، وتحرك صدرها كأنها تلعب به لعباً ، ويروح بطنها إلى اليمين واليسار وإلى فوق وتحت كما لو كانت أمواجاً من البحر . " (2) . أما في حديثه عن المرأة في المدينة فقد أضاف إلى أوصافها الجسدية أخرى سلوكية أثرت في شخصيته كما ورد في حديثه عن (شوش) و سعاد الصيداوي " شوش تهتم فيّ كإنسان ، هي تريد فقط علاقة إنسانية مع أمثالي وما أجمل أن أشعر بإنسانيّتي أمامها . " (3) .

ت - الآخر :

الإنجليزي : وهو يعمل على تسهيل تمرير الأراضي لليهود من خلال القوانين التي وضعها لذلك والتي تقضي بوجوب حصول مالك الأرض على " قوشان " يثبت ملكيته لها في الوقت الذي لم يملك قسم كبير من ملاك هذه الأراضي الوثائق الرسمية اللازمة حيث اعتمدوا على الوصايا الشفوية والشهادات الشخصية في تحديد أراضيهم ، كما أن قسماً كبيراً منهم لم يعمد إلى تسجيل الأراضي باسمه في الفترة العثمانية تهرباً من دفع الضرائب .

ويُحكّم الإنجليز رقابتهم على أهل اليسيرة ويعملون على تجريد أهلها من السلاح كما حصل مع الطبع بينما يعضون الطرف عن اليهود ويسهلون امتلاكهم للأراضي والأسلحة. ويرد ما يشير إلى ذلك على لسان احد سكان اليسيرة : " منذ اليوم الذي عفوا فيه عن الطبع وهم يشددون الرقابة علينا ، إلى متى سنظل نرقص ونغني تحت مسمع وشوف الإنجليز . " (4)

(1) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 55 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 35 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 49 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 15 .

ويظهر انبهار الضعيف وشعوره بالنقص أمام الآخر الإنجليزي واليهودي صاحب الحضارة والسطوة ويأتي ذلك من خلال حديث مراد مع شهاب حدثني عن تخلف المزارع الفلسطيني بالنسبة لغيره خاصة أولئك القادمين من أوروبا وغيرها. " (1) وينتاب " شهاب الشعور نفسه أثناء علاقته مع (شوش) من حيث الانبهار بثقافتها وعمق إطلاعها وتمثل (شوش) الآخر اليهودي الذي يستغل علمه ومعارفه من أجل خدمة مصالح شعبه - عكس الشخصيات العربية التي تعيش في المدينة - حيث نراها تسأل عن أدق التفاصيل الجغرافية والسلوكية وحتى الجنسية لأهل اليسيرة وما يجاورها من قرى كي تساهم هذه المعلومات في معرفة ملامح الشعب الذي يسعى هذا الآخر من أجل السيطرة عليه واحتلال أرضه . ويرد على لسان شهاب "في هذا الصدد : "

اعتقدت أنها سألت لمجرد فتح حوار ما معي وإشعاري بالاهتمام بي لكنها كانت تطرح العديد من الأسئلة حول كل قصة أوردتها . " (2) ويظهر الآخر في الرواية " كعقاب نتيجة الذهنية المتخلفة للمجتمع الفلسطيني. " (3) .

لقد أسهب الكاتب في الحديث عن علاقة الإنسان بالمكان في كل من رواية " اليسيرة " وشهاب " وعن علاقة الناس فيما بينهم ليشير إلى الارتباط الوثيق بين الأنماط السلوكية والفكرية السائدة في تلك الفترة وبين هزيمة عام 1948. فالكاتب ينتمي " للجيل العربي المثقف الذي عانى ويلات التخلف الحضاري المرعب في بلاده ، واستنشق نسمات الازدهار المادي والفكري الغربي ومن ثم تفجرت أزمته في ذلك التمزق الملتاع بين الرغبة في أن يعيش حياته بعيداً عن ضراوة التخلف والرغبة في أن يعيش مجتمعه كما يريد هو . " (4) ولعل ميله في العودة إلى الماضي يكمن في كونه " مسكوناً بهاجس دور الحارس لحماية ذاكرة الأمة ، وللدفاع عن تراثها وروحها ضد كل عوامل السقوط والانهايار التي تعصف بالوطن من الجهات الأربعة . " (5) .

(1) صافي صافي ، رواية شهاب ، ص 45 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 48 .

(3) المتوكل طه، صورة الآخر في الشعر ، ص 191 .

(4) غالي شكري ، أدب المقاومة ، ص 131 .

(5) نزيه أبو نضال ، التحولات في الرواية العربية ، ص 41 .

وأخيراً وبعد استعراض أهم المضامين في كل من رواية اليسيرة و شهاب لا بد من الإشارة إلى بعض الاتجاهات التي ظهرت في هاتين الروايتين اللتين كتبنا بعد توقيع اتفاق أوسلو (1) وهي اتجاهات بدأت تظهر في الرواية الفلسطينية كنتيجة لهذا الاتفاق ومنها :

نقد الذات : حيث عاد الروائيون الفلسطينيون إلى وطنهم بعد " أوسلو " يحملون إحساساً مؤلماً وذلك بسبب إدراكهم للذات الضعيفة وحضور الآخر القوي ما أدى إلى خلق واقع جديد وغير متوقع في الخطاب الروائي ومن هنا نلاحظ أن الأعمال الروائية الصادرة بعد أوسلو قد حملت وحدة فريدة في الفكر والمعالجة ؛ وذلك لأن الأسباب النفسية المعقدة التي أحاطت بالروائيين كانت واحدة (2) ، وتظهر انتقادات الروائي للمظاهر السلبية الداخلية والتفكك العربي وتغليب المصالح الخاصة بشكل جلي في كل من اليسيرة و شهاب .

الأسطورة : ويأتي توظيفها ليعكس الحنين الدفين لدى الفلسطيني بأن يظهر كشخصية البطل الذي يتجاوز الشرط البشري ويتجاوز العجز نحو الكمال، وهذه المحاولات تقوم على الحكاية الشعبية أو التراث الإنساني ، وقد زاد توظيف الأسطورة بسبب البحث عن الهوية المفقودة ما جعل الروائي يحاول إثبات ذاته في وجه محاولات التذويب والطمس . وقد قامت كل من الروايتين على مزج الأسطورة بالواقع .

البطل المهزوم : إن رواية ما قبل " أوسلو " تعاملت مع الفلسطيني بوصفه بطلاً ومقدساً فيما رسمت صورة نمطية لليهودي بكل أوصافه السلبية (3) ، لذلك كانت هذه الروايات شديدة الثقة وبلا أسئلة تقريباً ، أما الرواية بعد " أوسلو " فقد تميزت بسمات منها ظهور البطل المهزوم بدل ذلك الفدائي الخارق ، وتميزت شخصية البطل بالتردد والشك وهو ما وجدناه في شخصية شهاب

النظرة إلى الآخر : حيث أفرزت مرحلة المفاوضات والحوار نوعاً من الضبابية في تحديد الاتجاه في تناول الآخر إلا أن اتفاق السلام قد نزع الغشاوة ليعود الآخر إلى صورته التي رسمها متفقو أوائل القرن الماضي (4) حيث ممارسات القتل والمصادرة والأطماع التي لم يكبح السلام

(1) اتفاق أوسلو هو إطار عام للحكم الذاتي الفلسطيني وهو مجموعة من المبادئ العامة التي تحكم التسوية الفلسطينية - الإسرائيلية بشكل مرحلي، ومن شأن الاتفاقية التمهيد لإجراء مفاوضات لاحقة على الوضع النهائي لهذا الحكم الذاتي وقد تم التوقيع عليه في واشنطن في 3 / 9 / 1993 . / عدنان حسين السيد ، التسوية الصعبة ص 92 - 93 .

(2) مجموعة مؤلفين ، تأملات نقدية ، ص 47 - 51 .

(3) أحمد رفيق عوض ، البطل المهزوم يطغى على الرواية الفلسطينية بعد أوسلو ، جريدة الخليج ، 20 / 4 / 2006 .

(4) المتوكل طه ، صورة الآخر في الشعر الفلسطيني ، ص 174 .

المزعمون جماحها ، لذلك ساد اتجاه روائي ينتقد هذا الاتفاق وقد طغت عليه روح التشكك والتردد والغموض وجلد الذات ، كما عادت مقولة العربي المتخلف الذي يقابله الإسرائيلي المتحضر إلى الظهور ما يستدعي نقداً اجتماعياً لتشخيص جوانب التخلف وتحليلها في مجتمعنا " فالنقد الاجتماعي لا يقنع بما هو موجود ولا يستكين إلى ما هو تقليدي ولكن يبحث ويحلل ويشخص ، داعياً لتجاوز التخلف واتباع أساليب جديدة لحل المشكلات " .⁽¹⁾ وقد تناولت رواية " شهاب " بشكل واضح هذه العلاقة كما ظهر سابقاً في العلاقة مع الآخر .

(1) صبحية عودة زعرب ، الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني ، ص 117 .

المبحث السادس : رواية الكوربة

1- تلخيص الرواية : (1)

تبدأ الأحداث على لسان الراوي بضمير الغائب بوصف يومه الدراسي الأول في مدينة رام الله بعدما انتقل للسكن فيها وأفراد أسرته (الوالد والوالدة وأخوه علي وأخته عليا) وتظهر صورة المعلم عبد الجليل الذي تدل أسئلته على عدم عاديته مما يثير الفكر " هل سمعتم في يوم عن شيء اسمه خارو؟ هل تعرفون رتنو؟ هل تعرفون كيناهاي؟ هل تعرفون مريام؟ (2) .

ثم يبدأ مشهد الرحيل عن قرية (بيت اللو) إلى رام الله وتبرز الأمكنة الواقعية " ضوء عمود الإذاعة على طريق سردا " و " سور مستشفى رام الله " وتعود عقارب الزمن إلى الوراء ليستذكر الراوي تفاصيل حياته في (بيت اللو) حيث نراه يبحث باستمرار عن ملكة النحل ليشاهد هذا المخلوق العجيب " ملكة الأرض التحتية ، تشبه الموت بل هي تعيش مع الأموات لذلك تراها تكثر عند القبور " (3) ويدور حوار بينه وبين حامد - وهو فتى يكبره بسنتين ويملك ثقافة واسعة - حول طبيعة النمل والأفاعي ، وتندلع الحرب وتبدأ رحلة الهروب .

ويرد الفصل الثاني على لسان الراوي بضمير المتكلمين حيث تتصاعد مشاعر الخوف من القتل والتشرد بسبب الحرب وتأخذ شخصية " الوالد " باسترجاع ذكريات التشرد واللجوء الأول من قرية (بيت نبالا) وغيرها من القرى المجاورة لها وما نزل بأهلها من جوع وتشرد، وتبرز شخصية العم إبراهيم وهي شخصية دينية لها تأثيرها، وتكثر أدعية النساء والرجال وقراءة القرآن كما تبرز صورة لدبابة تمثل الجيش العربي الذي تعلقت به الآمال لاسترجاع الأرض وهي دبابة تقود مدفعاً يمكنه إطلاق ثلاث قذائف فقط تجاه تل أبيب فيجيب الضابط عند سؤاله عن سبب ذلك " ليسوا وحدهم هناك وهناك مهام سيقوم بها غيرهم من الدول العربية " (4) وتتعثر الدبابة في هبوطها المنحدر " فالنزول أصعب من الصعود " (5) وتستمر محاولات الجنود (مروان ومحمد ، وعبد ، والقائد سعيد) من أجل اجتياز الكوربة الخطيرة إلا أن المدفع ينقلب في النهاية ويؤدي إلى انقلاب الدبابة .

(1) صدرت عن منشورات اتحاد الكتاب في القدس سنة 2005 ، وتقع في مئة وإحدى وثلاثين صفحة من القطع المتوسط وتقسّم إلى ستة فصول ، وتبدأ من الصفحة الثانية عشرة مع ملاحظة أن صفحات الافتتاحية ضرورية من حيث التعريف بالشخصية المحورية وهي تمثل خاتمة الرواية .

(2) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ، ص 6 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 13 ، 14 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 43 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 45 .

ويرد الفصل الثالث على لسان الراوي بضمير المتكلم حيث يتضح أن انقلاب الدبابة والمدفع قد أدى إلى استشهاده مروان ومحمد وتمزيق جسديهما فتعم حالة من الحزن والكآبة في القرية ما يولد أسئلة محمومة في ذهن البطل " الراوي " حول ثنائية الحياة والموت ودور الإنسان فيهما ويشتد شوقه إلى قريته (بيت نبالا) فيصف بيوتها وأشجارها حسب وصف والديه وأقاربه " سأستل عبر الأسلاك وأجلس في أراضيها ، وأشم رائحتها وألتقط بعض أغصان (الميرمية) و (الزعتر) و (الجلثون) ، وسأكل من تينها القريب وصبرها " (1) ويتمنى الراوي لو كانت جميع الدبابات المشاركة في الحرب كدبابة (الشقيري) حيث أن لها ميزات خيالية في عقول أهل القرية فهي مثل القطط لها سبع أرواح ، وتتصافر جهود أهل القرية جميعهم من أجل إنقاذ الدبابة والمدفع المنقلبين ويتقاسمون المهمات ويظهر رأس الجندي مروان مهشماً تحت الدبابة فيشارك جميع أهل القرية في جنازة مهيبه تليق برأس الشهيد ويدفنوه في مقبرة القرية وتشارك شاحنة " النعلاوي " في تخليص الدبابة والمدفع ولكن طائرة إسرائيلية تفاجئهم أثناء احتفالهم بتخليص سلاحهم وتلقي بقنبلة تأتي على الدبابة وتدمرها بالكامل .

أما الفصل الرابع فهو فصل التساؤلات التي تتعلق بالمستقبل والمصير ، كما يصور الراوي الحالة النفسية التي أصابت إنسان القرية وحيواناتها بعد الهزيمة ، ويظهر إعلام العدو الذي يدعو إلى الاستسلام ويثير قهر النفوس من خلال ما يبثه من أغاني عربية " تقول صباح : أبو سمرة زعلان ليش ، و عامل حاله مش سألان " . (2)

ويقرر البطل (الراوي) وأخوته أن يغادروا المغارة التي احتموا فيها أيام الحرب لأنه يفتتح أن الخوف على الحياة هو الذي ألقى بهم فيها وتقرر عائلته الرحيل إلى (عيون مارون) حيث العديد من الكروم والخضراوات .

وفي الفصل الخامس تأتي قوات العدو من الشرق ويعتقد الأهالي أنها القوة العربية قد أتت لنجدتهم فيصفقوا ويهتفوا لها ويتسمروا في أماكنهم عند معرفة الحقيقة . ويبدأ إذلال الجيش للأهالي من خلال إجبار (جامع) على خلع ملابسه وإجبار الأهالي على النظر إليه ، وتستمر الإذاعات العربية في خطابها التضليلي وبث الأغاني الحماسية ، أما القرية فيغادرها الجميع ولا يبقى فيها إلا الكلاب التي بالت في كل الأمكنة وكأنها ترسم حدودها ويتمنى البطل " الراوي " أن يمتلك لغة الحيوانات وبعض تصرفاتها الفطرية .

ويرد الفصل السادس على لسان " الراوي " حيث يرجع الناس إلى قريتهم (بيت اللو) وهم في حالة من الرعب بأن يصيبهم ما أصاب لاجئي عام 1948 من أهوال ، ويأتي جنود الاحتلال

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ص 57 ، 58

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 88 .

من اجل تفتيش القرية ومصادرة الأسلحة ، ويدور حوار طويل بين والد الراوي والجندي حول قريته الأولى (بيت نبالا) ، ليكشف الحوار عن ذاكرة قوية ومتوارثة عن كل تفاصيل تلك القرية المدمرة ، أما المختار فيعرض لأبشع أنواع التعذيب عند مقبرة القرية ليعترف عن مكان مفتاح المدفع (الموجود في القرية والذي لا يعرف عنه شيئاً . وتقوم طائرة بقصف عليّة المختار بما تمثله من رموز القوة والأصالة ويصف الراوي ذلك بقوله : المبنى الذي يعلو قمة أعلى جبل (بابون) الآن سيكون بلا طربوش ، وتخرج زوجة المختار عن حالة المؤمن الصابر عند الشدائد وتنكر قدرها فيذكرها النسوة بصبر سيدنا أيوب وموقف زوجته عندما اعترضت على قضاء الله وأن الله تعالى قد أبدلهما البلاء بعد الصبر رخاءً . وتبدأ تباشير المقاومة بالظهور من خلال توزيع المنشورات الصادرة من رام الله ، وأخيراً تظهر ملكة النمل وسط حشد كبير من النمل ، وتختبئ في جذع شجرة زيتون تماماً كما فعل الأهالي عند خوفهم من الموت ويشعر الراوي بحالة كبيرة من الراحة وهو يشاهد ملكة الموت حريصة على حياتها .

2- المضامين الروائية

أ- رحلة اللجوء:

لقد تأثرت الكتابة الثقافية الأدبية بهذا الوضع المأساوي الذي أبدل حياة شعب من الأمن إلى التشرد، وعبر المبدعون الفلسطينيون عن هذا الواقع الاجتماعي – السياسي بكل تفاصيله المتشابكة، عملاً بوصية الروائي "دوستوفسكي" حين قال: "لا تبتدعوا مواضيعاً ومغامرات بل خذوا ما تقدمه لكم الحياة، فالحياة أغنى من كل تخيل وابتداع، ولن يبتدع أي خيال مهما كان ما يمكن أن تعطيه الحياة".⁽¹⁾

وتظهر رحلة اللجوء في هذه الرواية من خلال انتقال الراوي من قرية (بيت اللو) إلى رام الله لتمثل معاناة اللجوء الثانية بعد هزيمة (1967) ، وهي رحلة مادية ونفسية وردت تفاصيلها على لسان الراوي الذي لم يتجاوز الثانية عشرة وألقت المزيد من الضوء على معاناة اللاجئين وآمالهم في تلك الفترة، كما ألقت الضوء على صدمتهم بعد مواجهة واقعهم الضعيف بعد الهزيمة الثانية لتبدأ معاناة أكبر حجماً من سابقتها من حيث ازدياد عدد اللاجئين . وهم ينقسمون إلى أهالي قرية (دير عمار) الذين يعيشون على خير أراضيهم ويوفرون فرص عمل بسيطة للقسم الآخر وهم اللاجئين الذين تشردوا وفقدوا أراضيهم وخيراتهم وأصبحوا مزارعين يكدحون من أجل

(1) ناهض زقوت ، الآثار الاجتماعية للنكبة في الرواية الفلسطينية (الانترنت)

<http://www.acrossborders.ps/Portal/ar/khatabo.cfm?name=nakba/social.html>

توفير لقمة الخبز لأطفالهم وأسرههم ، وهم يعيشون أمل النصر والعودة معاً . كما يمتازون بالبساطة والسذاجة ويرسمون هالة تحيط بشخصية القائد العربي وإمكانياته وقد ورد ذلك في وصف دبابة (الشقيري) " دبابة الشقيري لها عجلات من كل الجوانب من فوق ومن تحت ومن اليمين ومن اليسار والمحرك موصول بكل العجلات وهي لا تتقلب ولكنها تدور كما تدور القطة حين نلقها في الهواء . " (1) . ويظهر أهالي القرية مرتبطين أشد الارتباط بالأنظمة العربية وجيوشها فهم معقد الأمل وهم المسيح المخلص لهم من حياة البؤس والتشرد التي يعيشون " اقتربت الدبابة من القرية ، كان كثير من الرجال قد اعتلوا ، واعتلوا عربة المدفع ، كانوا يلوحون بأيديهم وبقمصانهم وبكوفياتهم كانوا يكبرون و" يواوون " ويهتفون للقادة العرب ولزعيم الفلسطينيين أحمد الشقيري ، كما يظهر ذلك في تكبير الرجال وزغاريد النساء كلما سمعوا صوت قذيفة من الجيش العربي ، ولكنهم يصابون بالخيبة والصدمة عندما تفاجئهم دبابات العدو آتية من جهة الشرق " أي من الجهة التي تمركزت فيها القوات العربية ، فتنكشف أمامهم حقيقة الضعف المرير ويواجهون زيف أوهامهم وضلاتهم . وقد " أيقظت هذه الهزيمة في نفوس الناس جميعاً ، والشعبيين على وجه الخصوص كيف أن المطالب والحقوق لا تتال إلا بالبذل والتضحية والجهود الشاقة لا بالأمان والأحلام والآمال " (2) .

وقد استطاع الكاتب من خلال توظيف مشهد سقوط الدبابة العربية والمدفع أن يختزل أحداثاً وأنماطاً فكرية كثيرة " حيث تسمي العشرون عاماً من سني اللجوء المريرة الطويلة مختزلة في مشهد وحيد هو سقوط الدبابة التي يتواصل سقوطها هنا وهناك ويتواصل معها تكون المشهد ومحاولة الإنقاذ ، حيث يفقد الزمن الحقيقي مساحته وحيث تتولد مقاصد إبداعية وفسانية تستشعر في رحم الرواية . " (3) ويستمر سبر غور الذاكرة من قبل الراوي ليصور جيل اللجوء الأول وهم أسرته وأبناء قريته ليصف انهيار نسيجهم الاجتماعي والاقتصادي والنفسي وبصور واقعهم بعد اللجوء ، ويصف الراوي حال أسرته بعد اللجوء الأول " إحدى السقائف في بيتنا الحالي عبارة عن " خشة " مبنية من الطين المجبول بالطين الناعم ، فتعمل على تماسك المبنى ، سموه ب " السمكة " وقد أضافوا إلى الحيطان بعض الحجارة " الغشيمة " .. ، كان الرجال يجلسون تحت " عريشة "

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ص 61 ، 62 .

(2) سيد حامد النساج ، تطور فن القصة القصيرة في مصر من سنة 1910 - 1930 ، ص 110 .

(3) علي الخواجة ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، (دراسة غير منشورة) بتاريخ 1 / 6 / 2005

جامعة بيرزيت ، رام الله ، ص 5 .

صنعت قوائمها وأزرعها من جذوع الأشجار ، وترتكز في ناحيتين على سلسلة حجرية تفصلنا الأولى عن دار عمي ، وتفصلنا الثانية عن زريبة الحمار . " (1) .

وتعلق الناس أحلامها في العودة على هذه الدبابة التي تمثل البعد العربي في تلك المرحلة الحاسمة كما تلقي الضوء على حالة التضليل التي ساهم العرب في تشكيلها والتي تتمثل بالتفوق العربي وحتمية النصر .

وقد مثل انقلاب الدبابة والمدفع على " كوربة " (بيت اللو) ومن ثم تدميرها بداية مرحلة لجوء أخرى لجبلٍ يختلف عن سابقه ، من حيث الاستغراق في حياة الماضي الرغد الهانئ والركون إلى السكون ، وانتظار المخلص ، ويعمد إلى إعادة تشكيل ثقافته وسلوكه مستفيداً من أخطاء الماضي ، معتمداً على ذاته وعلى المواجهة بدل الهروب ، وكأن انقلاب الدبابة قد اتبع بانقلاب فكري وسلوكي واسع وقد مثلت الكوربة " المنعطف الحاد الخطر الذي يحمل في كنانته تاريخاً وسياسة واجتماعاً وثقافة . " (2) ولا شك أن هذه المنعطف كان يتطلب جهداً وفاعلية أكبر من قبل الإنسان الفلسطيني للحفاظ على مكانه ، ويتطلب من العرب أن لا يستثنوا الجهد الشعبي الحيوي للفلسطينيين وهم الأعم ببيئتهم وجغرافيتهم في هذه المعركة " وهم يحتفظون بوعيهم الجماعي أن الدواب بشكل عام ، والحمير بشكل خاص هي التي أنشأت الطرق وهندستها والكوربة - بهذا المعنى - تمثل الانحراف الرسمي عن جادة الطبيعة ، والذين يعيشون عليها من بشر وحيوانات . " (3)

وتظهر أجيال اللاجئين رغم القهر وشظف العيش ، مصممة على التعلق بأسباب الحياة والازدهار والتقدم ، لتكشف عن عمق الشعور بالانتماء للأرض والهوية ، وعن عجز الآخر ورغم كل محاولات الطمس والتدمير عن قتل الحلم الفلسطيني والأمل بالنصر والعودة ، وقد ورد هذا الموقف على لسان العديد من الشخصيات بعد الهزيمة حيث قال " الساوي " لو رحل كل أهالي القرية سأرحل فقط إلى نبعنا ومزرعتنا . (4) أما " العم إبراهيم " فقال : " سأشتري قطعة أرض في (بيت اللو) وأبني لي بيتاً ، وسأتزوج من جديد . " (5) .

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ، ص 54 .

(2) علي الخواجة ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، ص 2 .

(3) علي الخواجة ، م . ن . ، ص 6 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 11 .

(5) المكان نفسه .

ويظهر جيل اللجوء الأول وكأن عقارب الزمن قد توقفت عنده لحظة اللجوء وهو يعيش أمل العودة كي تستأنف الحياة دورتها من حيث توقفت ويظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بين " والد الراوي " والجندي : " لماذا لم تعمر لك بيتاً يا حاج ؟ قال بثقة لكن بهدوء :

- أملت أن أعود إلى بيتي ورزقي فحجارة بيتي الجديد والحصمة جاهزة هناك . " (1)

ب- المرأة :

وتمثل " والدة الراوي " دور الأم في أجواء الحرب والخطر وهي مبعث الأمان في ظلّ مشاعر الخوف والتهديد فقد ورد على لسان " الراوي " : " مسحت على رأسينا ، ولامست أكتافنا كانت لمساتها مبعث حنان لنا ، التصقنا بها . " (2) وهي على استعداد لأن تضحي في نفسها في سبيل أبنائها " هي تعتقد أننا سنعيش إلى الأبد ، وهي على استعداد أن تموت من أجلنا . " (3) .

والأم تلعب دوراً أساسياً في بناء الذاكرة الشعبية وحمائتها : " تحاول أن تحفظنا أسماءنا ، تسأل ما اسمك ؟ ما هو اسم أبيك ؟ في أية قرية تسكن ؟ كيف تعرف قرينتك الأصلية ؟ " (4) وتظهر ثقافة النساء الدينية خاصة فيما يتعلق بقيمة الصبر على الشدائد منها ، حيث أخذن يسردن لزوجات المختار قصة سيدنا أيوب مع زوجته التي ضاقت ذرعاً بابتلاء زوجها بعد أن قام الجيش بهدم منزلهم وإذلال زوجها ليذكرنها أن الله جاعل بعد كل عسر يسرا : " اصبري يا أخت ، واستغفري الله ، وسيفرج الله عنك وعن زوجك كما فعل مع سيدنا أيوب . " (5) .

ت- الآخر :

ترسم الرواية صورة اليهودي قبل الاحتلال من خلال شخصية (بوكاج) التي تكررت في رواية " اليسيرة " و " شهاب " و " الكوربة " ، حيث كان يعمل تاجراً ويتخذ من هذا العمل غطاءً لمعرفة تفاصيل المكان والإنسان ، ويظهر في هذه الرواية عسكرياً على ظهر الدبابات ويعلق الراوي على احتمال اليهود للمضايقات من قبل الأهالي في تلك الفترة بأنهم : " كانوا يتحملون الإهانات الصغيرة من أجل خدمة أهدافهم الكبيرة . " (6) . ويستمر الآخر في إشاعة جو الرعب والهلع بين السكان من خلال المجازر البشعة التي يرتكبها من أجل إفراغ القرى من ساكنيها كما

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ص 120 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 27 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 28 .

(4) المكان نفسه .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 129 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 91 .

ورد على لسان الراوي : " يمكن أن يرتكبوا مذبحاً كما فعلوا قبل عشرين عاماً ، أو قبل أقل من سنة واحدة حيث اقتحموا قرية (السموع) قرب الخليل ، قتلوا جنوداً وفسدوا بيوتاً ، أصبح الناس أصناماً في أماكنهم . " (1) كما يصور الراوي صفة الغدر التي يتبعها الآخر من أجل تنفيذ أهدافه ويظهر ذلك في حادثة قتل جميل عندما حاول منعهم من قتل المفتي : " كان الحارس اليهودي في انتظاره هو ومسؤول يهودي آخر ، قام الاثنان بوضع كيس من الخيش على رأسه وخنقاه ، وألقيا بجثته في حفرة المراحيض . " (2) .

ويظهر إعلام الآخر الموجه من أجل قهر الإنسان والنيل من إرادته ، كما ظهر سابقاً في رواية الحلم المسروق ، حيث يقوم هذا الإعلام ببث الأغاني التي تكيد وتمرغ الرؤوس في الوحل كأغنية شادية " مين قلبك تسكن بحارتنا ، تشغلنا ونقل راحتنا ، يا تشوفلك حل بحكايتنا يا تعزل وتسبب حنتنا " ويعلق الراوي على ذلك بقوله : " لا يمكن أن يكون انتقاؤها قد تم بشكل عشوائي ، لا بد أن هناك علماء وراء اختيارها . " (3) .

كما تطرقت الرواية إلى أساليب الإذلال التي يتبعها الآخر لرموز الشعب من أجل تحطيم أنفته وكبريائه ويظهر ذلك من خلال إذلال المختار وهدم بيته ويتساءل الراوي " لماذا يفعلون ذلك مع المختار الذي أحبه الناس ، هل يريدون إهانتنا جميعاً؟! " (4) .

أما على الصعيد الاجتماعي، فقد تناولت الرواية بعض الاعتقادات الخاطئة للناس كاتخاذ الجنّ للآبار وعيون الماء أو بعض الأشجار مساكن لها ، فكانت تخاف ارتياد المكان حيث يقول الراوي : " أنا أخشى شجرة الخروب هذه ، فالناس تقول أنها ملجأ للجن . " (5) .

وهو يشير إلى صدمة الهزيمة والتغيير الإيجابي في وعي الناس حول هذه الأمور " ألا ترى الناس لم تعد تخش جنّاً ولا شياطين، سكنت في الماضي هذه العين إنها تخشى الآن الشياطين الذين جاؤوا على ظهور دباباتهم. " (6) في إشارة إلى اتجاه الناس نحو التفكير المنطقي والواقعي . كما ويندرج ضمن اعتقاداتهم الخاطئة ، أن مشاركتهم في غسل الميت تعالج بعض الأمراض

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ، ص 97 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 92 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 89 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 123 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 95 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 106 .

الجلدية " الثآليل تزال إذا مسّها غسل الميت ، فلذلك كانوا يشاركون في هذه العملية ويصرون على أن يلمس الماء المنساب على جسمه أيديهم . " (1) .

ومن العادات الاجتماعية السيئة التي وردت عادة الصراخ والطم في حالات الوفاة من قبل النساء حيث يصفهن الراوي قائلاً: " رأيت النساء يبكين ويمزقن ثيابهنّ ، ويعفرن وجوههن بالتراب كنّ أقرب إلى حالة الانتحار وهن يضربن صدورهن ، ويلطمن خدودهن ، كن يضربن مراكز الحياة فيهن. " (2) .

كما أشار الروائي إلى أهمية التعليم الذي يوجه الجيل القادم إلى روح العلم بدل الاعتماد على التلقين والحفظ الذي لا يؤثر في سلوك الناس " لقد علمونا أحكام التجويد في المدرسة مثل الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب . لكنهم لم يعلمونا كيف نقرأ مثل " عمي إبراهيم " (3) كما جاءت صورة المعلم غير التقليدية وذلك من خلال أسئلته " هل سمعتم في يومٍ ما يوم عن شيء اسمه خارو ؟ هل تعرفون رتنو ؟ هل تعرفون كيناهاي ؟ هل تعرفون مريام ، كيف يمكن معرفة ما يحدث الآن إذا لم تعرف ماذا حدث في الماضي ؟ " (4) نقداً للتاريخ الفلسطيني الذي لم يستطع أن يضيء أبعاد وجوانب القضية الفلسطينية وأن يوفرها بصدق وأمانة وبحدثة موضوعية للدارسين جيلاً بعد جيل " (5) .

(1) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ، ص 52 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 51 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 41 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 7

(5) علي الخليلي، رواية الكوربة لصافي صافي، منحني المكان والزمان في فلسطين، صحيفة الأيام، ص5.

الفصل الثاني

عناصر الأعمال الروائية عند صافي صافي

المبحث الأول: عناصر العمل الأدبي في رواية الحاج إسماعيل.

المبحث الثاني: عناصر العمل الأدبي في رواية الحلم المسروق.

المبحث الثالث: عناصر العمل الأدبي في رواية الصعود ثانية.

المبحث الرابع: عناصر العمل الأدبي في رواية اليسيرة.

المبحث الخامس: عناصر العمل الأدبي في رواية شهاب.

المبحث السادس: عناصر العمل الأدبي في رواية الكوربة .

الفصل الثاني - عناصر الأعمال الروائية عند صافي صافي

تقوم الرواية على تضافر مجموعة من العناصر ، حيث يعمل هذا التضافر على تشكيل ملامح العمل الروائي ، " وقد اعتاد الدارسون أن يصنفوا الفن القصصي بناء على أمور عدة منها : الفكرة أو الحدث أو الشخصية أو المكان ، وحجتهم في ذلك تصدّر أحد هذا العناصر النص القصصي . " (1) ، ويتباين هذا التصنيف نتيجة " تنوع عقليات القراء ، أو تباين تجاربهم في الحياة ، أو اختلاف أمزجتهم فالقصة كالبناء الضخم ذي الكوى العديدة ، ولكل قارئ أن يطلّ من الكوة التي يختارها له ذوقه ومزاجه وطبيعته " (2) . وسأتحدث عن عناصر العمل الروائي وفق الآتي :

• **الشخصيات :** وهي عالم شديد التعقيد ، وتتعدد الشخصيات بتعدد الأهواء والمذاهب كما أنها تشكل طبائع الناس داخل المجتمع بكل ما فيها من تناقضات كما أنها واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى ؛ فهي التي تصنع اللغة ، وتبث الحوار وتستقبله ، وهي التي تقوم بدور تنشيط الصراع وقد أصبحت دراسة الشخصيات تتجه إلى وضعها في إطارها الدلالي شأنها شأن الوصف والسرود والحوار (3) .

المبحث الأول : عناصر العمل الأدبي في رواية " الحاج إسماعيل " :

• **شخصيات الرواية :**

شخصية " الحاج إسماعيل : وتظهر " كشخصية محورية تدور في فلكها باقي الشخصيات وهي شخصية مدوّرة (4) من حيث تأثيرها في تطور الأحداث وحركة الشخصيات، وهي شخصية قاسية في ملامحها الداخلية والخارجية " لكنه ما يزال عريض المنكبين ، يدها ما تزالان قويتين إصبع من أصابعه تعادل ثلاثة من أصابعي " (5) ، وتبدو ملامح قسوته الداخلية عندما قام بكسر يد ابنه ماهر وضرب زوجته ، وإجبار ابنته على ترك وظيفتها والزواج من ابن عمها الذي عرف

(1) عادل الأسطة ، قضايا وظواهر نقدية في الرواية الفلسطينية ، ص 114 .

(2) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص 25 .

(3) عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ص 87 .

(4) وهي التي تتكشف لنا تدريجياً ، وتطور بتطور حوادث القصة ، وينشأ هذا التطور نتيجة تفاعل الشخصية مع الحوادث الذي يكون ظاهراً أو خفياً ، وقد ينتهي هذا التفاعل بالغلبة أو الإخفاق . ينظر : محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص 86 .

(5) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 40

بانحرافاتة . كما أنها شخصية قد اتخذت من الانتماء العائلي بديلاً عن الانتماء الأشمل للوطن (1) " لذلك يعيش الحاج إسماعيل ضمن هلوسة الماضي وضمن قيمه التي تعزز بالقوة والشجاعة الفردية وحماية العائلة من ظلم العائلات الأخرى " وفي سبيل تعزيز مركز هذه الشخصية في إطارها العائلي نراها تدافع باستبسال وقوة ، تخرج أحياناً عن حدود المنطق خاصة في ذلك الموقف الذي يتصدى فيه وحده لمجموعة من الرجال في دفاعه عن أحد أقاربه " نهض الحج إسماعيل ، أتبعه بضربة أخرى ، وقف على جسده وصاح ، والله لأذبحن اليوم عشرة منكم أصابهم الهلع لحقهم .. " (2) .

وهو لم يتردد في استخدام قوته ضد أخيه وأبنائه عندما حاولوا الانتقاص من هيئته بفضل أموالهم الزائدة فقد ورد على لسانه: " إنهم يستهزئون بي ، سأريهم أنني ما زلت أحتفظ بقوتي وأنا الذي صنعت لهم هذه المكانة " (3) .

وأمام هذه المكانة يرفض الحاج إسماعيل الإقرار بضعفه الجسدي رغم بلوغه الخامسة والسبعين ، كما يرفض الاعتراف بالمرض الذي أصابه ويرفض أي علاج له " أمسك بإبرة المغذي ، شدها ، سال ماؤها على جسده ، وبحركة تحدٍ قطعها " (4) ولكن هذه الشخصية تصاب بحالة من الهذيان عندما تصطم بالواقع المرير الذي آلت إليه بعد قطع رجلها ، فقد أصبحت تخلط ماضيها بحاضرها ، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك يكمن في عدم مقدرتها النفسية على مواجهة واقع عجزها الجديد ويصف الراوي حالته بقوله " حالة من اللاوعي يعيشها ، يطلب من مرافقه أن يلمس أصابع قدمه ، ينهض ليراها " (5) .

ويأتي موت " الحاج إسماعيل " موتاً تدريجياً يتلاءم مع هالة القوة والجبروت التي رسمتها الرواية له ، حيث تم بتر ساقه أولاً ثم مات وعيه وأخيراً مات جسده ، ويعلق الراوي على ذلك بأن رفض هذه الشخصية لواقع عجزها الجديد هو السبب في موتها : " حتى الآن لا يستطيع تقبل ذلك لو تقبله لعاش بباقي جسده " (6) .

(1) مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، ص 251 .

(2) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 18 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 94 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 17 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 65 .

(6) صافي صافي ، م . ن . ، ص 97 .

وتظهر شخصيته العابثة مع النساء في حديث الراوي: " أما عشيقاته فلم يستطع أحد الاقتراب أو الالتفات نحوهن " (1) .

ويمكن القول إن شخصية " الحاج إسماعيل " ببعدها الرمزي تمثل جيل النكبة الذي أهمل معالجة أخطائه وسلبات مسيرته الكفاحية في استعادة حقه المسلوب ، واختار الهروب من هذه الأخطاء بدل مواجهتها واستئصالها ، وقد رمز إليها المؤلف بمرض السكري وهو مرض يمكن أن يهلك صاحبه في حالة الإهمال كما أنه مرض وراثي قد وظّف ليشير إلى توارث الأجيال لهذا التقصير وهو ما أكده الراوي لدى مخاطبته لأخيه الأكبر شوكت : " أنت أيضاً مريض بالسكري يجب أن تستريح " (2) وتتعرّز هذه الرؤية الرمزية بتصريح الراوي بأن والده كان سيعيش لو بتر الجزء المتعفن من جسده في إشارة واضحة بأن الحياة في مجتمع صحيّ تعوزه الجرأة في اتخاذ القرارات العلاجية والتخلص من مظاهر التخلف والفساد في مختلف المجالات .

أما بقية الشخصيات فلم تستطع التخلص من سطوة الشخصية المحورية ونفوذها رغم محاولاتها المتكررة ، فتظهر شخصية فالابن الأصغر (الراوي) : الذي يبدي إعجاباً واضحاً بوالده عندما يتحدث عن قوته الجسدية ، وانتصاراته على التحديات المختلفة باعتماد القوة والعنف وسيلة لذلك ، ولكنه يشير إلى اختلافه عنه بقوله : " أنا لست مثله ، لا أستطيع سوى أن أعبر عن عواظي بالكامل لزوجتي وابني ، هذه هي الحياة ، الحياة تغيرت " ويعترف بصراحة في استمرار تأثير شخصية والده على تفكيره وسلوكه " لم أعد الحاج إسماعيل رغم أنه ينغرس في داخلي شيء منه ، انه تحت جلدي بالضبط كما الحضارة التي أعيشها " . (3) .

أما شخصية ماهر : فيبدو متأثراً بشخصية والده العنيفة رغم دراسته الطب في إسبانيا وذلك عندما هدده بعد ضرب والدته حيث يخاطب والده : " والله يا حاج إسماعيل لو سمعت أنك مسست أمي في شعرة منها لأتيت أتخلص منك وإلى الأبد " (4) كما أنهم ينادونه في إسبانيا بإسماعيل .

وتظهر شخصية شوكت : الابن الأكبر الذي يسمي ابنه الخامس إسماعيل ، لرغبته في استمرار تلك القوة والسيطرة التي تمتع بها والده ونراه يكتب البيت والأرض باسم حسان وهو الأخ الذي يعيش في أمريكا ، وذلك في قرار منفرد وغير قابل للنقاش تماماً كسلوك والده في السابق .

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 95 .

(2) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 50 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 106 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 104 .

شخصية زوجة الحاج : التي تقع تحت ظلم ممتد ، حيث يعتدي عليها زوجها مراراً ويمتهن إنسانيتها حين كان يحدثها عن مغامراته العاطفية والجنسية ، ولكنها تستمر في حياتها معه من أجل تربية أبنائها ، حيث تخاطبهم قائلة: " والله لولاكم لتركته منذ زمن " (1)، كما أنها لم تعبر عن موقف رافض واحد رغم فداحة الجور الواقع عليها ، وهي تؤمن أن طاعة الزوج من طاعة الله حيث تقول بعد أن جامعها زوجها في موسم الحج : " ربي اغفر لي ، أنا أتيت لطاعتك وطاعة الحاج إسماعيل من طاعتك " (2) . وتستمر في العناية به أيام مرضه وضعفه .

شخصية رفقة : وهي الابنة الوحيدة المقيمة في الوطن ، وهي مثال المرأة التي لا تملك من أمرها شيئاً ، فقد تزوجت رغماً عنها من ابن عمها عارف ، وهي تعرف أنه كان ينتقل من امرأة لأخرى ، وقد حاولت ذات مرة أن تفلت من قيد هذا الظلم إلا أن محاولتها قد فشلت وعادت راضخة للتقاليد . وهي كباقي الشخصيات تعتبر أن التزامها ووجودها مع أفراد أسرتها وحتى خدمتها لوالدها هو شكل تدرأ به عن نفسها كلام الناس " ما يجبرني أن أراكم هو كلام الناس " (3)

شخصية نزهة : القادمة من السعودية ، فقد ورثت صفاتها العنيفة من الأسرة ويظهر ذلك في نقاشها مع أخيها " الراوي " حيث تصف أخوتها ب (النور) والصعاليك ، وهي تثير إشكالية العلاقة بين المغتربين والمقيمين ، وتصفها بأنها علاقة متوترة يسودها جو من عدم الثقة ونكران الجميل .

وتظهر شخصية عارف : زوج رفقة ، حيث يدل اسمه على صفاته ، فهو يدعي المعرفة في كل شيء ، ويقتحم كل نقاش ويتدخل في كل شيء ، وهو يحاول أن يرث شخصية الحاج إسماعيل بقوتها وسطوتها ، إلا أنه يصاب بخيبة أمل أمام أول تحدٍّ حقيقي يواجهه بعد مشكلته مع عائلة من أبناء الخليل ، ويعترف بفشله ويقرّ بحاجة المستمرة لسطوة الحاج إسماعيل كما أنه " لم يحصن نفسه بتعليم يحميه من جهله ، ففشل في إدراك حقيقة بسيطة مفادها أن الحاج إسماعيل لن يدوم له ويحميه إلى الأبد ، ولهذا لم تحقق هذه الشخصية أي تفرّد يذكر " (4) وأخيراً يمكن القول إن جميع الشخصيات بقيت أسيرة لشخصية الحاج إسماعيل وفقدت كل ملامحها فيه .

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 92 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 92 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 85 .

(4) مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، ص 253 .

• الزمان

وهو مظهر نفسي لا ماديّ ، ومجرد لا محسوس ، ويتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر ، لا من خلال مظهره في حد ذاته " (1) " وليس المقصود بزمنية الرواية هو زمنها الخارجي فقط ، بل وزمنها الباطني المتخيل ، وهو " اهتمام الرواية بإبراز التغيرات النفسية التي تحدث داخل الإنسان نتيجة إحساسه القلق بإيقاع الزمن . " (2) .

لقد امتد الزمن الروائي شهرين كاملين ، وهما فترة مرض الحاج إسماعيل وما طرأ على هذه الشخصية من صراعات وتغيرات أثرت عليها وعلى بقية الشخصيات ، وتشير هذه الأحداث إلى وجود صراع بين جيلين أساسيين يتمثلان في الحاج إسماعيل وأبنائه وبناته ، وتم التطرق بسرعة إلى امتداد هذا الصراع إلى جيل ثالث من خلال الحادثة التي رفضت فيها نزهة تزويج ابنتها إلى ابن رفقة ومن خلال الحديث بين ابن رفقة وخاله (الراوي) الذي يشير بوضوح إلى توارث الخوف من (كلام الناس) حين طلب منه عدم ترك أبيه في المستشفى والذهاب لاستقبال أخيه في المطار قائلاً " تجنب أن ينهش الناس لحمك " (3) وقد تتوع الزمن وفقاً للاسترجاع الفني للشخصيات ؛ فالحاج إسماعيل يعود إلى زمن قوته وجبروته ليهرب من زمن ضعفه وهوانه ، كما يصور الصراع غير المتكافئ بين العرب واليهود إبان فترة التقسيم سنة 1947 ، ويصور زمن الخير والاستقرار في الماضي ويقابله بحياة التشرذم والضيقة في المخيم ، ويمتد الزمن بالنسبة إلى الراوي ليشمل التنبؤ بالمستقبل وذلك حين أشار إلى توارث الأجيال للأفكار والمعتقدات التابعة للجيل السابق : " الحاج إسماعيل لم يولد منذ خمسة وسبعين عاماً ولن يموت خلال سنين ، يحتاج عشرات السنين بل مئات منها ، إنني مجرد زهرة أو ورقة على شجرته ، وربما نكون جميعاً أوراقاً على شجرة الماضي ، الشجرة باقية وستتغير مع الزمن " (4) " وفي كل لحظات التوتر في الحاضر يلجأ السارد إلى الماضي يستعين به ليكشف بعداً جديداً وعلاقة جديدة مع الحاضر حيث الماضي بقيمه ومفاهيمه لم يعد يجدي نفعاً ، ولم تعد القوة والسطوة صالحة للحلول " (5) .

(1) عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ص 201 .

(2) نبيلة إبراهيم ، نقد الرواية ، ص 31 .

(3) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 45 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 106 .

(5) مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، ص 255 .

• المكان

المكان في الرواية هو الحيز أو البيئة المادية، وهو العوامل الثابتة التي تحيط بالفرد وتتأثر به وتتعاكس على تصرفاته بالحياة. " (1) . ولا يُراد بكلمة المكان في الرواية "دلالاتها الجغرافية المحدودة، المرتبطة بمساحة محدودة من الأرض في منطقة ما، وإنما يُراد بها دلالتها الرحبة التي تنتسج لتشمل البيئة وأرضها وناسها وأحداثها، وهمومها وتطلعاتها، وتقاليدها، وقيمها. فالمكان بهذا المفهوم كيان زاخر بالحياة والحركة، يؤثر ويتأثر، ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها كما يتفاعل مع الكاتب الروائي ذاته. " (2) ويبدو المكان في الأغلب الأعم من النتائج الروائي الفلسطيني وحدة بنائية مركزية بسبب وعيه بالدور الذي يمكن أن ينهض به في تعميق الموضوعات لا سيما علاقة الفلسطيني بأرضه، وبمفردات بيئته التي يجسد من خلالها صلته بقضيته الوطنية، ووعيه لطبيعة صراعه مع عدوه. " (3) .

ويحتل المكان (المستشفى) مساحة واسعة من الرواية؛ فهو يحمل أبعاداً ومعاني متناقضة تتناقض الحياة نفسها، حيث الألم والأمل، الولادة والموت، وهذا يتناسب مع التناقض الرئيس في الرواية بين جيل يعتمد الهروب والنزوح إلى الماضي بدل مواجهة تحديات الحاضر وجيل يحاول جهده أن يبنى طريقة جديدة في الحياة، وقد سلط (الروائي) في أحداث روايته الضوء على أوجه التقصير والإهمال الذي تعاني منه هذه المرافق الصحية، حيث المحسوبة والمعاملة غير الإنسانية من الموظفين والقدارة واعتماد الممرضين على المرافقين في العناية بالمرضى، " جلست في الممر أدخن سيجارة، فرغم يافطات منع التدخين فالكل يدخن، الأطباء يدخنون، الممرضون، المرضى، المرافقون، وحتى الزائرون، أعقاب السجائر تغطي الأرض وتضيع بين أوساخها، لا علاقة بين اليافطات وبين ما يحدث، لا علاقة بين القوانين المكتوبة سراً وعلانية وبين الواقع " (4) . وتتردد أسماء المستشفيات المختلفة للمقارنة السريعة بين الخدمات الصحية في هذه الأماكن، فيرد اسم مستشفى (المقاصد) و (المطلع) في القدس لتكشف هذه الأمكنة عن معضلة اجتماعية أخرى وهي تفاضل الناس وحرصهم على الشكل الاجتماعي ولو على حساب المريض أو الوضع الاقتصادي للأسر .

(1) محمد نجم، فن القصة، ص 23 .

(2) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 29 .

(3) نضال الصالح، نشيد الزيتون، قضية الأرض في الرواية الفلسطينية، ص 148 .

(4) صافي صافي، الحاج إسماعيل، ص 39 .

" إن المكان في هذه الرواية يفضي إلى فلسطين بوصفها المكان الإشكالي الذي يجرّ إليه صراعات متعددة ، ويكشف صبر الإنسان الفلسطيني ومعاناته وأزماته " (1) ويأتي المكان الرمز " مخيم قدورة " والذي يشير إلى التهجير والتشردّ ويستدعي مكاناً آخر وهو (بيت نبالا) الوطن الأم ومكان الخير والاستقرار ، وقد تمت الإشارة إلى بعض الأمكنة الأخرى والتي تمثل الغربية وأماكن الشتات والمنافي كالكويت والسعودية وأمريكا وأسبانيا " ولا يتوقف الراوي مع الأماكن غير الفلسطينية كثيراً بل يشير إليها لمجرد التعريف بأماكن الشخصيات في المنافي " ، (2) كما تبرز الأماكن غير الفلسطينية لترمز إلى " الضياع والقهر الناتجة عن النكبة التي أصابت المكان العام (فلسطين) ، ونلاحظ هذا المعنى في كلام حسان المغترب في أمريكا " انتم ضيعثموني ، رميتم بي من أجل الفلوس ، ألقبتم بي وأنا شاب يافع في شوارع شيكاغو بين العبيد ، بين اليهود والأمريكان ، لقد أضعثم عمري شاباً وكبيراً " (3) .

وانفق مع رأي د. علي عودة أن سبب قرار الشخصيات المغتربة في عدم العودة للوطن رغم امتلاكها للأموال يعود إلى توقها إلى وطن متطور وفاعل وإلى مجتمع قد تخلص من سلبياته ومفاهيمه المعرّقة الأمر الذي لم يتم بعد في الوطن (4) ، وأضيف أن هذه الشخصيات ورغم سنوات الغربية والانفتاح على عوالم ثقافية وحضارية مختلفة لم تستطع التخلص من إرث المفاهيم الاجتماعية الخاطئة خاصة فيما يتعلق بحرصهم على إرضاء المجتمع ولو تعارض ذلك مع رغباتهم الخاصة أو رؤاهم الصائبة ، وبالتالي فإن الغربية تشكل ملاذاً آمناً لتلك الشخصيات. ويتحدث الراوي عن تأثير التفاوت الطبقي الذي أفرزته الغربية بين الأخوة على مفهوم الانتماء للوطن حيث يصف الراوي إخوته المغتربين بالمتفرجين الذين يكتفون بتوجيه الانتقادات بينما يعاني المقيمون من مرارة الظروف السياسية ويسعون إلى تغييرها، حيث ورد على لسان الراوي: " هناك من يتحدثون في السياسة والقمع رغم أنهم لم يعيشوا في المخيمات ولم يعرفوا السجن ويغيبني أيضاً حين يتبحون بتصرفات يتكلمون عنها بأنها رجعية . " (5) .

(1) جمال يونس ، آفاق المكان في رواية الحاج إسماعيل ، جريدة الأيام ، 14 / 8 / 1997 ، ص 17 .

(2) مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، ص 255 .

(3) جمال يونس ، آفاق المكان في رواية الحاج إسماعيل ، جريدة الأيام ، 14 / 8 / 1997 ، ص 17 .

(4) مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، ص 256 .

(5) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 80 .

• الحكمة والصراع

الحكمة هي سلسلة الحوادث التي تجري فيها القصة ، وترتبط عادة برابط السببية وقد تكون الحكمة مفككة ، وهي سلسلة من المواقف المنفصلة والأحداث المتفرقة والتي تبني وحدة العمل القصصي فيها على البيئة أو الشخصية الأولى أو النتيجة العامة التي تنتظم الحوادث والشخصيات وهناك الحكمة العضوية المتماسكة والتي تقوم على حوادث مترابطة وتسير في خط واضح حتى تبلغ مستقرها . (1) .

تعتمد الرواية على الحكمة العضوية حيث أنها تقوم على تطور الأحداث تطوراً طبيعياً يصل إلى الأزمان بشكل مترابط ، وتتشكل حبكة الرواية من خلال مجموعة من الصراعات التي تتمثل في الصراع بين الجيل القديم والحديث وحول مفاهيم السلطة والسيطرة والعنف وهو الصراع الذي لازم الراوي منذ بداية الرواية وحتى نهايتها ، كما يظهر الصراع الطبقي الذي تمثل بين شريحة المغتربين والمقيمين .

وقد شكّل مرض الحاج إسماعيل سبباً لاستدعاء بقية الشخصيات المتناقضة بأفكارها وسلوكها ما أدى إلى إثارة العديد من التساؤلات حول الواقع الاجتماعي والسياسي حيث ساهمت في إثراء الرواية . وقد تصاعد التوتر بشكل واضح لحظة وعي الحاج إسماعيل للواقع بعد بتر قدمه وساهم في ذلك الحالة الهستيرية التي أصيب بها " هل قطعوا رجلي؟ أين رجلي؟ آخ آخ قطعوها ، قطعوها بكى ، أفلتها ، تحسسها " (2) وقد شكل هذا التوتر المتصاعد تمهيداً فنياً للحظة الحل . وتحمل الحكمة بعداً رمزياً يقوم على رغبة الإنسان في التخلص من سطوة الزمن ورغبة الأبناء في التخلص من سطوة الآباء.

(1) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص 53 .

(2) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 68 .

المبحث الثاني : عناصر العمل الأدبي في رواية " الحلم المسروق "

• شخصيات الرواية :

لقد حشد الروائي عدداً من الشخصيات التي جاءت تتحدث عن نفسها بحرية ودون تدخل من الكاتب حيث يبرز صوت مروان شقيق الشهيد في الفصل الأول ، ومن ثم يعلو صوت زوجته في الفصلين الثاني والثالث ليعود مروان إلى الظهور في الفصل الرابع . ويمكن تصنيف هذه الرواية من حيث دور الشخصيات أنها متعددة الأبطال . حيث " نستطيع أن نرى ملامح البطل الجديد من نصوص الانتفاضة على أنه ليس فرداً أسطورياً بقدر ما هو جماعي آتٍ من الجماهير وخارج بها إلى التغيير المطلوب . " (1) . وقد ظهرت شخصيات الرواية كما يلي :

شخصية مروان : وهو يمثل شخصية المغترب الفلسطيني في دول الخليج وهي نموذج لشريحة واسعة من المغتربين الذين قضوا أعمارهم في الغربة وعانوا مرارتها وقسوة ظروفها البيئية والتمييز الفاضح الذي يكابدونه، ونراه يعبر عن ذلك بقوله : " البيت ليس بيتي والحياة ليست حياتي ، وأنا لست طرفاً أستطيع تغيير مساره " (2) ، وهي شخصية لم تحاول التمرد على واقعها السيئ ولكنها تتعامل مع تحديات الدهر بعد وقوعها فهي شخصية " حزينة ومغلوبة على أمرها ومقهورة ويحاول في مكاشفته لذاته استدرار الشفقة واستنباط المبررات " (3) " فقد غادر " الكويت " بعد دخول الجيش العراقي إليها، ليعود تاركاً ما أنجزه عبر سني غربته هناك ، ويستقر في المخيم وتبدأ صعوبات التأقلم مع الحياة الجديدة ، فالحياة المستقرة نسبياً في الغربة تقابلها الاقتحامات المتتالية التي لا تهدأ في المخيم . والعلاقات الرسمية الحذرة في الغربة تقابلها البساطة والحميمية في المخيم ، كما تعكس هذه الشخصية أخطاء المغتربين الذين يخططون لحياتهم خارج أوطانهم ، لتكون إنجازاتهم في الغربة سراباً في الوطن .

ولم يحاول مروان الاندماج في الحياة النضالية في المخيم نتيجة الصعوبات التي تعترضه في التأقلم مع ظروف الحياة المختلفة ، فنراه أحياناً يقف موقفاً الراض لبعض العادات كتدخل الناس في صميم حياته الخاصة ، وأخرى يقف خائفاً ومتربداً أمام الاجتياحات العنيفة من قبل قوات الاحتلال وثالثة منبهرأً بشجاعة الناس واستخفافهم بإجراءات عدوهم القمعية ، ويبدو ضعف هذه الشخصية واضحاً عندما تظهر عاجزة عن تقديم أية مساعدة لزوجته الشهيد نجوى التي كانت على وشك الولادة .

(1) مصطفى عبد الغني ، الاتجاه القومي في الرواية ، ص 359 .

(2) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 2 .

(3) محمد الحاج ، صافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانياً إلى أين ، مجلة نوافذ ، العدد (5)

حزيران ، 1991 ، ص 29 .

أما زوجة مروان : فهي مثال الزوجة التي تقف إلى جانب زوجها في شتى الظروف والأماكن ؛ فهي تعنتي بالبيت والطفلة في الغربية ، وتقاسي مع زوجها شظف العيش في المخيم . وتظهر شخصية الأخ الأكبر عبد القادر لتكثيف معاني الغربية وصور الضياع فهو المغترب الذي قضى من حياته ثلاثين عاماً في الغربية وفقد حقه في العودة إلى وطنه بسبب قانون الاحتلال الذي يقضي بوجوب عودته في فترات دورية أو يفقد مواطنته، وهي الشخصية التي تمثل فقدان بكل جوانبه فقد تعرض ملجأ " العامرية " للقصف في الوقت الذي لجأت إليه أسرته وفقد زوجته وأولاده لنراه بعد ذلك يعيش بين مطرقة الحكم العسكري في الكويت الذي يقوم بطرده دون مستحقته المادية وسندان الحكم العسكري في الضفة الغربية الذي يرفض عودته .

شخصية محمد : وهو الفتى الذي يمثل جيل الانتفاضة المقاوم : " محمد شاب لم يبلغ الخامسة عشرة بعد ، طويل القامة ، أسمر الوجه مجعد الشعر ، تكسو ملامحه ابتسامة تحمل معها نوعاً من الثقة " (1) وهي شخصية تمثل الجرأة التي تمتع بها أقرانه فهم لا يخشون العدو ولكنهم يبتكرون طرقاً جديدة في مواجهته ، كما وتعكس هذه الشخصية الثقافة السياسية العالية التي تحلى بها هذا الجيل ، ويظهر ذلك في حوار مع مروان عن حرب الخليج حيث يقول : " لم يعتقد أحد منا أن أحداً يستطيع أن يخترق حاجز " حدودهم " تبجحوا بذلك أمام العالم ، وجاءت هذه الصواريخ لتقضى بكاراة الوطن " (2) . وهو يتحمل المسؤولية كرجل ناضج حين يحضر لبيت نجوى بعد الولادة ويحضر هدية لابنها الأكبر فضاء حين غفل عنه جميع الحاضرين ونراه يعمل على بث روح الحماس والتفاؤل في قلب مروان ، وتظهر قدرة هذه الشخصية على الحركة مقابل العجز الذي يبديه مروان . ونرى هذه الشخصية تعمل على نقل صفاتها الايجابية إلى جيل آخر لضمان استمرارها حيث يخرج مع ابن الشهيد فضاء ليعود هذا الأخير يحمل نسخة من نداء جديد للقيادة الموحدة ويرمز الروائي لتلك الاستمرارية بالعبارة التي وردت في النداء " الحرب مستمرة والانتفاضة مستمرة والتجدد مستمر " (3) .

شخصية نجوى : هي شخصية محورية، أثرت في الأحداث وتأثرت بها ، وهي تمثل المرأة الفاعلة في المجتمع الفلسطيني ، حيث تظهر مشاركة في العمل النسوي والمسيرات بل وتدافع عن موقف المرأة وتعمل على تدعيمه بشكل عميق داخل المجتمع ، فهي تتحدث عن نفسها " لكن الجهد

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 19 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 26 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثاني ، ص 39 .

الأكبر كان في المساهمة في وضع برنامج نسوي للأرض المحتلة ووضع علاقات واضحة بين الإطار النسوي في الخارج والداخل " (1) .

"وتثير نجوى قضية حرية المرأة من منطلق حريتها السياسية ، ولكنها سرعان ما تعود إلى السياسة ، وتحليل أوضاعها في المنطقة العربية امتداداً إلى الساحة العالمية ، وذلك من خلال تلاحق أحداث الخليج" (2) ، كما أنها تستمد قوتها من نشاطها السياسي الذي يشعرها بأنها إنسانة تحقق ذاتها وتتمتع بحريتها وتتعتق من سجن القيم والعادات والتقاليد المورثة منذ آلاف السنين عن المرأة ودورها في المجتمع . (3) وهي زوجة المناضل التي تقف إلى جانبه وتعاضده أمام كل التحديات التي تواجهه فهي تعنتي بابنها عندما تعرض للاعتقال إلى جانب أعباء عملها ولعل اسمها نجوى يأتي لتوضيح العلاقة مع زوجها فهو يبثها مشاعره وهي تشاركه هواياته وهمومه وآماله .

ويظهر دورها الفاعل والمؤثر عندما تعرض زوجها لاتهام كاذب من صاحب المصنع الذي يعمل فيه ، فنراها تناقش الوفود التي جاءت لتتضامن مع زوجها وتطالب بفضح صاحب المصنع أمام الجماهير والمؤسسات ، كما تظهر فعالة بأفكارها من أجل الخروج من تلك المشكلة ونراها تمنع زوجها المناضل من اتخاذ قرارات خاطئة تتعارض مع مسيرته النضالية حين قرر اللجوء إلى منطلق "الزعران" مع صاحب المصنع قائلة " من أين تأتي بهم وأنت صاحب العقل والتعقل والمسؤولية " (4) . وتستمر هذه الشخصية في تأثيرها حتى نهاية الرواية حيث تمد يد العون والمساندة للراوي مروان الذي يمر في فترة ضعف وعجز ويهرب من واقعه ولا يقوى على مواجهته فنجدها تقدم حلاً واعياً يدل على تمرّس كبير في الحياة كما يدل على ثقافة عميقة بقولها " أقم علاقات اجتماعية بقدر ما تستطيع ، فالناس هم المخرج الأساسي للمشاكل الشخصية والعامة ، عمقنا الاستراتيجي يكمن في هذه العلاقات التي لم يستطع عدونا تقديرها " (5) .

شخصية خالد : وتظهر ملامح هذه الشخصية من خلال الاسترجاع الفني من قبل زوجته نجوى ، وتبدو بعض ملامح هذه الشخصية الخاقية من خلال وصفها : " جئت بقامتك الطويلة وعينيك الجذابتين وشعر لحينك ، وشاربك يغطي وجهك " (6) أما صفاته الداخلية فهي تمثل الجانب

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 61 .

(2) محمد الحاج ، صافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانياً إلى أين ، مجلة نوافذ ، ص 32 .

(3) ربيعة شبلاق ، تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية ، ص 64 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 57 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الرابع ، ص 4 .

(6) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 7 .

الإنساني في شخصية المناضل ، وهو يمثل : " النقاء الداخلي للإنسان الفلسطيني مقابل العبث الخارجي ، الصفاء الداخلي مقابل الغباش الخارجي ، المظلوم الطيب مقابل الظالم الوحش ، والطبيعي مقابل اللاتبيعي " (1) وتظهر هذه الشفافية من خلال الإشارات المتكررة لتعلق " خالد " بالطبيعة ومظاهرها " عاش خالد أيام طفولته في الجبال والوديان ، يأخذ عنزاته إلى المراعي حاملاً كتبه في حقيبته " (2). كما تمثل هذه الشخصية شريحة من المجتمع تؤمن بالسلام وإمكانية الحوار في حل جميع المشكلات التي تواجه المجتمع الإنساني " (3) وتظهر فاعلية هذه الشخصية من خلال قدراتها على إيصال أفكارها إلى شريحة واسعة من المجتمع الفلسطيني والإسرائيلي " خرجت أفكاره إلى النور وصارت النداءات تحمل لغة تفاوضية وتدعو إلى السلام ، فمددت فترة فتح المحلات التجارية ونجحت القيادة الموحدة في السيطرة على الجمهور بعدم إلقاء الحجارة يوم مظاهرة السلام المشتركة " (4) ، ويستمر خالد في دعوته وأفكاره حتى لقب بداعية السلام .

وأخيراً فإن هذه الشخصية بما تمثله من آمال السلام ، وإمكانية الحوار مع الآخر تُقتل على أيدي ملثمين في محاولة لتشويه نضالها وأفكارها ، لكنّ المجتمع بكل شرائحه ينكر هذه المحاولة ويشارك في تشييع جثمانه ، وتشير تداعيات الأحداث إلى تعاون الاحتلال والبرجوازي عبد الرحمن المعبي في قتله ؛ فالسيارة التي استقلها الملثمون تتجه إلى (بيت إيل) (5) " والمعبي من الشخصيات التي يطلب منها الحاكم العسكري الاجتماع به حين يعلن عن لقاء مع شخصيات من رام الله والمناطق " (6) .

شخصية عبد الرحمن المعبي : وهو البرجوازي الذي يستغل أمواله ونفوذه في تسيير مصالحه الشخصية وإن تعارضت مع مصالح شعبه وأهدافه ، فهو يلتقي بالحاكم العسكري ويمتد تأثيره إلى القوى المناضلة والنقابات والمحامين ويظهر تأثيره على القوى الوطنية من خلال الحوار

(1) صافي صافي ، رؤيتي الكتابية للجانب الإبداعي في الرواية " مجلة الحقيقة ، 28 / 7 / 1998 .

(2) صافي صافي ، م . س . ، ص 8 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 16 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 17 .

(5) اسمها في الأصل (بيتين) ، تقع على بعد ثلاثة أكيال من البيرة ، في الشمال الشرقي من رام الله ، ودعيت بعد ذلك (بيت إيل) بمعنى بيت الإله ، كانت قديماً محل إقامة ملوك الكنعانيين ، ولما هاجر إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ، نصب خيامه قرب بيت إيل .

(6) صافي صافي ، م . س . ، ص 45 .

الذي دار في منزل الشهيد خالد حيث كان موقفهم من الخلاف بأن هذا الرجل ليس خارج الصف الوطني وبأنه قدم خدمات جليلة للانتفاضة (1) .

وهي شخصية تستطيع تسخير كل الظروف لخدمة مصالحها ، فقد تضاعفت أموالها نتيجة منع دخول الأدوية الإسرائيلية إلى الضفة الغربية ، ولم تستطع قوة في المجتمع منع الظلم الواقع على شخصية المناضل خالد من قبل المعبي ، بل التقت مصالح جميع القوى والمؤسسات مع هذا البرجوازي ، ودعمت جميع مخططاته ، حتى ألصقت التهمة تماماً بالمناضل . ولم يكتف "المعبي " بذلك ولكنه يعود لارتداء الزي الوطني بعد استشهاده خالد ، ويعلن في الصحف عن تعهده بإعالة أسرة الشهيد وتعليم أطفاله ، وعندما تحاول زوجته نشر إعلان الجريدة نفسها ترفض فيه هذا العرض، فإن الجريدة ترفض ذلك في إشارة إلى تواطؤ الصحافة مع البرجوازي لما يخدم مصالحها .

شخصية فضاء : وتظهر دلالة الاسم في سياق الرواية " أردنا أن لا يوضع حد لخيااله إلا الجدران الصلبة القاتمة والمغلقة التجاوبف والتي يجب خلعها أو اختراقها " (2) وهو يمثل الجيل المقاوم القادم ، فنراه على حادثة سنه يبدي قدراً كبيراً من الوعي السياسي ويأتي ذلك نتيجة تفاعله اليومي مع السياسة ومفرداتها ، وعلى ذلك تظهر شخصيته كطفل غير عادي في حواراته المختلفة لا سيما في الحوار الذي دار مع والده " هل هناك جنود طيبون ؟ لماذا لا يعطونا هؤلاء الطيبون البيوت التي يعيشون فيها لأنها لنا وبنائها عمالنا؟! لماذا يبيعوننا الفواكه والخضار إذا كانت قد زرعت في أرضنا؟! لماذا وعدهم الرب بهذه الأرض ؟ وأين هي الأرض التي وعدنا ربنا بها " (3) أما شخصية المولود " خالد " فقد حمل اسم والده الشهيد في إشارة إلى التعلق بالحياة واستمرارها رغم كثافة الموت الذي يسببه الاحتلال ، والاسمان يعنيان الخلود والذي هو نقيض الفناء .

وتظهر أسماء شخصيات حقيقية مثل: (شامير) رئيس وزراء إسرائيل في فترة حرب الخليج و(يوني بن مناحم) وهو مراسل صحفي و (نحمان شاي) الناطق الإعلامي الإسرائيلي في الفترة نفسها ، وهذه الأسماء الواقعية وغيرها تجعل القارئ يعيش تفاصيل الواقع في تلك الفترة ، بأحداثها وتفاصيلها ومسميات شخوصها الذين تابعهم الناس بدقة بالغلة في مرحلة دقيقة من حياة هذا المجتمع .

(1) صافي صافي ، الحلم المسروق، الفصل الثاني ص 45.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 8 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 12 .

إن الشخصيات في هذه الرواية ومن خلال ممارساتها اليومية تبدو واقعية تماماً ، تعيش الواقع كما هو ، وتؤكد في مسارها على الحياة في تقدمها وانفلاتها من واقع الانكسارات والانتكاسات . " (1) .

• الزمان

يدور زمن هذه الرواية في فلك حرب الخليج الأولى، والسبب المعلن لهذه الحرب وهو دخول القوات العراقية إلى الكويت ، وقد تزامن ذلك مع أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى .

وقد وردت الإشارات الزمنية في الرواية لتعبر عن عدة معانٍ منها :

أ- معرفة الروائي بحقائق الحياة في الغربية " الكويت " حيث يقول " لم أكن أتصور بعد الاثنتي عشرة سنة التي عشتها في الكويت أن حياتي ستكون هكذا " (2) ، ليتحدث بعد ذلك عن أدق تفاصيل الحياة في تلك الغربية .

ب- الزمن الذي يرمز إلى فكرة معينة ، فنجد الطبيعة متعاطفة ومتفاعلة مع الأحداث ، فالأمطار تتحسب في الوقت الذي تحارب فيه بعض الأنظمة العربية إلى جانب الولايات المتحدة ضد العراق وتسقط الأمطار في جو احتفالي حين يولد ابن الشهيد خالد ، "غنوا للأمطار التي هطلت تلك الليلة ، غنوا لخالد " (3)

ت- الزمن الحقيقي ويصفه الروائي بدقة متناهية لتأثيره البالغ في بناء الحكمة الروائية ولتحقيق مبدأ الواقعية التي تتسجم مع الأحداث " وفي الساعات الأولى من السابع عشر من شهر كانون الثاني مرت سيارات الإطفاء لتعلن خبر بدء الحرب " (4) .

ث- انتقال الراوي للحديث عن شخصية أخرى كحديث نجوى على لسان زوجها الشهيد حيث تكررت عبارة " لو كنت حياً " (5) . حيث كانت عودة الشخصية للوراء " لكشف بعض العناصر الهامة وربما الاحتفاظ ببعض العناصر لكشفها في زمن لاحق . ولذلك كان

(1) فخري صالح ، في الرواية الفلسطينية ، ص 151 .

(2) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 1 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الثاني، ص32 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص30 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 19 .

التسلسل النصي للزمن في الرواية من تقديم وتأخير وحذف وغير ذلك من الأبنية الهامة فيها . (1) .

ج - الزمن النفسي الذي يرتبط بدواخل الشخصيات وحالاتها النفسية كما ورد على لسان نجوى على إثر تداعيات الأحداث بعد اتهام زوجها بذنب لم يقترفه " مرت الساعات ثقيلة في البيت ، ابتعدت عنه وأنا أفكر في الأمر بينما هو مستلق على المقعد دون حراك " (2) ونلاحظ أن الكاتب قد " اختار ثلاثة مفاصل متفرقة زمنياً ، غير أنها موحدة مختلطة على المستوى النفسي والفني ، ليعكس الوقائع المرعبة في جدليتها الدموية مع الذات المنشطية في جحيم الذكريات والتداعيات ، فكل ألم يستدعي من خلال تيار الوعي زميله القديم ، وينذر بألم قادم . " (3) .

• المكان

برزت الأمكنة التي تشير إلى التشتت واللجوء بشكل بارز في الرواية ، فقد ظهرت أسماء لبعض الأماكن في الكويت لكي تشير إلى الصعوبات الجمة التي يواجهها المغترب هناك فقد أشار إلى " سينما غرناطة " و " صاحبة عبد الله السالم " التي شبهها بالمستوطنات لصعوبة دخولها " إنها مثل المستوطنات هنا ، إذا دخلتها تجد كل الأنظار تتجه نحوك ويمكن أن تتعرض للضرب بسبب أو بدونه " (4) ويأتي ذكر نقطة " الرويشد " في الأردن للإشارة إلى استمرار رحلة المعاناة والتشرد فقد توفيت ابنته هناك على إثر الحمى التي أصابتها طوال الطريق ويأتي " مخيم قدورة " في رام الله ليؤدي نفس المعنى ، ولكنه على الرغم من اقتحامات الجنود المتتالية إلا أن العلاقات بين سكانه تمتاز بالحميمية والبساطة والثقة مقابل فتور العلاقات وحذرها في الغربية .

والمخيم يرمز إلى تشرد الفلسطيني في وطنه " الكلّ يعترف بأن هذه الحياة هنا ليست سوى معبر لحياة أخرى ، ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا ستكون " (5) ، وفي المخيم لا مكان للحياة الخاصة أو الأسرار فوسائل كشف الأسرار كثيرة . " ويبدو المكان عدائياً في هذه الرواية ، فتواجهه الشخوص الرئيسية بالسخط تارة وبالرغبة في التكيف تارة أخرى ، حيث يعاني شقيق الشهيد من قسوة الكويت ، فيفر بأسرته خوفاً من الموت ، ثم يجد نفسه كسجين في غرفته في مخيم " قدورة "

(1) سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص 50 .

(2) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 42 .

(3) سليمان الأزريقي ، فلسطين في الرواية الأردنية ، ص 79 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، الفصل الأول ، ص 15 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 7 .

(1) وتظهر صورة المخيم في مظهرين : الأول تتجلى فيه ملامح اليأس والشقاء وسوء الأحوال المعيشية، أما المظهر الثاني ، فيظهر المخيم على أنه موئل المناضلين ،وفضاء رحب لإعادة بناء الذات وتنامي الوعي المقاوم. (2) .

• الحكمة والصراع

تعتمد الحكمة في الرواية على تتابع الأحداث وتطورها ، ويظهر عنصر التشويق من خلال السرد الذي يظهر في الصفحة الأولى من الرواية من خلال المناجاة الداخلية للراوي عند حديثه عن أخيه الشهيد : " من المؤكد أنه شهيد " (3) ؛ ليثير فضول القارئ حول ملابس استشهاده لتتضح الصورة في الصفحات الأخيرة من الفصل الثاني .

وتقوم الحكمة على مجموعة من الصراعات ، حيث يبرز صراع الإنسان الداخلي بين آماله في الاستقرار والأمان وتحقيق الحد الأدنى من الحياة الكريمة له ولأسرته وبين شوقه وحنينه إلى وطنه وأهله ، ويظهر صراع المرأة مع مفاهيم المجتمع الموروثة حول دورها النضالي ويظهر الصراع الرئيس من خلال تناقض أفكار السلام والحوار التي حملها خالد وبين الآخر المحتل الذي يرفضها ويعمل على اعتقال أصحابها وقتلهم ، ويتفرع الصراع مع الآخر ليكشف عن الصراع الطبقي وما له من تأثير لا يقل خطورة عن تأثير الاحتلال نفسه . ويظهر الصراع بين القيم المختلفة فالإيثار والتضحية والأصالة التي يمثلها خالد تقابلها الطمع والاستغلال والتسلط من قبل الاحتلال والبرجوازي .

إن الحكمة في الرواية تعتمد على الترابط العضوي بين الأحداث والشخصيات فقد وصل التأزم إلى ذروته عند مقتل المناضل ، ليعود الإيقاع الروائي هادئاً ويكشف عن المصير الذي آلت إليه الشخصيات الأخرى التي ارتبطت بالشخصية الرئيسية . وقد جاءت الحلول واقعية ومنسجمة مع الواقع المؤلم الذي يعيشه الشعب الفلسطيني ؛ فما زالت يد البرجوازي هي الطولى في المجتمع ، كما أن الاحتلال ما زال يرفض فكرة السلام وانتهاج الحوار ويتمسك بسياسة العنف والقهر .

(1) إبراهيم العلم ، بناء الصورة في روايات صافي صافي ، مجلة كنعان ، العدد 79 ، 1996 ، ص 60 .

(2) نضال الصالح ، نشيد الزيتون ، قضية الأرض في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، ص 151 .

(3) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الأول ، ص 1 .

المبحث الثالث : عناصر العمل الأدبي في رواية " الصعود ثانية "

• شخصيات الرواية

شخصية ماجد: وتظهر كشخصية مركزية منذ بداية الرواية لترسم ملامح الضعف والتداعي النفسي الذي وصلت إليه هذه الشخصية بعد اعترافها على نشاطها السياسي ، وتبدأ ملامحها بالظهور أكثر وضوحاً من خلال علاقاتها المتشعبة مع الشخصيات الأخرى التي تدور في فلك هذه الشخصية وتعمل على تطويرها وتزويد من تفاعلها مع الأحداث .

وهي تمثل وعي المتقف لأزمته التي تفرض عليه أن يختار، إما التشاؤم والانعزال والهرب من مواجهة الواقع ، وإما المشاركة مع جموع الناس ، من أجل تغيير هذا الواقع واستعادة التوازن بين الإنسان والمجتمع .⁽¹⁾

إن هذه الشخصية المدورة تعتبر مثلاً للضعف الإنساني الذي يستمر في المقاومة والصراع من أجل الانتقال من مرحلة الضعف إلى القوة وما تواجهه في طريقها من تحديات تساعدنا على الكشف عن خبايا هذه النفس الإنسانية التي ترفض الضعف أصلاً ، ولا تستطيع الاستمرار في الحياة وهي تحمل صفات الرضوخ والتبعية ، ولكنها تعمل على خلق معالمها الخاصة لتكون الذات القوية المستقلة بعد ذلك .

وقد مرت هذه الشخصية بعدة مراحل قبل نضجها واتضح معالم قوتها ، حيث تظهر في البداية لتعبر عن " نموذج البطل المهزوم الذي يتفوه بما جادت له نفسه من صفات يلصقها بالأناس البارنوييه⁽²⁾ بتجلياتها الدونية " ⁽³⁾ حيث يرد على لسان ماجد " أنا الحقيير ، أنا الجبان ، أنا المذنب ، يجب أن أداس بالأقدام ، يجب أن أسحق سحقاً ، أن لا أستحق هذه الحياة " ⁽⁴⁾ وهو يمثل في هذه المرحلة من الضعف " الإنسان المقهور وهو ينوء بثقل العالم المرعب المليء بالظلام ويركز على ذاته المشتتة الضائعة في هذا العالم المرعب . " ⁽⁵⁾

"إن ماجداً بسبب إنسانيته المرهفة والرومانسية الظاهرة وبسبب ثقافته وفكره الواسع الأفق يجد أن باستطاعة الفرد والمجتمع التخفيف من الفجوة الموجودة بين التناقضات في الحياة ، وإذا

(1) فيحاء قاسم عبد الهادي ، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية ، ص 67 .

(2) وهي مأخوذة من كلمة (paranoia) وهو اضطراب نفسي يتميز بهذيان نتيجة الشعور بالاضطهاد أو العظمة أو الاثنتين معاً وتكون منتظمة وثابتة مع حساسية انفعالية واضحة انظر : نعيم الرفاعي ، الصحة النفسية دراسة في سيكولوجية التكيف ، ص 263 .

(3) محمد العطار ، الصعود ثانية...! النهار الثقافي ، 20 / 10 / 1994 ، ص 18 .

(4) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 2 .

(5) رنيفة شبلاق ، تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية ، ص 11 .

كانت هذه التناقضات ضرورة لوجود الحياة ذات العناصر المختلفة فإن التفاعل بين العناصر هو ضروري أيضاً لاستمرار الحياة " (1).

وتأخذ هذه الشخصية في سوق المبررات للسقوط والاعتراف حيث تبدأ بسرد أساليب التعذيب الجسدي وقد بدا هذا الأمر من أوهن الدوافع مقارنة بالأسباب النفسية وفي هذه المجال : " انهالت الضربات متتالية ، حاولت أن أعدها ، لم أستطع متابعتها ، صاح أن أرفع رجلي صحت متألماً ، صرخت ، آخ . صرخ : لا تصرخ يا كلب . زاغت عيناني ومالت رجلاي وانسكب دلو ماء على رجلي وجسدي " (2) ويبلغ الصراع النفسي ذروته عندما يعرف ماجد أن هماماً لم يعترف رغم كل ظروف التعذيب التي تعرّض لها . وقد مرّت هذه الشخصية بمرحلة الوحدة والعزلة في السجن بسبب قرار الرفاق بنبذها ، و أثارت هذه العزلة في نفسها التأمل والتدبر ومراجعة الذات لتمهّد لمرحلة أخرى في حياتها تمثلت بالمواجهة والتحدّي ، حيث تقرر الشخصية أن تواجه مخاوفها المتمثلة بالنظام وتتحداه بعد أن استفادت من مرحلة السجن فوجد ماجداً يصف شعوره في تلك اللحظة : " شعرت أنني انتصرت في أولى المعارك بعد سقوطي " (3)

وتأتي بعد ذلك مرحلة تصويب الخطأ حيث يقرر ماجد أن يتراجع عن إفادته وينكر معرفته برفيقه همام رغم تيقنه أن ذلك سيؤدي به إلى الاعتقال ثانية ، إلا أن ذلك سيكون مصدر سعادته لأنها الخطوة التي تعد بمثابة التطهر من أدران السقوط وتظهر هذه السعادة في استقبال رفاق النضال له في المرة الثانية : " جاء المعتقلون السياسيون من الغرف الأخرى وجلسنا معاً لقد عدت واحداً منهم ، الاحترام الذي أناله أشعر به كبيراً " (4) ،

وتأتي بعد ذلك مرحلة النضوج الذاتي والقدرة على اتخاذ الرأي المبني على الخبرة والتجربة والوعي ، حيث يتخذ ماجد قراره بالعودة إلى أرض الوطن رغم قرار حزبه بإرساله إلى بيروت ، ولم تكن هذه المعارضة عشوائية بل حملت موقف الشخصية من أن النضال والمواجهة يجب أن يكونا في الوطن الأم لذلك نجد أن رفاق ماجد قد احترمو قراره وباركوه . وقد تحوّل ماجد من بطل مهزوم إلى بطل إيجابي " ليشكل قدوة وممارسة ومفهوماً نضالياً وليكون واضح المعالم ومؤكداً انتماءه أمام محاولات فصم الانتماء . " (5)

(1) تحسين يقين ، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ،

2001 ، ص 69 .

(2) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 60 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 114 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 148 .

(5) حنا مينا ، هواجس في التجربة الروائية ، ص 91 .

وقد ظهرت عدة شخصيات تمثل الفكر اليساري الفلسطيني ، حيث اتخذها الروائي مطية لإظهار الجمود والأخطاء التي ترتكبها هذه الأحزاب في عملها السياسي ، حيث تتطرق إلى دستورها الأساسي الذي يهمل دور التنقيف ، كما تناول الاختراقات الأمنية لها والأولويات النضالية والتفرد في اتخاذ القرارات . وفي هذا الصدد تظهر شخصية همام التي تعتبر الحزب والنضال فوق كل العلاقات الإنسانية الأخرى ، وهو يمثل الدكتاتور الحزبي ويصفه ماجد بقوله: " نادراً ما شارك في الأحاديث الاجتماعية ، كان يهمل فقط أن يتحدث في الأمور السياسية ، كان يريد من الجميع أن يسيروا ويلعبوا ويضحكوا وفق خطة وضعها في رأسه تؤدي إلى خلق نماذج أخرى لشخصيته " (1) . بينما تظهر شخصية هشام الحزبية أقل استبداداً وتبدي قدراً أكبر من المرونة والإنسانية؛ لذلك نلاحظ أن ارتباط ماجد كان أكبر بهذه الشخصية حتى أن عودته إلى دوره النضالي كان من خلالها دون غيرها في إشارة رمزية أنها الأصلح لقيادة حزب نضالي وقد ورد ذلك على لسان ماجد بقوله: " سأنسى أن هناك سجيناً اسمه همام ، صورة الحزب في ذهني يجب أن أراها من خلال هشام وليس غيره . " (2) كما تظهر شخصية حاتم وهو المسؤول الأول عن رفاق الحزب ليرمز إلى حتمية السقوط والانحدار في حالة تجاهل الجانب الإنساني للمناضل والتركيز على الأهداف الحزبية فقط ، فهو مناضل قد صمد في غرف التحقيق حتى كاد أن يُشَل إلا أنه قد تعاون مع النظام مقابل إطلاق سراحه في النهاية بعد بداية ظهور أعراض ضعفه النفسي إبان زيارات أهله له في السجن ويصفه ماجد بقوله: " على أكتافه بنيت العديد من الخلايا في الوادي ، لقد كان أكثرهم ثقافة وتجربة ، لقد قابل العديد من فصائل المقاومة الأخرى ماذا حدث ! . " (3) وهي شخصية تمثل السقوط والضياع بعد ذوبانها في الحزب مقابل الصعود الذي حققته شخصية ماجد بعد أن نجحت في تكوين ذاتيتها .

وتظهر أسماء المحققين وهم هزّاع ، ومروان ، وسعيد وهي : أسماء عربية قريبة من الواقع ، وقد تم توظيفها لتشير إلى حالة التناقض بين الفكر العربي الرسمي وأحزابه السياسية .

شخصية مجاهد : يدل اسمها على انتمائها لحزب ديني يختلف في دستوره عن الحزب اليساري الذي انتمى إليه ماجد حيث هدف الروائي من توظيف هذه الشخصية إلى تكثيف النقد للأحزاب اليسارية ، وذلك بمقابلتها بطرف نقيض ، وقد عكست هذه الشخصية الجانب الإنساني في الفكر الإسلامي ، وتقدير هذا الفكر لما يعترى النفس البشرية من ضعف أو انحدار وذلك من خلال إبقاء باب التوبة مفتوحاً لمن يريد ذلك ، ويظهر هذا في قول مجاهد: " سيقبل الله توبة المؤمن حتى

(1) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 167.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 168.

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 149.

لو كان محملاً بالآثام كلها ، أبواب الله واسعة ، تستطيع أن تدخلها من أية جهة تريد وسيغفر الله لك إن شاء " (1) .

وتظهر شخصية المتعاون مع النظام وهو : حسين الذي ينتمي لأسرة متنفذة وبرجوازية حيث كان والده صديقاً لمدير المخابرات وقد أنقذه من محاولة لاغتياله وقد استطاعت هذه الشخصية عبر قيامها بالعديد من الأنشطة الحزبية أن تدعم موقفها داخل الحزب وان تتعرف على كافة الأعضاء والأنشطة وتؤدي (بالرفاق) إلى المعتقلات ؛ فنلاحظ أن توظيف هذه الشخصية قد جاء لدعم النقد الموجه إلى الأحزاب ، فعلى الرغم من انكشاف تعاون هذه الشخصية مع النظام إلا أن بقية الرفاق لم يعرفوا شيئاً عن ذلك ما أدى إلى اعتقالهم حيث يرد على لسان ماجد بعد أن عرف حقيقة الشخصية من هشام : " وددت لو أصرخ فيه ، هو يعرف عن عمالة حسين لكنه لم يخبرنا ، لقد كان هشام سبباً في اعتقالنا " (2) .

أما شخصية ريم : فقد أظهرت فداحة الثمن الذي يدفعه المناضل مقابل فكره السياسي ، وقد ظهرت شخصية رومانسية تطمح إلى تأسيس بيت مع زوج تحبه وتشاركه آماله وخيالاته ، ألا أن ماجداً كان يرى أن الوسيلة الأفضل للتقرب منها هو إقحامها في ساحة النضال ؛ لذلك فقد فشلت العلاقة بينهما وقد ورد على لسان ماجد " قلت في نفسي ستكون مشروعاً لمناضلة " (3) أما هي فتطلب منه أن يكتب لها عن عواطفه .

وقد جاءت علاقة همام بزوينب لإظهار خصوصية العلاقة وشذوذها في المفهوم الاجتماعي السائد ؛ فقد تزوجا دون حفل زفاف ورغماً عن أهلها ، وهي شخصية مثقفة تناقش في الأمور السياسية والحزبية وحتى الجنسية فقد ورد على لسانها مخاطبة ماجد : " الحب هو جزء من الجنس كيف ستلاطف امرأة تراها أول مرة ، ستقذف في داخلها وتنهض " (4) ورغم كل الصعوبات التي واجهتها زينب في المعتقل إلا أن هماماً والحزب قد تخليا عنها بعد إطلاق سراحها ، وهي شخصية إيجابية حيث لم توافق على قرار الحزب بتجميد عضويتها ولكنها رجعت إلى أهلها في الخليج مصممة على إقناع الحزب بوجهة نظرها .

وتظهر العديد من الشخصيات المحكومة بسبب جرائمها الجنائية : وذلك لإظهار صورة أكثر واقعية للسجن ، كما يظهر البعد الإنساني عند هذه الشخصيات ويبرز الوجه الآخر " للمجرم فتظهر شخصية أحمد الذي قتل والده بعد أن قام هذا الأخير باغتصاب زوجته ويصفه ماجد

(1) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 14.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 39.

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 99.

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 95.

بقوله : " لكنني وجدت أحمد أكثر إنسانية ونضجاً ، كان يهوى الغناء والعزف على أوتار العود كان يغني والحزن يتناثر من عينيه ، تقفز منها الدموع أحياناً ، لم اصدق أنه قاتل " (1) ، وقد انتهى به الأمر إلى إعدامه شنقاً .

وتظهر شخصية الحشاش : الذي يملك آراء تدل على وعيه فهو يعتبر نفسه سجيناً لأنه يتعاطى الحشيش كما يتعاطى ماجد السياسة والفكر فهو يقول : " الديمقراطية بالنسبة لي لا تعني فقط حق ممارسة الجماعات لحقوقها ، وإنما حق الفرد في ممارسة حقوقه أيضاً ، وأنا أريد ممارسة حقي في الأكل والشرب ، ديمقراطية الجماعات تسمح بقمع الأقلية لكن ما أفعله لا يجمع أحداً " (2) .
وقد أجرى الروائي مقارنة بين شخصية ماجد وشخصية رجب في رواية (شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف وذلك في عدة محاور منها : (3)

1- أن رجباً قد مات بسرعة لأنه اعتقد أنه يملك قدرات محدودة رغم تحمله الكثير من العذاب في أفبية التحقيق . أما ماجد فلم يمت حيث كان يعتقد أنه يملك قوة لا محدودة . (4)

2- أن رجباً قد مات وهو يحاول التكفير عن الخطأ الذي ارتكبه بتوقيعه استنكاراً ضد حزبه في الجرائد ، كذلك ماجد فهو يملك الرغبة بالاحتفاظ بصورة المناضل قبل موته .

3- لقد سافر رجب إلى الخارج فاكشف ذاته ، أما ماجد فسيكتشف ذاته أمام كل الناس .

4- لقد مات رجب في نهاية (شرق المتوسط) وهو يصارع ضعفه ومرضه أما ماجد فقد خرج من دائرة الضعف إلى القوة ، وانتصر الإنسان في (الصعود ثانياً) على جمود الفكر الحزبي .

• الزمان

تدور أحداث الرواية في أواخر السبعينيات، حيث ترد إشارة حول اغتيال السادات فقد ورد على لسان ماجد : "ظهيرة يوم سمعنا عن اغتيال السادات ، طار السجناء فرحاً ، غنوا ورقصوا وهتفوا في الساحات " (5) ويمتد الزمن إلى خروج القوات الفلسطينية من بيروت في بداية

(1) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 77.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 108.

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 88، 89.

(4) المكان نفسه .

(5) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 157 .

الثمانينيات . " ويضيف هذا الاختيار للأحداث التاريخية المعروفة طابعاً خاصاً على الرواية الواقعية يمتاز بالتماسك والترابط بين الحياة الشخصية الخاصة والحياة الخارجية العامة المتمثلة في هذه المعالم . " (1) .

أما الزمن الطاعي في الرواية فهو الزمن النفسي فهو يتحدث عن لحظات صموده في التحقيق " رغم مرور الساعات بطيئة ومملة دون القدرة على قتلها " (2) كما يرد الزمن النفسي في " تلك الليلة المشهودة والتي تعتبر بحق الحدث الأبرز في هذه الرواية ، ليلة القبض على ماجد ، نتعرف عليها بتفاصيلها من خلال وضع مثالي للهروب والتحليق عالياً ، فهذا هو ماجد يشكو الأرق ورغم كل محاولاته بتقلبه على الفراش فلا يجد للنوم سبيلاً ويأتينا الحدث من خلال وصف يزداد خفوتاً " (3) . وقد رافق الزمن النفسي الشخصية منذ سقوطها وحتى استطاعت أن تنهض من جديد ، حيث تتكرر عبارة " مرت الساعات بطيئة " لتعبر عن القلق والتحفز لدى الشخصية خاصة في مواقف الانتظار ، فقد تكررت هذه العبارات أو ما يحمل معناها في ص 52 ، 63 ، 171 ، ونراه يشير إلى الزمن بعد انتصاره على ضعفه بقوله " حلقت في الأعالي وأنا أسمع كلمة رفيق ، مرّ زمن طويل دون أن أسمعها ، ابتسمت شعرت بنشوة الانتصار " (4) .

وقد تتبأ الروائي بأحداث مستقبلية تناولها كنتيجة طبيعية لمنطق التطور والتراكم ، حيث ورد على لسان ماجد : " إننا الآن نتحدث على أن مرحلة التحرر الوطني واسعة جداً ، تضم كلّ الناس ما عدا العملاء ، أما بعد التحرير فيحدث اصطفاك جديد ، سأكون في مواجهة مجاهد ، كل القوى تريد الاستفراد بالسلطة دون الآخرين ، الذي يصل أولاً يجمع الآخرين ، الذي يصل يعيش على حساب الآخرين " (5) . ونجد أنفسنا بعد ثلاث عشرة سنة من كتابة هذه الرواية أمام لوحة قاتمة للحياة السياسية الفلسطينية ، وهي ما نبّه إليها الروائي حيث الاقتتال والانقسام الداخلي اثر أحداث غزة حيث أمسى المكان الذي وحّد الغايات والأعمال لا يتسع لأبناء الوطن الواحد .

(1) سيزا قاسم ، بناء الرواية ، ص 68 .

(2) صافي صافي ، م . س . ، ص 52 .

(3) محمد العطار ، الصعود ثانية...! ، النهار الثقافي ، 20 / 10 / 1994 ، ص 18 .

(4) تحسين يقين ، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ، 2001 ، ص 72 .

(5) صافي صافي ، م . س . ، ص 103 .

• المكان

وقد جاءت صورة الأماكن في الرواية عامة لتلائم ملامح أية مدينة عربية ، فقد تم اختيار أسماء عامة للأماكن ليُشعر القارئ مدى الهوية بين النظام السياسي العربي وأحزابه فيشعر أنه في سجن كبير . . . ويتمثل ذلك مع رواية " شرق المتوسط " لنفس الغاية حيث ورد وصف المكان فيها على لسان رجب : " وأنت يا بلاد الشاطئ الشرقي ، بدءاً من ضفاف البحر ، وحتى أعماق الصحراء ، لماذا لا تتركين بشرك يصلون إلى سن الشيخوخة ؟ " (1) بيد أن الزمان فيها كان روائياً منفصلاً عن الزمان الخارجي فقد ورد على لسان رجب : " الآن وأنا أنتظر 22 كانون الأول ، موعد دخولي إلى المستشفى ، أصرخ من أعماقي صرخات ملعونة يملؤها الوباء . " (2) .

وترد أسماء بعض الأماكن في (الصعود ثانياً) مثل : الصحراء الشرقية ، و الجبل الشمالي ، والجبل الجنوبي ، وجبل النبع ، وذلك في الدولة التي أشار إليها الروائي باسم الوادي وقد حملت هذه الملامح الجغرافية أيضاً معنى الصعود والنزول لينسجم المكان والشخصيات مع فكرة الرواية القائلة بفكرة الجمع بين النقااض . كما يرد اسم شارع الحرية كنوع من السخرية حيث يرد في سياق مطاردة سيارة الأمن لماجد ليكتشف لاحقاً أن المحقق الذي يقودها هو نفسه الذي أشرف على تعذيبه . (3) وهو نوع من السخرية لإظهار التناقض بين الشكل الخارجي للنظام وجوهر أفعاله التي تصادر الفكر وتقيّد الحريات .

كما يرد المكان الذي يعطي دلالة نفسية للشخصية المحورية فنرى ماجداً عند خروجه من السجن يتحدث عن المكان بشكل يدل على الفوضى والضبابية التي يشعر بها : " عند الجسر كانت الأتربة والغبار تختلط مع البضائع المعروضة ، أحذية قديمة ، ثياب وصوت أبواق السيارات يعلو فوق كل صوت " (4) بينما تظهر الأمكنة جميلة وواضحة عندما يتخذ قراره بتحدي السلطة ونفي إفادته واعترافه تحت التعذيب " شارع الميدان أصبح بالنسبة لي شيئاً آخر ، صرت أحبه ، أتمشى في الشارع وأنا أطلّ على البيوت الفقيرة المبنية باللبن والمغطاة بألواح الزينكو . " (5) .

" السجن " : وهو المكان الأبرز في الرواية ، وقد ساهم في بناء الأحداث بشكل بارز ؛ فالسجن هو مكان التعذيب وامتهان إنسانية الفرد مقابل أفكاره السياسية ، وهو المكان الذي تنطلق

(1) عبد الرحمن منيف ، رواية " شرق المتوسط " ، ص 196 .

(2) عبد الرحمن منيف ، م . ن . ، ص 197 .

(3) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 42 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 117 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 159 .

من خلاله الانتقادات للأحزاب السياسية ، كما رسم الروائي صورة السجن ليكون نموذجاً مصغراً عن السجن الأكبر الذي يعيشه المواطن العربي ، فوصف مرافقه كالمساحات الرياضية وأماكن العمل " كالمخيمة ، والدكان ، والمقهى ، والمسرح " ليعبر عن التناقضات التي يعيشها هذا المواطن بما في ذلك الصراع الطبقي في المجتمع فقد ورد على لسان ماجد : " هل هناك سجن للأغنياء وحدهم ؟ نعم ، للأغنياء وأصحاب الجاه " (1) وقد " أبدع الكاتب في التعبير عن السجن بأسلوبين يرتبطان مع الحالة الوجدانية التي كان يعيشها . ففي المرة الأولى لم يشعر به كما ينبغي للسجين لأنه أصلاً كان أسير أفكاره وأسير اعترافه ، أما في المرة الثانية فهو أسير حقيقي .. من ناحية جسدية ، وهنا نعرف أن السجن إما أن يكون سجيناً للنفس وإما أن يكون سجيناً للجسد وكلاهما مر لكن لن تستطيع أي قوة سجن الجسد والنفس معاً " (2) .

أما " بيروت " : فقد عبّرت عن المكان المحوري الذي يصدر الفكر الثوري والثوار ، وهو المكان الذي تجتمع فيه القيادات الحزبية وتتخذ القرارات المصيرية ؛ (3) لذلك فهو يستحق التضحيات الجسام التي بذلت من أجل الدفاع عنه أمام الاجتياح الإسرائيلي له ، ولكنه في نهاية المطاف بلد له إمكاناته وطاقاته التي يمكن أن تنفذ ، وهو ما حصل حيث انتهى ذلك العدوان بانسحاب القوات الفلسطينية منه ، وقد التقت فكرة سقوط المكان مع سقوط الشخصية لتتفي وجود فكرة الإنسان أو المكان الأسطورة ، وقد ورد ما يحمل هذا المعنى على لسان ماجد بعد سقوط قلعة الشقيف " فوجئ الجميع بسقوط قلعة الشقيف التي كتبت عنها الأساطير من قبل ، سقطت الأساطير واحدة تلو الأخرى . " أما " الجسر " وهو الفاصل الحدودي بين فلسطين والأردن فقد كان الكلمة الأخيرة في الرواية حيث ورد على لسان ماجد " ودّعت الأقارب وكنت برفقة والدي على الجسر " (4) ، وذلك في إشارة واضحة إلى أن الوطن هو الملاذ الأخير وأن قرار العودة هو القرار الصائب ؛ فالوطن هو مكان النضال حيث التناقض فيه واضح لا لبس فيه .

(1) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 50 .

(2) تحسين يقين ، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ، 2001 ، ص 70 .

(3) صافي صافي ، م . س . ، ص 169 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 177 .

• الحكمة والصراع

لقد اعتمدت الرواية في بنائها الفني على ظاهرة استدعاء الماضي لذلك فقد جاءت الحكمة فيها عضوية، وترتبط بتطور الأحداث التي تأتي " من قلب دائرة الفعل الدرامي بل تتسلل على شكل إيضاعات خافتة من الباب الخلفي للذاكرة حيث تشكل عدم القدرة على معايشة الزمان والمكان الراهن قوة الدفع لحضور الحدث ".⁽¹⁾ وقد ساهم الصراع المادي والمعنوي في تشكيل ملامح الحكمة الروائية وذلك من خلال التفاعل بين تناقضات مختلفة منها : التناقض بين قيم الحرية والتطور وبين قيم الاستبداد والتخلف ، وصراع الإنسان مع ضعفه وسعيه الدؤوب للانتصار على هذا الضعف والخروج منتصراً من هذا الصراع ، ونجد هذا المفهوم واضحاً في حوار ماجد الداخلي : " لماذا لا يمكن الجمع بين النقااض رغم أن الحياة تجمع بينها ، إن الحياة أكثر اتساعاً مما نحدده لأنفسنا ".⁽²⁾ كذلك نجد الصراع بين فكرين يمثلان الجمود والمثالية من خلال الشخصيات الحزبية مقابل المرونة والإنسانية من خلال شخصية ماجد لتكون الغلبة للفكر الثاني الذي يوافق المنطق والطبيعة البشرية .

وقد ظهر التشويق منذ بداية الرواية وذلك من خلال السيل الجارف من الشتائم التي أطلقتها الشخصية المحورية على نفسها لتجذب القارئ إلى النص ليتعرف على سبب هذا الجلد القاسي للذات ، وقد تصاعد التوتر الدرامي في عدة مواضع منها : المواضع التي تتعلق بالتعذيب ، ومواجهة الرفاق بالاعتراف ، وموقف ماجد في المحكمة حين قرر سحب اعترافه ، وقد ساهمت هذه المواضع في زيادة تماسك الحكمة والتواصل الشعوري بين القارئ والنص .

(1) محمد العطار ، الصعود ثانية...! ، النهار الثقافي ، 20 / 10 / 1994 ، ص 18.

(2) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 103 .

المبحث الرابع : عناصر العمل الأدبي في رواية " اليسيرة "

• شخصيات الرواية :

تنتمي هذه الرواية للشكل الذي تلعب فيه الشخصيات دور البطولة الجماعية، وإن كانت قد برزت بعض الشخصيات في بعض مواضع الرواية فقد كان ذلك لتعزيز دور الجماعة في بناء النسيج الروائي ؛ فالروح الجمعية هي المسيطرة على جو الحديث عن الشخصيات . وبما أن الرواية قد أعتقت نفسها من قيد الزمن الحقيقي فقد كان لزاماً أن تعتق نفسها من قيد المعقول والمقبول منطقياً واجتماعياً ومن هنا نرى أن بعض شخصياتها قد رسمت لتمثل بعدين ، الأول: يحمل صفات الإنسان العادي الذي ينتمي لبيئته وينهج سلوك أهلها والثاني: يحمل بعداً خارقاً خارجاً عن مألوف المجتمع ومتوقفاً على قدرات أهله ؛ وقد جاء ذلك ليتوافق مع أسطورية (اليسيرة) المكان الذي شهد بداية الخلق ، فمن الطبيعي أن تكون خصوبة الخيال الشعبي المتوفرة عند أهل (اليسيرة) والمتوارثة عبر الأجيال قد جعلتها أرضاً مهياًة لتستقبل الأساطير والخرافات والكثير من الوهم ومن هذه الشخصيات :

شخصية أبي عمي : وتظهر هذه الشخصية في بداية الرواية وهي تبحث عن أصلها لنستدل من خلالها على اهتمام أهل " اليسيرة " بأنسابهم وجذورهم ، ونجده ينحدر من قبيلة " خزاعة " التي انتقلت إلى " اليسيرة " إثر خراب سدّ مأرب ، وهي نفس القبيلة التي ينتمي إليها حاتم الطائي المعروف بكرمه ، ومن أجل تبرير خوارق أبي عمي فإنه يشير إلى أن نسباً قد حدث مع أحفاد النبي عليه السلام وبعد هذه العراقة التاريخية والدينية للشخصية فإنها تصبح مؤهلة لتتبوأ مركزاً مهماً في القرية ، وتصبح تصرفاتها الشاذة مبررة في عقلية مجتمع تلحّ عليه الأسطورة والوهم في جميع تصرفاته ، كما أصبحت ولادته تمثل معجزة لأهل القرية حيث توفيت أمه قبيل ولادته فخرج الحيّ من الميت .

أما زمن ولادته فقد ولد أيام الثلجة الكبيرة - وهي السنة التي طرد فيها الأتراك وجيء بالإنجليز بدلاً منهم وسميت سنة النحس وفي ذلك إشارة أخرى وهي اعتقاد أهل اليسيرة بأن خروج الطبيعة عن مألوفها ما هو إلا إشارة من عالم الغيب وهي نذير فرح أو ترح . وقد مهدت وفاة والدة أبي عمي ودخوله إلى جميع بيوت أهل اليسيرة ليكون المؤلف بين قلوبهم ، وقد استغل المختار هذا الأمر في حل مشكلات أهل القرية " فأبو عمي جاء ووجد البلدة بكل تناقضاتها وتماسكها " (1) وكان لارتباط أبي عمي و فظيعة التي ساهم أهل اليسيرة في رسم صورتها الخارقة أيضاً سبباً في تلازم هاتين الشخصيتين حتى نهاية الرواية . أما تسمية أبي عمي فهي تعطي انطباعاً بالبساطة والسذاجة فهي شخصية لا تسعى للزعامة أو التميز .

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 15 .

شخصية فظيعة :

وقد ساهم أهل اليسيرة في إضفاء صفة القدسية عليها بسبب استثنائية الظروف التي أحاطت بولادتها ؛ فقد ولدت في نفس السنة التي ولد بها أبو عمي (سنة النحس) بل وفي نفس اليوم ، أما قدراتها فقد ظهرت وهي ما تزال في بطن أمها ؛ فهي تستطيع الإجابة عن أسئلة الخلق التي تتعلق بالمستقبل ، وهي من صنع الله كما تقول وقد تكونت في العشر الأواخر من رمضان ما قبل ساعات السحر ، وقد تنبأت بالدمار الذي سيحل باليسيرة وأهلها بعد احتلال الإنجليز لها ما زاد من سخط أهل اليسيرة على الشخصية ، " وانقسمت البلدة إلى رافض لكل ما قالته ، واعتبار ما قيل مجرد خزعبلات ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حين ادّعوا بأنها شيطانة ابنة شيطانة ، أما الباقون فقد صدقوها وخافوها " (1)، وحاوّل بعض الناس قتلها في ليلة ماطرة ، فاعتقدوا أن وميض البرق وانهمار المطر واهتزاز الأرض من شدة الرعد هو حماية من السماء لها فقوي شأنها وتعززت مكانتها الروحية ، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على استعداد أهل اليسيرة الفكري بل ورغبتهم في ردّ الأمور إلى قوى غيبية لا تخضع لسلطة العقل في تبرير ما يلّمّ بهم من أحداث وأن سكون الطبيعة وهيجانها ما هو إلا لغة قد تعلم أهل " اليسيرة " أجدياتها وتوارثوها جيلاً بعد جيل ، فلحظة الولادة لكل من أبي عمي و فظيعة قد شهدت جواً ماطرأً حيث : " ارتفعت المياه فوق الجسر الموصل إلى الشارع الرئيس ، وانتشرت إشاعة تقول بأن الوادي قد جرّ معه أطفالاً " (2) وسقطت الثلوج وغطت " اليسيرة " لتتم الولادة في نفس اللحظة التي يؤذن فيها لصلاة الظهر . وقد سميت فظيعة لفضاعة الظروف التي ولدت فيها .

ونلاحظ أن شخصية أبي عمي و فظيعة تتماثلان منذ اللحظة الأولى لتكوينهما، فقد ولدتا في ظروف تتمّ عن عدم الرضا والراحة من قبل أهل اليسيرة. وبعد أن أسبغ أهل اليسيرة عليهما صفة القداسة تهيأت لهما الظروف في لعب دور رئيس في حياة الناس وكان ذلك منذ طفولتهما ، فقد بدأ الناس يأتونهم زرافات ليقرأوا لهم حظهم ومستقبلهم من خلال قراءة عيون الأطفال وكان ذلك مما زاد من قدر اليسيرة بين القرى المجاورة وفي إشارة إلى إصرار الناس على خلق الأسطورة واتباع الوهم ، فقد أشار الراوي إلى اختراع الناس للأسباب التي تدحض عادية هاذين الطفلين أمام من يدّعي ذلك " فاخترعوا أسباباً متعددة منها عدم الطهارة والوضوء ، والصلاة لله تعالى ، أو عدم تسديد دين سابق أو الإساءة لأحد ما " (3) ، وقد " أنشأ أهل اليسيرة الكثير من الحكايات التي تخلع

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 12 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 12 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 13 .

على الطفلين الصفة الطقسية ، ووصل الأمر بهؤلاء إلى الاندماج الفكري والإيمان بما يسمونه . رغم أن الطفلين كانا عاديين . لكن الخيال الشعبي أسبغ عليهما ما لا يوجد فيهما . " (1) .

وقد تقمصت شخصية أبي عمي وفضيحة الدور المرسوم لهما ولعبا دوراً إيجابياً في الدفاع عن اليسيرة ووحدها وحل مشاكلها حين كادت القرية أن تنقسم على نفسها على إثر الخلاف الحاد الذي نشب بين المختار والطبع حيث ترأساً مسيرة قرعت فيها الطبول والدفوف ورفعت الأعلام - وهي رموز دينية لها احترامها عند أهل اليسيرة (2) ومن الأدوار الإيجابية التي قاما بها تقديم العلاج للطبع عندما أصيب في قدمه أثناء مواجهته للإنجليز ؛ حيث قدما له العلاج ورقياه إلى أن استعاد صحته .

وقد تغيرت نظرة الناس إلى هاتين الشخصيتين وغيرهما بعد هزيمة عام 1948 وكان الهزيمة التي أحدثت هزة إيجابية في الوعي دعتهم إلى مراجعة ذواتهم وطرق تفكيرهم . " فقد أحدثت نكبة عام 1948 أثراً على وعي الشخصيات ، وامتدت الهزيمة إلى أولئك الممتلكين لبعض الميزات السياسية أو الأسطورية أو الدينية أو غير ذلك ، وقد عبّر الكاتب هنا عن تراجع التقديس أو الاحترام لهؤلاء عن طريق جعل الناس ينظرون إليهم نظرة عادية " (3) ، ولكن هذا التغيير لم يكن عميقاً فعلى الرغم من انتزاع صفة القداسة عنهما إلا أن فظيعة قد لجأت إلى قراءة الكف والطلع مما يشير إلى استمرارية شعورها بالتفوق وامتلاك قدرات غير طبيعية أما استمرار الناس في المجيء إليها لقراءة طالعهم فيدل على حاجتهم المستمرة إلى مثل هذه النماذج من البشر

شخصية أم فظيعة: وقد أخذت مكانتها في القرية بسبب عملها كقابلة ، ما أتاح لها فرصة الدخول إلى كل بيوت اليسيرة ، ومعرفة أدق أسرارها ، ما أكسبها صفة القوة وجعل شخصيات مركزية في القرية تخشاها وتتجنب عداوتها كالمختار " لهذا السبب ظلّ الناس يكرهونها ويحبونها معاً ، فهي التي تأتي بالأخبار وهي التي تنقل الأخبار " (4) وقد مهدت أم فظيعة فنيّاً لولادة شخصية (خارقة) فقد حرمت الإنجاب فترة طويلة ولكنها " وفي إحدى ليالي رمضان وفي السابع والعشرين منه ، خرجت ووقفت فوق بيتها وكشفت عن صدرها وراحت تدعو ربها أن يرزقها بأي شيء ... وبينما هي كذلك إذا بنور ينبعث فجأة من السماء " (5) ، لذلك فقد غدت أم فظيعة " بمقام

(1) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي ، صحيفة الحياة الجديدة

العدد 677 ، 6 / 7 / 1997 ، ص 15 .

(2) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 45 .

(3) تحسين يقين ، م . س . ، ص 15

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 6 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 7 .

المقدسة لدى أهل اليسيرة ويتقبلون أعمالها وأقوالها على حدّ سواء. " (1)، وبعد ولادة " فظيعة " تختفي الشخصية في غمرة الأحداث المتلاحقة " لتخرج علينا في الصفحات الأخيرة من الرواية تتمسك بيسيرتها وتبقى في المكان وتمارس وجودها الطبيعي. " (2) .

شخصية عبد النبي : وهي شخصية لها بعدها الديني ، وتظهر عليها بعض ملامح الصوفية من حيث لجوئها إلى العزلة من أجل التعبد ؛ فقد كان يعقد حلقات الذكر في زاويته فأخرجه أهل قريته منها لاعتقادهم أن في ذلك محاولة لإخراج الناس عن دينهم فلجأ إلى اليسيرة واستقبله أهلها العطشى إلى طقوسه ورموزه الدينية المكونة من الأعلام والطبول والدفوف ، وقد ظهر لهم على أنه " ملمح الروحانيات أو الملجأ الروحي لأهل اليسيرة عندما تدهمهم الأحداث وتلفحهم الفواحش ومساوئ الأمور ليجدوا لديه منفساً ينقذهم من تأنيب الضمير وليشعروا بالأمان الرباني . " (3) .

وقد كانت هذه الشخصية سلبية من حيث تأثيرها على حياة الناس وتفكيرهم إذ وقفت موقف المحايد في فترة عاصفة بالأحداث المصيرية فهو لم يلجأ " إلى إصدار الفتاوي في البلدة ليغير نمط حياتهم " (4) " ومن هنا نرى أن عمل الشيخ عبد النبي يقتصر في البداية على الأساطير والتخيلات ، وأصبح فيما بعد ينضج خلقياً فلا يشاركهم أعراسهم الفاضحة ... ثم أصبح صاحب عقيدة يدعوهم لاتباع الدين حيث هو في عزلة عن الآخرين وهذا يبين موقعه الاستسلامي من الدنيا والسياسة والمجتمع " (5)

وقد تأثرت مكانة الشيخ " عبد النبي " بعد الهزيمة فهو " الذي كان يعتبر مخلصاً للناس من آلامهم ومشاكلهم لم يستطع حماية الطبول والأعلام ، ضاعت العدة وضاعت هوية اليسيرة " (6) أما **عجيز :** فقد ظهر نموذجاً للطفل الذي يرث اعتقادات ومفاهيم قريته منذ نعومة أظفاره فقد انتدبه المختار كي يذهب إلى مجلس أبي عمي و فظيعة بعد أن ساوم والده وقدم له قطعة أرض من أجل أن يرشدها إلى مكان فرسه البيضاء المفقودة ويخرج عجي من عندهما منهار القوى - شأنه في ذلك شأن بقية الأطفال الذين تعرضوا لنفس الموقف - وكأنه لم يحتمل الموقف خاصة وأن

(1) نادي ساري الديك، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص162

(2) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي ، صحيفة الحياة الجديدة

العدد 677 ، الأحد ، 6 / 7 / 1997 ، ص 15 .

(3) نادي ساري الديك ، م . س . ، ص 163 .

(4) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص23 .

(5) نادي ساري الديك م . س . ، ص 163 .

(6) صافي صافي ، م . س . ، ص 74 .

ذاكرته تحمل الكثير حول القدرات الخارقة للطفلين ، فيصاب بحالة من الجنون ويلتقي مع الشيخ عبد النبي ويشاركه طقوسه الصوفية ويعزل نفسه عن أهل قريته ، وأخطائهم ومعاصيهم فيحيطه أهل اليسيرة بهالة من القداسة ويسمون الجبل الذي يقيم فيه باسمه .

شخصية الطبع : وهي الشخصية التي تمثل القوة المطلقة التي لا تخضع لمنطق التفكير وقد حصل بقوة عضلاته على مركزه في اليسيرة : " يستطيع عمل كل شيء بعضلاته لكنه لا يستطيع أن يربي أطفالاً أو زوجة . " (1) وهو لا يخشى أحداً ولا يقرّ بسلطة أحدٍ عليه ؛ فقد قام بضرب المختار ومن معه عندما حاول وضع حدٍ لتمرده ونفوذه ، وهو لا يعترف بالضوابط الأخلاقية في قريته وإنما ينتقل من عشيقته لأخرى دون أن يحاسبه أحد في إشارة إلى الإذعان الناجم عن الرهبة أمام منطق القوة .

وقد لعب دوراً إيجابياً حينما قام بقتل ثلاثة من الجنود الإنجليز، حيث علا شأنه وتوطدت مكانته ليصبح رمزاً للمقاومة: " قال الطبع والذي كان ثائراً وصديقاً لحسن سلامة وعبد القادر الحسيني، إذ احتفظ بصورتيهما في جيبه حتى مماته، قال بأن الاشتراك في الثورة لم يكن بشكل تنظيم فردي، بل كان يجري جماعياً." (2) .

كما لعب الطبع دوراً بارزاً في تنظيم الأفراد وشنّ الهجمات ضد الاحتلال الإنجليزي وجمع الأموال للثورة ولكنه سرعان ما يتحوّل إلى قوة ليس لها غاية ولا ضابط سوى مصلحتها الشخصية " وتحوّل الطبع من وحش كاسر ضد الإنجليز إلى وحش كاسرٍ ضد الناس والإنجليز معاً." (3) ، فقد أصبح يستولي على الأراضي لصالحه وأصبح القامع للناس بدل أن يحمي وطنه من الأعراب حيث لقبه الناس فيما بعد بقابض الأرواح. ومن هنا نرى أن شخصية الطبع " تشكل ملامح الخلاف والتناقض حيث يتعامل معه الناس تعاملاً متناقضاً فمرة يجعلونه عربيداً زانياً ومرة أخرى يرفعون من مقامه ويجعلونه قائداً رمزاً، وكأنه يقول أن شخصية الطبع تتلاءم مع التقلبات السياسية وتتأقلم معها" (4) كما أن شخصية الطبع " كانت مجالاً للشك في الثوار الذين خلطوا ما بين النضال وأشياء أخرى لذلك استخدم الراوي هذه الشخصية لإحداث كسرٍ ما ، لكنّ الذاكرة الشعبية أصلاً كسرت ما

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 46 .

(2) صافي صافي ، م . ن ، ص 48 .

(3) صافي صافي ، م . ن ، ص 51 .

(4) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 164 .

خلعته من قدسية على الثوار في القديم والحديث وكأن النكبة قد ساهمت في زيادة الوعي السياسي عند الأفراد . " (1) .

شخصية المختار الحاج مسعود: وهي تمثل السلطة الشرعية في القرية ، وتشترك مع شخصية " الطبع " في استغلال الظروف لصالحها ، ولا تدخر جهداً في سبيل دعم نفوذها ؛ فالمصلحة الشخصية هي المحرك الأساسي لجميع تصرفاتها ، كما أنها تعمد إلى احتواء القوى التي تهدد سلطتها إذا ما فشلت في القضاء عليها ، فتنقرب منها وتبتعد عن الصدام معها وهو ما حصل مع الشيخ عبد النبي و عجز فقد أدرك تأثيرهما الديني وآثر البقاء محايداً أمام هذه التأثير . كما أنه انحنى أمام قوة الطبع بعد أن رجحت كفته في الخلاف الذي نشب بينهما وقال الطبع مثل ابني ، لكنه ابن عاق ، ويجب أن يأتي ويسلم علي وأنا راضٍ عنه . " (2) .

وهي شخصية لا تكثر بالمصلحة العامة أو الضوابط الوطنية ، حيث تقوم بعقد الصفقات وتقيم المصالح التجارية مع المستوطن (بوكاج) وتلتقي به خارج القرية لدرجة أن اسميهما قد ارتبط ب (السحجة) في الأعراس في إشارة إلى نقد المجتمع لهذا التلازم فقد ورد على لسان أبو عجز :

كوك يا بوكاج مدّ ايدك تركناها

وأبو مسعود على السطح يحزر شو معناها

كوك يا بوكاج مد ايدك قطعناها

قروشك ما تنفعنا وطريقك ما سلكتنا . (3) .

كما أنها شخصية متلونة حسب الظروف التي تخدم مصلحتها ؛ فبعد الهزيمة وتشرد أهل اليسيرة ولجؤهم إلى قرية (بيت الله) يغيّر المختار جلده بما يلائم المرحلة الجديدة ، ويؤيد الواوي الذي بدأت تظهر عليه ملامح السلطة والنفوذ في خلق الإشاعات التي تشكك في البطولات والتضحيات الثورية كيلا تصبح أسطورة ويتضح ذلك في قول الراوي: " رغم كل البطولات التي قام بها الطبع غير أن هناك تقولات حول أصل تسميته ، ونكاد نلمس أن هذه المحاولات هدفها التشكيك بشخصه وبالأعمال التي قام بها ، لئلا يصبح أسطورة للأجيال القادمة وجاءت هذه التقولات من الواوي بشكل خاص ، وأيده في ذلك الحاج مسعود " (4) .

(1) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة العدد

677 ، الأحد ، 6 / 7 / 1997 ، ص15.

(2) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص47 .

(3) صافي صافي ، م . ن ، ص 37 .

(4) صافي صافي ، م . ن ، ص93 .

شخصية الواوي: وهي ترسم ملامح الجاسوس وتبدأ بوصف استعداداته السلوكي لمثل هذا الدور كما أنها تمثل الفئة التي وجدت في قوة الاحتلال وسيلة لاستعادة أمجاد عائلاتها الضائعة والأخذ بثارات قديمة ، أو بناء مرتبة اجتماعية مرموقة طالما طمحت في الوصول إليها لتبدأ بعد ذلك بيث سموم حقدتها الدفين على الناس والمجتمع . وقد رسم الكاتب ملامح هذه الشخصية الخلقية والخلقية فقد ورد في وصفه : " كان مربع القامة ، أبيض البشرة ، منخفض الرأس يتطلع إلى الناس من تحت إلى تحت ثم يصنع ابتسامة خبيثة ، قيل أنه يلاحق النساء في الطوابين " (1) .

وهو من أسرة كانت قد فقدت أموالها في إقامة الولائم والمناسبات من أجل تدعيم مركزها وقد سطت أسرة المختار على أراضيهم لتفوقهم في العدد والقوة ومن هنا أصبحت الشخصية ترصد الظروف التي تستطيع من خلالها تحصيل حقها المغتصب.

وقد بدأ الواوي عمله في (الكامب) الإنجليزي ثم عمل في المحاجر وحين رفض أهل اليسيرة بيع الحجارة للمستوطنين اتفق معهم كي يأتوا ليأخذوها سراً . وفي إشارة إلى دور الجواسيس الفاعل في تدعيم سلطة الاحتلال، وبسط نفوذه وتمير أفكاره، فقد كان الواوي أول من ساهم في كشف موقع اليسيرة القديم حيث كان يعمل مع البعثة الأجنبية التي جاءت للتتقيب وهو موقع يساهم في تدعيم فكرة الحق التاريخي لليهود في فلسطين. (2) .

وبعد الاحتلال أصبحت الفرصة متاحة لهذه الشخصية أن تصول وتجول، وتتحكم في مصائر الخلق وثرواتهم؛ فقد استغل قلة حيلتهم في الوصول إلى قراهم لجلب أموالهم منها ليقوم بهذا الدور فيأخذ منها ما يشاء ويعطي ما يشاء : " كان يذهب إلى قرى أخرى كان أصحابها قد هجروها ، ويروح يعبث في محتويات بيوتها باحثاً عما هو ثمين ويسهل حمله ، ويقولون بأنه جمع أموالاً كثيرة " (3) .

• المكان

تظهر اليسيرة وهي " قرية عربية تقع ما بين السهل والجبل من أراضي فلسطين عام 1948 ، وهي قرية كبيرة نسبياً بحيث تصلح أن تكون أرضاً خصبة للقص ، وليس شرطاً أن تكون

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 34 .

(2) صافي صافي ، م . ن ، ص 80 .

(3) صافي صافي ، م . ن ، ص 92 .

هناك قرية بهذا الاسم ؛ لأن الراوي هنا ذكر المكان وقصد من يحلّون فيه مؤثراً جعل القرية تنطبق على أكثر من مكان خاص . " (1) .

يلعب المكان دور البطولة في هذه الرواية ؛ فهو يستدعي الأحداث التي ارتبطت به سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وقد شكلت اليسيرة - التي تمثل القرية الفلسطينية - نقطة الانطلاق نحو عالم من الأمكنة في تسلسل يبدو أحياناً قد انفلت من عقال الزمن وقد ورد ذكر المكان (يافا) في حادثة قتل عابد المختار الظالم الذي عاث في مجتمع اليسيرة فساداً في إشارة إلى التخلص من الظلم وأهله خارج الحدود الجغرافية لقرية اليسيرة .

وتظهر أهمية المكان من خلال إصرار الشخصيات وسعيها الدؤوب في البحث عن جذورها كإشارة تدل على تشبثها بالأرض التي حماها الآباء والأجداد وذلك " كردة فعل على كل محاولات الاقتلاع والترحيل فلا الباقون في المكان أكثر أمناً على وجودهم من الراحلين أو من رُحّلوا. " (2) . وتظهر هذه الإشارة منذ بداية الرواية في بحث شخصية أبي عمي عن جذوره التي قيل أنها تنتهي إلى قبيلة خزاعة والتي لجأت إلى هذا المكان إثر خراب سد مأرب وتلتقي فطيعة مع أبي عمي في نفس النسب لتأكيد وجودها التاريخي في المكان وإسهاماتها الحضارية التي تعم لتشمل الإنسانية جمعاء ، وتتضاعف جهود الشخصيات في تأكيد أصالتها في المكان عندما يصبح الخطر محققاً والاحتلال وشيكاً ويظهر ذلك في موقف الطبع إثر اكتشاف موقع اليسيرة القديم وزعم العالم اليهودي أن ذلك الموقع يؤكد تواجدهم وحقهم التاريخي في المكان ويدور الحديث التالي بين الطبع و العالم اليهودي : " نحن كلنا حراثون وزراعون ، ونحن نحرت هذه الأرض ونزرعها منذ مئات السنين ، فكيف تقولون أنها أرضكم ، فردّ عليه العالم نعم هذا صحيح ، انتم حرثتم الأرض ببغالكم وحميركم ، لكننا حرثناها وسنحراثها بعقولنا . أنتم لا تحسنون إلا حمل التراب بالفقة ، بينما نحن الذين نعرف أي تراب يجب أن يحمل وأي تراب يجب أن يبقى ، فارجعوا إلى خمامكم . " (3) .

كما يظهر أثر الدمار والمحاولات الدؤوبة لردم المكان وإسدال الستار على حق أصحابه الشرعيين فيه بعد الاحتلال الإسرائيلي سنة (1948) ، وذلك على صورة تدمير اليسيرة وبناء إسرائيل على أنقاض القرى الفلسطينية : " جاءت الجرافات ودمرتها وتم نقل الردم بالحاملات

(1) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة العدد 677 ، 6 / 7 / 1997 .

(2) جمال يونس ، اليسيرة نص يسرح بالمتلقي بين المكان العادي والاستثنائي ، صحيفة الحياة الجديدة ، 5 / 7 / 1997 . ص 15 .

(3) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 83 .

الكبيرة حيث تم استعماله في إعمار طرق جديدة تكون في خدمة المستوطنات الجديدة، ويقال بأنه تم إعادة استعمال حجارتها في بناء الحدائق العامة.⁽¹⁾ كما يرد دحض مزاعم القائلين ببداوة سكان المكان وأصحابه الشرعيين بشكل مباشر على لسان الراوي : " نطوف قد عاش منذ آلاف السنين على هذه الأرض ، ولقد كتبت الجرائد في ذلك الوقت عن اكتشاف مغارته في جبل عجيز والتي احتوت على سكاكين وفؤوس واوان حجرية ، ووجدوا كتابة على جدار المغارة على شكل نقوش حلها الخبراء وقالوا بأن الكلمات تدلّ على اسم الربّ ."⁽²⁾ .

ولمّا كان المكان هو الثابت الوحيد في واقع متغيّر تبعاً لمصالح القوى المتحكمة فيه ، فقد أسبغ عليه الكاتب من السمات الدينية والتاريخية والأسطورية ما يبهر هذا التهافت اللاهث منذ فجر التاريخ على احتوائه ومن هنا نلاحظ " سطوة التاريخ وفلسفته التي أغرته باستعراض التاريخ القديم والحديث بالانكفاء على نصوص من العهد القديم والعهد الجديد والقرآن الكريم والتراث العربي والتاريخ الحديث والمعاصر . وقد مثلت المفاتيح في النهاية مكان الاصحاحات أو الفصول التاريخية ، فرأينا الكاتب يعيد المشهد التاريخي الديني الحضاري في سياقه ليلقي الضوء على ما تقدم في الرواية ، كي يقول أن التاريخ يعيد نفسه . "⁽³⁾ .

وترد الإشارات المختلفة التي تبين أن المكان وجذوره الضاربة في القدم هي التي تحرك مشاعر الإنسانية وتستفزها من أجل السيطرة عليه ، فالمكان في الرواية قد شهد بداية الخلق " معنى اسمها - أي اليسيرة - المشي والخطو المتتد ، ولقد كانت في الأصل جنية بحرية تمشي على وجه اليمّ ، طرفها السفلي جسم سمكة غائص في الماء ، أما طرفها العلوي ففتاة بارعة الجمال ويقال بأن اليسيرة هي السيدة العظيمة والتي كانت على شكل سمكة لكن الطبع هو الذي أغواها وقلق ذيلها ."⁽⁴⁾ ، ولما كانت اليسيرة تمثل بداية الكون فقد استدعى المكان رسالات الأنبياء من أجل وضع دستور ينظم حياة قاطنيه فيثيب أخيارهم ، ويعاقب شرارهم ، فكانت أرض اللبن والعسل في أوقات الطاعة والتسليم وكانت الأرض التي ضاقت على العصيين فيها بما رحبت في أوقات المعصية والكفر، فنرى الكاتب في المفاتيح " يختزل رحلة الحضارة والأنبياء على الأرض ويركز على أنبياء بني إسرائيل ، ثم يأتي بآخر الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم ينطلق إلى

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 93 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 83 .

(3) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة

العدد 677 ، 6 / 7 / 1997 ، ص 15 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 26 .

التاريخ الوسيط (الأندلسي) من خلال شخصية اعتماد الرميكية ، الشاعرة الجميلة ، وينتقل للتاريخ الحديث حتى يصل اليسييرة بأحداثها المعاصرة لزمن الرواية بالفعل . " (1) .

ومن هنا نلاحظ التطابق الكبير بين الجزء الأول من اليسييرة ومفاتيحها حيث جعلها الكاتب بمثابة فهرس يوثق للجزء الأول ويعتمد على رؤية كلية للعالم ثم يحدد موقعه الراهن فيه لينطلق إلى النهاية المنطقية وهي إعادة تكوين هذا العالم وفق دستور عادل ، خالٍ من ظلم البشر وآثامهم التي بالغوا بها إلى الحد الذي يستحقون بسببها غضب الله وعقابهم ، وهو الأمل المنشود من قبل البشر .

ولعلّ هذه العراقة الحضارية والدينية هي من الأسباب التي تجعل من أهل اليسييرة أسرى لها ويتحملون في سبيل حمايتها أفسى الظروف وأظلمها فهي التي : "تأسر الناس بموقعها وبالسكن فيها، وأهل اليسييرة هم أسرى بلدتهم، إذ من الصعب على أهلها أن يروا ما هو خارج بلدتهم." (2)

• الزمان

يمتد الزمن الروائي لليسييرة منذ انتهاء فترة حكم العثمانيين للوطن العربي إثر انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى سنة 1917 ، وتلتقط بعض المشاهد في فترة الانتداب البريطاني وتنتهي بكارثة الاحتلال الإسرائيلي عام 1948 . " ومع أن هذه الرواية قد تناولت أشخاصاً ينتمون إلى حقبة أخرى ، وتناولت حقائق تتعلق بتلك الحقبة إلا أنها قد وصفت فضائل العصر الراهن وردائله ، وبذلك يتعين على القارئ أن يجهد خياله ليضع نفسه في نطاق الفترة التاريخية المتناولة ويندمج في روح تلك الأزمنة البعيدة . " (3) . فالزمن هنا " لا يتابع مسيرته بشكل أفقي، وإنما يتداخل ويتمازج.. ، ولأن الزمن بالأساس زمن كابوسي فاجع ولا يتأسس بتواصله التاريخي، لكن الرواية هي التي تؤسس زمنها ، للوصول بالمفارقة والتناقض القائم إلى ذروته." (4) .

"الروائي هنا هو مؤرخ المستقبل ، لأنه وحده من يستطيع التقاط جوهر حركة الناس والأشياء من الوقائع السالفة والراهنة واستشراف طريق المستقبل من خلالها . " (5)

(1) تحسين يقين ، اليسييرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة العدد 677 ، 6 / 7 / 1997 ، ص 15 .

(2) صافي صافي ، رواية " اليسييرة " ، ص 27 .

(3) مندلاو ، أ ، الزمن والرواية ، ترجمة بكر عباس ومراجعة إحسان عباس ، ص 101 ، 104 .

(4) فخري صالح ، في الرواية الفلسطينية ، ص 116 .

(5) نزيه أبو نضال ، التحولات في الرواية العربية ، ص 41 .

وقد جاء التأريخ الزمني في بعض أجزاء الرواية مناسباً للمستوى الثقافي الذي عاشه مجتمع القرية حيث انتهج التأريخ وفق مناسبات طبيعية خارجة عن المؤلف كالفيضانات والثلوج الكثيفة ، حيث ورد أثناء الحديث عن مولد أبي عمي: " ولد أيام الثلجة الكبيرة " (1) ، أما الزمن الذي يتعلق بتفاصيل حياة القرية اليومية فقد ارتبط بالمناسبات التي يجتمع فيها الناس كشهر رمضان والأعياد .

أما عن الزمن النفسي " فكلما ركز الكاتب على الشخصية وذاتها تقلص الزمن من الخارج، وصغرت وحداته وكلما خرج خارج الشخصية اتسعت الرقعة الزمنية. " (2) وقد وردت إشارات كثيرة تدل على الزمن النفسي ، ومن ذلك شعور الناس بقيام الساعة بسبب خوفهم الشديد إثر الفيضان الذي حدث في القرية إبان مولد كل من أبي عمي و فطيعة (3) . وتتباطأ عقارب الزمن في المناسبات الحزينة " مرت الأيام بعد ميلاد العروسين بطيئة ، خاصة بعد موت أم أبي عمي . " (4) كما عكست الرواية زمن الواقع رغم أحداثها الماضية " حيث يستطيع القارئ أن يربط الماضي بالحاضر القريب ، مثال ذلك قتل الجواسيس ما قبل عام 1948 ، فيتذكر أحداث الانتفاضة المعاصرة ، وكذلك الحال مع بيع الأراضي ، واشتغال المزارعين عمال خدمات عند الإنجليز واليهود ، وكأن التاريخ يعيد نفسه . إنها دائرة ، لاحظها الكاتب وأقام تناصاً فكرياً في جزأين من التاريخ . " (5) .

كما أشارت إلى سلبيات الواقع في الفترة الراهنة وذلك من خلال الإشارة إلى استغلال البعض لنفوذه من أجل تحقيق مصلحته الشخصية غير عابئ بالجماعة وهمومهم وآمالهم وانجذاب المجموع إلى هذه الفئة المستغلة رغم كل السلبيات التي تحيط بهم ومحاولة خلق الأعدار والتبريرات لهم ما يزيد من طغيانهم ويجعل مهمة تحرير الإنسان من أوهامه وخوفه وإذعانه هي المهمة الأصعب من تحرير الأرض وقد أشار الروائي إلى زمنه المتخيل بالإشارة إلى المفاتيح الاثني عشر التي هي عمر الیسيرة ويحدد عمرها الراهن بالمفتاح العاشر والذي تكون فيه السيطرة لغير أهل الیسيرة وهم يعبثون بمصائر أهلها ويستبيحون خيراتها أما المفتاح الحادي عشر فسيكون بيد أهل الیسيرة والمفتاح الأخير سيكون بيد الله " قالوا إن الأجداد يقرأون اثني عشر مفتاحاً ، كل

(1) صافي صافي ، رواية " الیسيرة " ، ص 4 .

(2) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 165 .

(3) صافي صافي ، م . س . ، ص 13 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 15 .

(5) تحسين يقين ، الیسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة

العدد 677 ، 6 / 7 / 1997 ، ص 15.

مفتاح يفتح باباً أو عدة أبواب ، والأبواب منها ما هو صالح ومنها ما هو عاطل ، ولا يمكن إصلاحه ، فكل شيء يسير وفق إرادة الله ويقولون بأن المفتاح الذي لا يحسن أهل اليسيرة استعماله سيستعمله غيرهم، وأن فتح أحد الأبواب من قبل غير أهل اليسيرة سيزيد من صعوبة امتلاك أهل اليسيرة واستعمال المفتاح التالي، وهم واثقون بأن المفتاح قبل الأخير سيكون بأيديهم، والمفتاح الأخير سيكون بيد الله. فتسعة مفاتيح قد تم استعمالها في فتح الأبواب حتى الآن، وأن المفتاح العاشر يتم استعماله الآن، لكنه ليس بيد أهل اليسيرة، ويقف أهل اليسيرة متفرجين على فتح أبوابهم. " (1) وقد يكون السبب في جعل الروائي فك قيود فلسطين وفتحها يأتي من الخارج عائد إلى أن جوهر قضية فلسطين له امتداده العربي والإسلامي وربما يكون ذلك بسبب " الوعي السياسي والفكري حول تاريخ فلسطين القديم والحديث، وهو أميل إلى النزعة الدينية التي توحد الناس " (2) .

أما الزمن الذي يتنبأ به الكاتب في المستقبل فهو يلائم النظرة الدينية التي تقضي بوجود انتصار الخير على الشر في معركة حاسمة وسيحاسب الله الناس على أعمالهم وهو ما يقابله مرحلة الطوفان في المفاتيح وتنتهي المفاتيح بإعادة التكوين حيث الحكم العادل بين البشر وفق الرسالة الإلهية وتحقيق جوهر استخلاف الإنسان في الأرض.

• الحكمة والصراع

لم تأت الأحداث في الرواية في المرتبة الأساسية، ولم يكن هناك حدث مركزي تتفرع منه بقية الأحداث، ولكنها جاءت متفرقة تخلقها الشخصيات من خلال تلاقح أفكارها أو صراعاتها، كما لم يكن الحدث هو المحدد لسلوك الشخصيات ووعيها ، وإنما كان المكان هو الذي يوجه سير الرواية كما أن علاقة الشخصيات بهذا المكان هي التي حددت ملامحها وثقافتها ، وقد وظف الكاتب العديد من الشخصيات ذات البعد الأسطوري لتلائم الدور المرسوم لها في مكان يكتظ بالحوادث التاريخية والدينية والإنسانية، كما أن توظيف هذه الشخصيات قد ساهم في إثراء الحدث وتنوعه .

وقد ساهم تفرق الأحداث في ملازمة عنصر التشويق لجميع مراحل الرواية ، حيث تعدد الصراع وتنوع منذ بداية الرواية ؛ فنجد صراع الإنسان من أجل إثبات انتسابه لهذه الأرض وصراعه من أجل البقاء فيها . وقد ساهمت الأبعاد المختلفة للرواية في تنوع عنصر الصراع فيها حيث الصراع المطلق بين الخير والشر الذي لازم بدء الخليقة ، كما تناولت صراع القوى المتنافذة

(1) صافي صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 77 .

(2) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي، صحيفة الحياة الجديدة العدد

في مجتمع اليسيرة من أجل بقاء وتوطيد زعامتها وأمام هذا الكم النوعي من الصراعات تراجع الصراع الداخلي في نفوس الشخصيات التي امتازت بالبساطة والوضوح حتى نهاية الرواية وتختفي الحكمة التقليدية وسط الانتقال عبر الأزمنة المختلفة وتحلّ محلها الأسئلة التي تستفزّ فكر القارئ ومشاعره مكانها ، كما أن الرواية قد تناولت معاناة الفلسطيني عبر القرون لتميّز الوطن الذي ينتمي إليه .

المبحث الخامس : عناصر العمل الأدبي في رواية " شهاب " شخصيات الرواية :

تظهر شخصيات جديدة في هذه الرواية وتطراً بعض التغييرات على شخصيات الجزء الأول منها " اليسيرة " ومن هذه الشخصيات :

شخصية شهاب : وهي الشخصية المحورية التي استدعت الحدث الروائي وتداعياته ، كما أنها شخصية توضح بساطة أهل الريف ، وسذاجته من خلال رغبتهم الملحة في إضفاء البعد الأسطوري لأية ظاهرة مختلفة لا تتسجم مع الواقع الرتيب والراكد في القرية ، وقد حاك الناس في القرية أسطورة هذه الشخصية دونما تدخل منها ، بل ونشاهدها تنقصر هذا الدور وتحاول تعزيره بما يضمن لها استمرارها في لعب دور البطولة والزعامة في مجتمع يسهل خداعه بالوهم والأسطورة . وتتمثل أسباب انجذاب الناس نحو شهاب في :-

1- اختلافه : فقد صور الراوي هذا الاختلاف بقوله : " هو الناعم مقابل دفاشاتهم " وقليل

الكلام مقابل ثرثرتهم ، والهادئ مقابل إزعاجهم ، والجميل مقابل عاديتهم وطويل القامة مقابل متوسطها وقصيرها ، والأشقر مقابل سمرتهم ، والمسالم مقابل عدوانيتهم " (1) ، وقد ردّ الناس هذه الصفات الخارجة عن مألوفهم إلى أسباب أسطورية لها علاقة بالمكان الأسطورة حسب اعتقاداتهم ؛ فاليسيرة وشهاب أصبحا بمثابة الملجأ للضعيف والمغيث للمهوف ، إنها المكانة الروحية التي يسعى الناس إلى خلقها وتدعيمها وبثّ الروح فيها كلما زادت الحاجة إلى التفكير المنطقي والتحليل الواقعي للتغيرات والتحديات التي تحيط بالمجتمع .

2- الشهرة والمال : وقد جاءت شهرته نتيجة جماله ؛ فهو أشقر مقابل البشرة السمراء

لأهل اليسيرة ، ولم تكن الأصول المشبوهة لشهاب كافية لإقناع الناس في سبب هذه الاختلاف والجمال - حيث إنه ابن لعلاقة غير شرعية بين أمه والجنود الإنجليز - وأصر أهل اليسيرة على جعل هذه الجمال خيطاً آخر لإكمال النسيج الأسطوري لهذه الشخصية : " كان يتطلع إلى كل واحد منهم ومنهن ، وجه يضيء وعيناه تلمعان ، ونور يشع من حوله ، فإذا ابتسم في وجه أحدهم رجع إلى بيته راضياً مرضياً " (2) ، كما انه من أسرة برجوازية قد ملكت المال والأرض وقد ترك له والده - التاجر - ثروة كبيرة أخذ شهاب يغرف منها ويستخدمها من أجل إشباع نزواته وتعزيز مكانته ، حيث لبس أجمل الثياب وارتاد أفخم الأماكن في المدينة .

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 24 .

(2) صافي صافي، م . ن . ، ص 25 .

ونلاحظ أن السلبية هي السمة التي تغلب على هذه الشخصية وأن الهالة التي أحاطت بها هي من صنع أهل اليسيرة ؛ فشهاب لم يؤد عملاً واعتمد على مال أسرته ، ولم يحاول أن يتقلد سلطة ما في قريته رغم تضافر الظروف التي تؤهله فهو : " لم يسع شهاب للسلطة والسلطان رغم أن الناس اعتبروه سلطاناً " (1) .

3- التعليم والثقافة : حظي شهاب بفرصة التعليم في المدينة في الوقت الذي تلقى فيه نظراؤه تعليماً متواضعاً في القرية ، ولكنه خرج من هذا التعليم بفلسفته الخاصة التي تخدم أهدافه وتعد الطريق أمام إقباله على حياة المجون والترف ، فهي شخصية أنانية لم تفكر سوى في نفسها وملذاتها : " لم يفكر شهاب في أمه وأبيه وأعمامه وأخواله وجميع أقاربه ، ونجح . فكر شهاب في نفسه فقط ، ونجح . " (2) ومن هنا نجد أن فلسفته في الحياة تقوم على إشباع رغبتين هما الجوع والجنس اللذان يعتبرهما معنى الحياة ومحور الصراع فيها .

إن فلسفة شهاب في الحياة لم تخضع لضوابط دينية ولم تسير أعرافاً وضعية ، ولكنها فلسفة قائمة على المصلحة الذاتية القائمة على الانغماس في الشهوات، وبدل أن يقوم المجتمع بمحاسبة هذه الشخصية وتثنيها عن معاصيها وآثامها فإنه يقوم بتعزيز دورها وجعلها رمزاً، يدافعون عنه ويصدون كل محاولة للنيل منه أو الانتقاص من مكانته.

أما المرحلة الثانية من حياة الشخصية فإنها جاءت في المدينة لتعري بساطة هذه الشخصية وسذاجتها في واقع المدينة المعقد والذي لا يؤمن بأسطورية الأشخاص أو الأماكن ، فنشاهد شهاباً يمعن في انحرافات السلوكية ، فينتقل من امرأة لأخرى ، وكلما زاد في هذه الانحرافات كلما ابتعد عن الهدف الأساس الذي جاء من أجله إلى المدينة وهو إحضار القوشان الذي يستطيع من خلاله إثبات ملكيته لأرضه ، وتستمر هذه الشخصية في حياتها الماجنة حتى تهزها صدمة الواقع في المدينة ، حيث تم انتهاك رجولته بالاعتداء الجنسي عليه وذلك بعد تحذيره مراراً من استمراره في هتك أعراض الناس ، فكان العقاب قاسياً كما الجرم ، لتسقط أسطورية الشخصية إلى غير رجعة وتتعري الشخصية تماماً من كل خوارقها المزعومة والمختلقة لتظهر شخصية ضعيفة ، مسلوية الإرادة ، وهي تشعر أنها منبوذة من الإنسان والحيوان وفي ذلك يقول : " فكرت في استغلال الأبقار لأشرب حليباً منها مباشرة . حاولت ذلك مرة ، اقتربت من بقرة تبدو حلوباً . حبوت تحتها.... اقتربت برأسي من ثديها ، فانفضت، ورفصتني ، وداست على بطني . " (3) .

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 33 .

(2) صافي صافي، م . ن ، ص 32 .

(3) صافي صافي، م . ن ، ص 59.

وتأتي المرحلة الثالثة لتمثل مرحلة التوبة والشعور بالندم، ويظهر ذلك في موقفه أثناء خطبة الحاج عبد النبي التي تحدث فيها عن معاصي البشر وفتح باب التوبة أمامهم إن هم صدقوا فيها: " استمع إلى كل كلمة قالها الشيخ ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وبكى . انسكبت دموعه بغزارة، وما أن بدأ الشيخ الدعاء حتى ردد شهاب مع المصلين : آمين ، آمين ، آمين . " (1)

شخصية شرحة : وقد ورد في سبب تسميتها : " لا يعود المعنى لاسمها إلا الانتساح ... إنها تشرح له صدره - يعني شهاب - تفتح هذا الصدر وتزيل كل ما علق به من شوائب ومن هم وغم ، وتلقيه خارجاً ، وتبعث فيه الغبطة والسرور ، والتهيج والتورد والانشكاح . " (2)

وقد كانت شرحة غير مميزة في صفاتها الخلقية أمام تميّز شهاب ، " هو فارغ الطول وهي قصيرته ، وهو ممشوق القوام وهي مدعبرته ، هو حلو اللسان ، وهي عاديته ، هو ناعم الصوت وهي خشنته . " (3) إلا أن تميزها قد جاء بسبب شجاعتها وجرأتها وإحساسها المرهف وصدقها وإتقانها لكل ما تقوم به أمام خجل بنات القرية وعاديتها ومسائرتها لأعراف القرية .

ومن هنا وجد شهاب أن ارتباطه بهذه الشخصية المتميزة يدعم مركزه ويعزز مصالحه ويقوّي ارتباط الناس به فقد ورد على لسان الراوي " كان شهاب الأكثر شهرة لجماله ولحسنه وكانت شرحة الأكثر شهرة بأفائها المميزة كلما تلفظت ، وبالحركات التي تؤديها كلما تحركت . " (4) وهي في تبريرها للأخطاء والانحرافات التي يقوم بها شهاب تقف موقف أهل اليسيرة؛ فهي تعتبر ذلك أمراً طبيعياً ونراها تقول بعد تأكدها من تلك الانحرافات : " الرجل مثل الديك فالديك يدور في الحارات يلاقي دجاجات الحارة ، ثم يعود إلى خمه . " (5)

أما موقف شرحة بعد انكشاف حقيقة شهاب وتعريته وظهور ضعفه فقد كان بالتخلي عنه بل والمطالبة بمحاسبته وعقابه وقد جاء هذه الموقف كجزء من الوعي العام لأهل اليسيرة بضرورة التخلي عن الأساطير والأوهام والخرافات ووضع الأمور في ميزانها الواقعي بعد انكشاف وهمهم الفكري فقد جاء على لسانها في الفصل الخامس من الرواية : " شهاب مش من الرجال ، كلّ جماله انتهى . لا أريد شهاب زوجاً لي ، شهاب طالق طالق طالق ... ، شهاب يجب أن يموت . " (6)

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 67.

(2) صافي صافي، م . ن . ، ص 36.

(3) صافي صافي، م . ن . ، ص 34.

(4) صافي صافي، م . ن . ، ص 38.

(5) صافي صافي، م . ن . ، ص 56.

(6) صافي صافي، م . ن . ، ص 91 .

شخصيات المدينة : وقد جاء توظيفها لإظهار التناقض بين جهل القرية ووعي المدينة والبساطة والسذاجة والوضوح أمام التعقيد والعمق والضبابية ،ومن الشخصيات التي برزت في المدينة :

أ- **شخصية مراد :** وهو محامٍ يمثل طبقة المثقفين الذين تعاونوا مع الاحتلال من أجل مصالحهم الخاصة ، وهي تؤمن بحضارة الغرب وماديته وتتخلى عن هويتها وجذورها وتؤمن وقد وصفه شهاب بقوله: "تحدث عن القيادات العربية ، وتحدث عن القيادات الإنجليزية واليهودية أيضاً ، تحدث عن الحياة التي تحياها كل من هذه الشعوب وعن شعوب أخرى ، تحدث عن عاداتهم وتقاليدهم ، وتقدمهم وتأخرنا ، وصراعنا معهم وحتمية انتصارهم علينا . " (1) وقد شكلت ثقافة هذه الشخصية وأناقته أحد أسباب انبهار شهاب بها واستسلامه لها حيث يقول في ذلك : " ذهلت من هذه المعلومات التي يمتلكها هذا المحامي، تحدث في كل شيء كأن العالم كله بين يديه ... هذا المحامي طليق اللسان بشكل لم أعرفه من قبل . " (2) ورغم تأكيد شهاب من تعاون هذه الشخصية مع الاحتلال إلا أنه يستمر في التعاون معها لما توفره له من أجواء المتعة والمجون التي يلهث إليها ، وتلعب هذه الشخصية دوراً في التمهيد للسقوط الوطني حيث مهدت له الطريق بعلاقته مع (شوش) . (

ب- **شخصية (شوش) :** وهي تعكس معالم شخصية الآخر والوسائل التي يتبعها من أجل الحصول على أدق المعلومات التي تتعلق بحياة أهل اليسيرة . وهي تعمل في مكتب المحامي مراد - في إشارة إلى التعاون بين طبقة من المثقفين والاحتلال - وهي تستغل علاقتها به لتتعرف إلى أدق التفاصيل في قريته والقرى المجاورة بينما هو يجيبها بسذاجة ، وقد شكّل اختلافها وتفوقها في المعارف وحضارية سلوكها سبباً لتعلقه بها فنراه يعلق على ذلك : " شوش تعلمني كل يوم شيئاً جديداً عن هذه البلاد وبلاد أخرى " (3) ، ولا غرابة في ذلك فهو يعود إلى بيئة متماثلة في ثقافتها المتواضعة ، وتسير الأعمال والأفكار فيها وفق منهج لم يطرأ عليه تغيير يذكر منذ مئات السنين . أما ما دفع (شوش) للتقرب من شهاب فيعود لكونه النموذج الأسهل للسقوط فقد جمع بين بساطة القروي وسذاجته وبين تركيزه على مصلحته الفردية وملذاته التي اكتسبها من المدينة فقد ورد على لسانها تخاطبه : " أنت من قرية وتتردد على المدينة ، وعاداتك هي مزيج بين هذه وتلك أنت لديك رؤية في الحياة وما شاهدته أنك تحب الاستمتاع ، وهذا جيد . " (4) .

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 45 .

(2) المكان نفسه .

(3) صافي صافي، م . ن . ، ص 49 .

(4) صافي صافي، شهاب ، ص 50 .

وقد ساهمت هذه الشخصية في خلق حالة من الضياع لدى شهاب تستمر حتى مرحلة الصدمة التي تواجهه عندما تتعري حقيقته .

ت- **شخصية سعاد الصيداوي** : وهي أيضاً محامية ، وتسكن شمال فلسطين ، من أسرة مثقفة حيث كان والدها يعمل مدرساً ، وقد أتاحت لها فرصة التعليم في فرنسا ، فاكتملت قيمياً غربية تتميز بالمادية التي لا تقيم وزناً للقيم الروحية ، وقد ورد وصفها على لسان شهاب : " برونزية البشرة ، بدينة بعض الشيء ، تتكلم برقة ، وتركب جملها من ثلاث لغات هي العربية والإنجليزية والفرنسية . " (1) ، وهي تحاول استغلال حاجة الناس وفقدهم في المدينة لشراء البيوت بثمان بخص ما خلق بينها وبين جيرانها عداوة في إشارة إلى حياة الاستغلال وقسوتها في المدينة .

أما عن **العلاقة مع المدينة** فيعتبر أهل اليسيرة أن علاقتهم بها قائمة على العداوة الدفينة وأن تصرفات شهاب الشاذة وعلاقاته النسائية فيها ما هي إلا انتصار لهم على أعدائهم وقد ورد على لسان مختار القرية: " إنه شهاب الذي يخترق المدينة فيما يعتبرونه عيباً لو حدث في القرية لا يقبلون أن يفعل ذلك مع بناتهم أو نسائهم... أصبح رمز قوتهم بمعنى من المعاني. " (2) وهم يشاركون شهاب في انبهاره في المدينة وإغراءاتها ولا يتقنون بقدرتهم على الصمود في وجهها ما يشير إلى اعترافهم الضمني بانزوائهم وانعزالهم وبساطتهم ويرد ذلك من خلال موقف الطبع عندما بهره جمال (شوش) ويعلق الراوي على ذلك بقوله : " وجذب انتباهه هذه الجمال الذي تتمتع به كل من (شوش) وسعاد، وتمنى للحظة لو أن شهاب كان قد اصطحبه معه إلى المدينة. " (3) .

أما شخصيات اليسيرة فقد طرأ بعض التغيير على ملامحها في رواية (شهاب) ومنها:
شخصية الطبع : حيث عاد يلعب دوراً مركزياً في قيادة مجتمعه ، وكأن المجتمع الذي أنتجه عاجز عن الإتيان بشخصية أكثر قدرة وتأهيلاً لقيادته ، وهو يعتمد على قوته الجسدية في فرض نفوذه وسيطرته إلا أنه أصبح يجيد التعامل مع السياسة أيضاً ، فقد ورد على لسان المختار حين احتشد الجميع من أجل الحفاظ على هيبة اليسيرة أمام القرى المجاورة والمدينة : " فهمتكم يا طبع . أنت بالأصل عسكري ، وأنت تتصرف اليوم بشكل سياسي جيد ، ستصير وجيهاً مثلي يا نسيبي . " (4) ، وتشير هذه الشخصية إلى ركون أهل القرية إلى حياتها ورموزها وعدم رغبتها في التجديد أو التطوير .

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 53 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 78 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 66 .

(4) صافي صافي ، شهاب ، ص 69 .

شخصية الحاج مسعود : وهو المختار الذي ما زال يدافع عن شرعية نفوذه وقيادته وهو يعقد الأحلاف ويهادن مراكز القوى بما يعزز مكانته، وقد ورد ما يشير إلى ذلك في موقفه مع الطبع حين راح يدب الحماس في شباب أهل القرية كي يدافعوا عن سمعتها " كما ألقى بعض الأوامر على الطبع . التفت الطبع نحوه بطرف عينه ، غمزه الحاج أمام الجميع ، وفهم كلاهما اللعبة . " (1) .

شخصية عبد النبي : وهي الشخصية الدينية التي طرأ عليها تغيير إيجابي ، حيث تتخلى عن عزلتها ، وتبدي مشاركة أكبر في حياة الناس وهمومها ، ويظهر ذلك في الخطبة التي ألقاها بعد عودة شهاب والتي تشير إلى سماحة الدين الإسلامي وغفران الله للذنوب والمعاصي ودعوة الناس إلى التفكير في أمور دينهم ودنياهم ، **ولكن هذا التطور الإيجابي محدود بفاعليته وتأثيره أمام سلطة الطبع وقوته وأمام سلطة المختار السياسية** ، ويرد ذلك في الحوار الذي دار بينه وبين الطبع : " شايف انك قاعد تفتي في أمور الدنيا والحاج مسعود يقول أن تفتي في الدين وبس ... مش خايف من الحاج مسعود يقوم بتبديل إمام المسجد بواحد غيرك ؟ صمت الشيخ قليلاً ثم قال " لا حول ولا قوة إلا بالله . " (2) .

شخصية أبو عمي وهي : الشخصية التي تبدي القدر الأكبر من العقلانية منذ ظهورها في الرواية وقد صدرت عنها اللازمة الروائية " شهاب ما جابش القوشان " حتى نهاية الرواية ؛ ففي حين اهتم أهل اليسيرة ووجهاء القرى المجاورة بالحفل الذي أقيم بعودة شهاب ومحاولة خلق الأعذار والأوهام حول سقوطه وعجزه نراه يهتم بفكرة إحضاره للقوشان الذي يثبت ملكيته للأرض ويحول دون انتزاعها منه في الوقت الذي تتعرض فيه أراضي القرية للسرقة والمصادرة

شخصية الواوي : وهي شخصية الجاسوس في فترة تكونها فهو يحاول المشاركة في كل الأحداث المهمة في القرية إلا أنها تبدو شخصية منبوذة ومرفوضة في مناسبات الناس المختلفة ولا تلقى أي اهتمام وهو ما يعكس " موقف التكوين الاجتماعي وإجماعه على احتقار النماذج الخائنة ونبذها خارج التكوين الذي يبدي سعيه المؤكد إلى التجانس . " (3) ، وتظهر محاولات الاحتلال في تدعيم مركز هذه الجاسوس وتقليده منصباً رغماً عن إرادة الناس كي يتمكن من تمرير مخططاتهم " في المساء جاءت دورية من الجيش ، استقبلهم الحاج مسعود في عليته ودعا وجهاء القرية بناء على طلبهم ، وطلبوا الطبع و الواوي أيضاً . " (4) كما ظهر ما ينبئ بالدور الذي ستلعبه هذه الشخصية

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 69 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 71 .

(3) سليمان الأزرعي ، فلسطين في الرواية الأردنية ، ص 82 .

(4) صافي صافي ، شهاب ، ص 67 .

لاحقاً في مجتمعها حيث ظهر في نهاية الرواية يركض وراء جنود الاحتلال في اللحظة التي كانوا سيعاقبونه فيها على ما اقترفه من انحلال وخيانة .

• المكان

إنه " المكان الغافل أو المكان الخارق بأسطوريته ونصف واقعيته الذي يضطر إلى الخروج من عزلته بسبب أحداث خارجية ، فهذا المكان يرتبك أمام الخارج وتكشف غفلته أو سذاجته أو كلاهما، فالمكان لدى صافي متجمد في اللحظة التي كان فيها الناس ومكانهم متآلفين يعرفون اسم كل شجرة واسم كل حجر . " (1) ، ويستمر وهم أهل الیسيرة في التعامل مع المكان الأسطورة وقد ربطوا به هذه المرة شخصية شهاب بما أضفوه عليه من صفات خارقة ويظهر ذلك من خلال الدعاء الذي ابتدعه " يا ستنا الیسيرة ، يا من جعلت العسر يسراً ، ارضي عني أولاً وسأكون في طاعتك وفي طاعة أهل القرية التي سميت باسمك ، دعي شهاب يرضى عنا ، فإن رضاه من رضاك . " (2) . ورغم أن قرية الیسيرة لا تبعد عن المدينة أكثر من ساعة على ظهر دابة إلا أنها تمثل عالماً آخر؛ يحتضن المؤسسات الهامة كدائرة تسجيل الأراضي ويضم أنماطاً مختلفة من البشر صقلتهم المدينة بعد أن جاءوها من مشارب مختلفة لتفرز نوعاً جديداً من السلوك الذي يتلاءم مع إيقاعها السريع والمتنوع. والمدينة هنا " ليست العاصمة أو المحافظة وإنما درجة حضارية تبين حركة التقدم " (3) .

وتظهر العلاقة هنا بين القرية والمدينة ، وهي علاقة صراع قائم في ذهن القاطنين وليس صراعاً بين مكانين جغرافيين ، يمثل أحدهما الطبيعة البكر، ونقاء الهواء ، وصفاء الماء ويمثل الآخر الفوضى، والاختلاط، والتلوث . وقد ظهرت المدينة هنا " كتعبير عن الاغتراب النفسي والاجتماعي حيث أن النفور من المدينة والحنين إلى الريف - ممتزجاً مع الحنين إلى الأم وإلى الطفولة - نزعة رومنطيقية أصيلة ، وقد وجدت لها تعبيرات مختلفة في الأدب العربي. " (4)

• الزمان

تقع أحداث هذه الرواية في نفس فترة الجزء الأول - الیسيرة - أي في فترة الانتداب البريطاني حتى الاحتلال الإسرائيلي عام 1948 . ولكنها تقتطع فترة زمنية قبل تدمير القرية وهي الفترة التي ظهر فيها شهاب كشخصية أثرت في حياة أهلها والقرى المجاورة .

(1) أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية " شهاب " وسؤال الدلالة ، مجلة صوت الوطن ، العدد (86) 2002 ، ص 52 .

(2) صافي صافي ، م. س . ، ص 25.

(3) غالي شكري ، أزمة الجنس في القصة العربية، ص 10.

(4) إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص 93 .

أما الزمن الروائي فهو يمتد أسبوعاً من الزمن ، يبدأ برجوع شهاب إلى قرينته بعد فترة انتظار وترقبٍ ومواجهةٍ استمرت ستة أيام إثر انتشار خبر اختطاف شهاب من قبل أهل المدينة .

ويرد الزمن في الفصلين الرابع والخامس ، وكأنه عدّ تنازلي يصف بالتفصيل حال أهل القرية قبل انكشاف الحقيقة وكأنها لحظة التحول التي حطم فيها الناس أصنام أو هامهم وأساطيرهم التي عبدوها على مرّ السنين ، حتى إذا جاء يوم الخميس وهو اليوم الأخير في المهلة التي حددها أهل الیسيرة من أجل تسليم شهاب ازداد الزمن تحديداً ووصفاً للأحداث فنرى التفصيل الزمني الذي يزيد من لحظة التوتر ، ويساهم في استمرار عنصر التشويق حتى نهاية الرواية ومن تفصيلات الزمن : " في يوم الخميس من حزيران ، شدد الطبع والشباب من حوله الرقابة على الطريق " (1) و " جاء المساء وقد انتهت حركة العربات كلياً على الطريق " (2) و " ظلوا هناك حتى سمعوا صوت الشيخ عبد النبي يرفع أذان العشاء " (3) . أما اليوم السابع وهو اليوم الذي ظهر فيه شهاب لتبدأ محاسبته وسقوط أسطوريته فيستمر طوال الفصل الخامس ، ويظهر فيه الزمن أكثر تحديداً وتفصيلاً لتظهر علامات الحسرة والندم على أهل الیسيرة بعد اتضاح زيف أحلامهم وانكسار الرمز الذي علقوا عليه آمالهم ، ومن ذلك : " ودوا لو لم ينادوا في الناس أن شهاب قد عاد لو أن النساء لم تزعدن لقدمه ، لو أنه لم يختطف ، لو كانوا هم من قرية أخرى غير الیسيرة ، لو أن شهاب لم يعد ، لو أنه لم يولد . " (4) ، وتأتي ساعة محاسبة شهاب على أفعاله كما وأنها الساعة التي سيؤرخ من خلالها حياة أهل الیسيرة فيزداد الزمن تحديداً : " الساعة الآن هي الثالثة بعد الظهر ، اليوم هو الجمعة ، الشهر هو حزيران . " (5) .

وتأتي النهاية المتمثلة بإنقاذ شهاب في اللحظة الأخيرة لتمتد خيوط الزمن إلى الواقع حيث لا تزال فئة من المجتمع تمارس طغيانها وانحرافها وتستمد سلطتها من إعجاب الناس بوهج بريقها الزائف دون أن تساهم في بناء مجتمعاتها حيث تعمل على تدعيم سلطتها لتهميم في بحر نزواتها دون حسيب ولا رقيب .

ولما كان الزمن الخارجي محدوداً لا يتعدى الأيام السبعة فإن مدى الزمن النفسي يتسع كذلك الزمن الذي يمهد لحدث فني وشيك لا سيما في الفصلين الأخيرين ومن ذلك : " امتلأت الساحة بمواقد النار . أصبحت حارة جداً وهم يطبخون في شهر حزيران في وقت الظهيرة حيث ما زالت

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 68.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 71

(3) المكان نفسه .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 86 .

(5) صافي صافي ، شهاب ، ص 91 .

الحرارة ترتفع شيئاً فشيئاً. " (1) ومن الزمن الذي يدل على حالة الترقب وانشداد الناس تجاه اللحظة الحاسمة التي يتعرى فيها شهاب من أسطورية وهجه الزائف: " الجو كان حاراً ورطباً جداً خلع الوجهاء عبااتهم وألقوها أمامهم ، خلع الوجهاء حطاتهم وعقلهم ، وفتحوا أزرار قمصانهم وخلع الرجال دماياتهم وتسروا ، فظهرت ملابسهم البيضاء المبتلة بالعرق . " (2) .

• الحكمة والصراع

تدور الرواية حول حدث مركزي وهو اختطاف شهاب على يد فئة من سكان المدينة بعد أن تمادى في انحرافاته وخيائنه ليتفرع عن هذا الحدث مشاهد روائية تصف القرية الفلسطينية بكل تناقضاتها ، كما تصف البساطة والسذاجة التي ينتهجها هؤلاء في اتخاذ رموزهم وقياداتهم وهي نفس السذاجة التي يسلكونها في طرحهم ونبذهم . " وقد تجاوزت الرواية أسلوب الحكمة المعقدة ذات المدة الزمنية الطويلة واتجهت إلى أعماق الذات الإنسانية لنبشها وكشفها وتجسيدها في النص فنرى بذلك نصاً مدته الزمنية ساعات أو أيام ، لكنه يمتد إلى عشرات السنين ، فالتخيل الروائي هو عملية خلق لعالم روائي بشخصه وأحداثه ، تتحرك في أمكنة وفق بنية زمانية معينة يشكلها الكاتب باستخدام آليات زمنية . " (3) .

إن حادثة الاختطاف هي الخيط الذي يستدعي به الكاتب بقية أحداث الرواية وهو " خيط شديد التماسك لم يفرط الكاتب للحظة واحدة في تجميع كل التفاصيل للحديث عن الشخصية الأكثر حضوراً حتى وهي غائبة . " (4) فالحبكة في الرواية هي حبكة متماسكة حيث ترتبط الأحداث مع بعضها وتتطور في تماسك عضوي وتدور في فلك الشخصية المحورية .

ويتخذ الصراع في الرواية مستويات متعددة ؛ فهو صراع على السلطة والنفوذ في القرية ولكنه سرعان ما يهدأ أمام الصراع من أجل توطيد ودعم مكانة القرية أمام القرى المجاورة ويظهر الصراع بين القرية والمدينة وهو صراع حضاري تظهر فيه المدينة كقوة مستغلة لموارد الريف ما يزيدها ثراءً ونفوذاً ويزيد القرية ضعفاً وفقراً ، فقد ورد في حديث أهل اليسيرة بهذا الشأن : " الصراع لم ينته بعد بين المدينة والقرية ، فما زال المدنيون يعتقدون أن أهالي القرى سذج ، كم هي النكات والفكاهات التي قيلت بين حينٍ وآخر في المجالس والمضافات ، قيلت ليتندر

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 82 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 87 .

(3) مها حسن عوض الله ، (أطروحة دكتوراة) بعنوان " الزمن في الرواية العربية " عمان ، الجامعة الأردنية

2002 ، ص 34 .

(4) أحمد رفيق عوض ، أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية " شهاب " وسؤال الدلالة ، مجلة صوت

الوطن ، العدد (86) ، 2002 ، ص 53 .

بها أهالي المدينة وأهالي القرى وكم هي الحكايات التي رويت عن بيع أهالي القرى الجواعد ،
وشراء أحذية مصنعة من إطارات العربات على شكل " شواريخ " (1) .

وتجدر الإشارة إلى أن " الصراع بين القرية والمدينة هو صراع تقليدي قديم عرفته كل
الأمصار والبلدان . وهو غالباً ما يحتدم أيام الشدائد والاضطرابات لارتباطه الوثيق بالعامل الأمني
العسكري والعامل الاقتصادي المعيشي حيث مثلت المدينة دائماً بالنسبة إلى أهل القرية سنوات
طويلة من السيطرة والرعب والسلطة الغاشمة .. فكل شيء رهيب جاءهم من المدينة .. وأمر
السخرة في الزمن الماضي والضربات ونزع الأرض والسجن أيضاً من المدينة . " (2) .

ويظهر الصراع المحوري في الرواية بين وهم الأسطورة والخيال والقوى الميتافيزيقية التي
يصرّ أهل اليسيرة على العيش بين ظهرانيتها وبين الحقيقة والواقع لتنتصر الحقيقة في النهاية على
الوهم ، ولكنه انتصار مؤقت نتج عن هزة إيجابية في الوعي بعد حدث هام ومؤثر فقد ورد في
الجملة الأخيرة من الرواية : " ولوحظت أفعى السقيفة وصغارها تلحق بهم " ، وأفعى السقيفة
توحي بالمعنى الأسطوري كما تم وصفها في الرواية : " ، كانت بطول رجل أو امرأة ، بل كانت
أطول من ذلك ، كانت بطول شهاب وهو يافع ، أما رأسها فكان كبيراً جداً ، كانت بحجم قبضتين
من قبضات الطبع . " (3) ويدل ذلك على أن الوهم والخيال الأسطوري لا يزالان يلازمان فكر
الناس في القرية رغم كل ما حدث .

كما يظهر عنصر التشويق الذي يقوي العلاقة بين المتلقي والنص ويدفع عنه الملل والسامة
في محاولته لمعرفة سبب حالة الإعياء والانكسار التي بدا عليها شهاب في الفصل الأول من الرواية
ليتحقق له ذلك في الصفحات الأخيرة من الفصل الثالث .

(1) صافي صافي ، رواية " شهاب " ، ص 10

(2) عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية العربية ، ص 208 .

(3) صافي صافي ، م . س . ، ص 26 .

المبحث السادس : عناصر العمل الأدبي في رواية " الكوربة "

• شخصيات الرواية

شخصية الفتى الراوي: وهو صبي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً ، يعاني من آثار النكبة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، فيعيش ضمن تجمعات بشرية لا تعترف بها وكالة غوث اللاجئين في قرية (دير عمار) وتبدو آثار المعاناة على هذه الشخصية في النقاط الآتية :

1- الحرمان : حيث حُرِمَ من أجواء الطفولة البريئة وتحمل مسؤولية العمل الشاق كرجل له دوره في العائلة ، وهو يعيش في سقيفة ويعمل في قطف الثمار وحراسة الكروم حيث حُرِمَ أسباب العيش الآمن الهانئ .

2- المخزون الفكري المؤلم الذي يحمله بين أكتافه منذ نعومة أظفاره وهو " يمتاز بحسن الإنصات ودقته لواده ووالدته وعمه ، وكل كبار القرية من رجال ونساء وهم يتحدثون عن أهوال النكبة ، ويسرد لنا الراوي ما كان قد تناهى إلى سمعه من وصف تلك الأهوال . " (1) ويختزن هذا الطفل في ذاكرته قصص اللجوء ، والقتل ، والتشريد التي ما فتئ جيل النكبة يسردها على مسامع الجيل التالي لتستقر في أعماق ذاكرته وتؤثر في تفكيره وسلوكه ومن ذلك القصة التي سردها العم إبراهيم : " لكن أعداد المهاجرين ازداد مع ازدياد حدة المعارك ، والتحقنا نحن الآخرين بعائلاتنا وظل بعض الرجال هناك رافضين أن يرحلوا . رجعنا بعد يومين وشغلنا بآبور الطحين فكان الردّ من اليهود باللقاء القذائف على القرية . " (2)

3- الشعور بالتهديد والخوف الدائمين : وهو شعور ناتج عن مخزونه الفكري ، وحياته البائسة الفقيرة بعد تشرد أسرته ، ونلاحظ أن الألفاظ التي تدلّ على حالة الفزع تزداد كثافة أثناء استماعه لأخبار النكبة الأولى " خشيت أن يكون أبي قد مات أو أن يموت أمامي وهو يروي القصة ، وأن نضيع بعيداً عن أنظار أمي ، فنتفرّق كما تفرقت بعض العائلات ... ، كنت أصاب بالهلع وأمّي تبحث عن أخواني وأخواتي وقت الهجرة. " (3) .

4- الشعور بالخيبة وفقدان الأمل: وخاصة بعد أن شارك أهل قريته في تخليص الدبابة العربية التي انزلت وتعلقت عليها آماله بأن تصحح وضع المدفع المقلوب وتسنّأف دورها في القتال كي يعود إلى قريته التي يتخيلها جنة الله على الأرض : " كل واحد فيهم يصوّر بلدته على أنها مدينة

(1) علي الخليلي ، رواية " الكوربة " لصافي صافي ، منحني المكان والزمان في فلسطين ، صحيفة الأيام ، 29 / 8

/ 2005 ، ص 5 .

(2) صافي صافي ، الكوربة ، ص 31 .

(3) المكان نفسه .

بأكملها وكلّ يصوّر قريته على أنها الجنة بعينها، ولكم وددت أن أرى هذه الجنة. " (1) لكنه يصاب بحالة من اليأس والصدمة بعد قيام طائرات العدو بقصف الدبابة وتدميرها لتتسبب بذلك كلّ الآمال والأمانى بالعودة ، ويزداد حجم المعاناة والشعور بالضيق والذي يظهر من خلال أسئلة الطفل المحمومة التي تزداد كثافة بعد الهزيمة " كيف أعرف نفسي الآن ؟ ما هو المصير الذي سنلقاه؟! أين سنذهب؟! ماذا سنفعل؟! .

لقد أحدثت الهزيمة تغييراً إيجابياً في وعي الشخصية التي تمثل الجيل الذي شهد الهزيمة والتي رأت في مخزون وعيها السابق أثراً سلبياً عليها فراحت تعمل على تشكيل ملامح أخرى لوعياها تقوم على المحاولة والتجريب والاكتشاف بدل الركون إلى وعي يقوم على الاستغراق في الماضي ووهم الشعور بتحقيق النصر دون استعداد كافٍ وسليم يقوم على الوعي الثقافي والسياسي وتحمل كل فرد لمسؤوليته وقيامه بدوره على أتم وجه .

ويرد ما يشير إلى ضرورة تغيير حالة الوعي الجمعي القائم إثر الهزيمة في الحوار الذي دار بين الراوي وحامد - لماذا لا يعيشون الحاضر ؟

- لأن الماضي بالنسبة لهم أفضل من الحاضر .

- لكنهم يروون مأساتهم .

- ربما ليتخلصوا من هذه المأساة، يأملون ذلك. " (2) . ونلاحظ هنا " توظيف البلاغة الشعبية في استقراء واقع الهزيمة، من خلال الوعي الطفولي المنفتح على الحس الوطني برهبة وخشوع إذ يطلع هذا الوعي من أنقاض الهزيمة مثيراً أسئلة كبيرة هي الوعي الوطني الفلسطيني في نقائه وطموحه . " (3) .

ومن التغييرات الايجابية التي طرأت على الشخصية بعد الهزيمة اعتمادها على المواجهة والتحدي بدل الهروب ونتج ذلك عن شعورها بأنها جزء من مجموع يشتركون في الهم والمصير وورد ما يشير إلى ذلك عندما تخلى الصبي عن نومه في المغارة مع أخوته والتي ترمز إلى الهروب والاختباء " ألا تشعر بأن النوم في المغارة مثل النوم في مقبرة ؟ " (4) كما نلاحظ أن الشخصية بدأت تتخلى عن سذاجتها وبساطتها لتنتقل إلى النضج وتحمل المسؤولية فقد ورد على لسانها قبل الهزيمة " أنا لا أحب الاحتفاظ بالأسرار ، الأسرار تؤرقني ، تجعلني أكثر حذراً ، لأظل

(1) صافي صافي ، الكورية ، ص 56.

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 32 .

(3) فخري صالح ، في الرواية الفلسطينية ، ص 40

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 84 .

محافظةً عليها ، وإذا سئلت عنها أصاب بالتوتر ، سيفضح وجهي سرّي . " (1) أما بعد الهزيمة فزراه يقوم بإخفاء مسدسه " اللعبة " بعد أن قام بتزييته كما لو أنه مسدس حقيقي ويصبح قادراً على الاحتفاظ بأسراره " لو سألوا أبي لا يعرف، لو سألوا أي فرد من أسرتنا لا يعرف، أنا الوحيد الذي يعرف، هو سرّي أنا. " (2) .

ولم تقتصر تساؤلات الشخصية حول ما يساهم في تشكيل ثقافتها السياسية وحسب وإنما تراها تبحث عن أصول المعارف الجديدة حول كل ما يتعلق بهذه الحياة من تناقضات لتصل إلى ثنائية الحياة والموت ، ورحلة الإنسان بينهما من أجل الوصول إلى السعادة والاستقرار وتتجسد رحلة الشخصية في بحثها هذا من خلال عمله الدؤوب وسعيه لرؤية ملكة النحل أو ملكة الموت كما يسميها " إنها ملكة الأرض التحتية ، تشبه الموت ، بل هي تعيش مع الأموات لذلك تراها تكثر عند القبور . " (3)

إن بحث الشخصية عن ملكة النمل تمثل سعيه لإرضاء فضوله فيما يتعلق بالعالم الآخر " الموت " الذي هو مصدر الخوف والقلق لدى الإنسان ، فالنمل يعيش في باطن الأرض ، وبينه وبينه بيوته التي هي مصدر أمنه ، ويخزن فيها الحبوب مصدر رزقه ، أما باطن الأرض عند الإنسان فهو مكان دفنه وتحلله ليشكل مصدراً غذائياً آخر للنمل . إن هذه الرحلة التي قام بها " الصبي " والتساؤلات الكثيرة خلالها شكّلت ملامح معرفته الجديدة . ونلاحظ انبهار الشخصية وسعادتها باكتشاف كل جديد يساهم في تشكيل وعيها ، لأنه جاء نتيجة سعيها واعتمادها على قدراتها ونرى ذلك عندما يرى ملكة النمل في آخر الرواية : " وشعرت بالسعادة وأنا أرى ملكة النمل لأول مرة لكنني تمنيت أن أراها في غير هذا الوقت . غابت النملة الملكة داخل الشجرة ، وبقي الكثير من النمل خارجها يحرس المكان . " (4) " إن في هذا الوصف تجسيداً فنياً لفكرة تيقن الذات وبلوغ هدفها ، بمشاهدة ملك الموت يهرب من الموت ؛ إنه صراع ثنائية الحياة / الموت ، وبذلك نلاحظ أن فردية الصغير المتسائلة إيجابية الأثر ؛ إذ أن انفتاحه على نفسه في إطار المنظور والمحجوب يحقق التفاعل التكاملي بين الأشياء والشخص . " (5) .

(1) صافي صافي ، الكورية ، ص 63 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ص 119 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 14 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 131 .

(5) علي الخواجة ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكورية " ، (مقابلة غير منشورة) بتاريخ 1 / 6 / 2005

جامعة بيرزيت ، رام الله ، ص 2 .

إن هذه الشخصية تمثل الشعور الجمعي بالحاجة إلى التغيير المبني على الوعي والعمل الدؤوب والاعتماد على الذات والتخلص من العادات السلبية في المجتمع والوهم الشعبي التي كانت من أسباب الهزيمة .

شخصية حامد: وهي الشخصية التي تظهر أكثر وعياً ونضجاً من الصبي رغم أنه يكبره ثلاث سنوات فقط ، وقد شكل الحوار الذي أدارته هذه الشخصية مع الصبي عصفاً فكرياً ساهم في تشكيل الثقافة الجديدة التي سعى إليها ، وقد ورد على لسان الصبي : " كلام حامد يقنعني . لا أعرف من أين تعلم كل هذه الأشياء . " (1) وهو يرافق الشخصية المركزية في رحلة اكتشاف الذات حتى نهاية الرواية، وتبدو شخصية مختلفة عن مجموع الناس في القرية ، ويؤمن بضرورة العمل والاجتهاد من أجل تحقيق الأحلام بدل الذهاب إلى الشيخ من أجل تفسيرها ، كما أنه يساهم مع الشخصية المحورية في وضع رؤية حول تحقيق السعادة التي رآها من خلال تأدية الفرد لدوره في الحياة مهما كانت بساطة هذا الدور .

شخصية العم إبراهيم : وهي الشخصية التي تحظى باحترام الجميع ، وتمتلك القدرة على قيادة مجتمعها بفضل تجربتها وقد ورد في وصفه : " عمي إبراهيم يحاول أن يضيف أشياء أخرى لما يسمعه وحين يتكلم ينصت الجميع . " (2) كما أنها شخصية دينية مؤثرة في مجتمعها وتعمل على توحيد جهودهم وتنظيم أدوارهم وقد برز هذا الدور أثناء محاولة أهل القرية إنقاذ الدبابة المقلوبة على الطرق . ويصفه الراوي قائلاً : " أعجبت بطول عمي إبراهيم وعرضه ، كان عملاقاً حتى وهو يلبس سرواله الطويل وفانيلته البيضاء كان يظهر تحت ضوء القمر وهو يركع ويسجد . " (3) .

وهو يشكّل مصدراً هاماً من مصادر الذاكرة في قريته ، فهو يسرد للأهالي تاريخ النكبة ويعدد لهم أسماء القرى التي دمرها الاحتلال بيت نبالا والعباسية (4) وطيرة دندن (5)

(1) صافي صافي ، الكوربة ، ص 53 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 30 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 41 .

(4) إحدى قرى قاء يافا الكبيرة ، ويقع بالقرب منها مطار اللد ، بلغ عدد سكانها سنة (1945) (5650) نسمة دمرها الأعداء سنة (1948) ، وأقاموا عليها مستعمرة " أيهود " . ينظر: محمد شراب ، معجم بلدان فلسطين ، ص 516 .

(5) قرية تقع شمال شرق الرملة ، كان بها سنة (1945) (1290) نسمة ، وفي سنة (1949) أقام اليهود على موقعها " طيرة يهودا " . ينظر : محمد شراب ، م . ن . ، ص 511 .

والسامرية⁽¹⁾ والحديثة⁽²⁾. وهو لا يشارك الناس أو هامهم بأن عشر قذائف من الدبابة كافية لتدمير (تل أبيب) ويرد في هذا السياق : " انسحب عمي إبراهيم من الأحاديث الجارية التي لا تناسب تماماً كما بدا لي مع ما يفكر فيه ، فهو لم يشارك فيها . " ⁽³⁾ وقد أثرت الهزيمة في هذه الشخصية أيضاً فنراها تعمل على تحطيم المذيع الذي يمثل الإعلام العربي المضلل في تلك المرحلة والذي يقوم على الشعارات العظيمة التي لا تمت إلى الواقع بصلة : " يلقي عمي إبراهيم بالكيس على الأرض بكل قوته يفتح الكيس، يخرج المذيع ويحمل حجراً كبيراً ، ويضرب المذيع بكل قوته و فهد بلآن يصرخ صح يا رجال، ويرد عليه الكورس " أيوه صح وعمي إبراهيم يستمر في تحطيم المذيع ويصرخ بأعلى صوته هو الآخر " صح يا رجال .. صح يا رجال . " ⁽⁴⁾

شخصية جامع : وهي شخصية مستغلة ، وكانت منبوذة من أهل القرية لسمعتها السيئة فقد ورد على لسان أهل القرية : " لا تصدقوه ، هو سيستغل فراغ البيوت من أصحابها ليسرقها أحكموا إغلاق بيوتكم . " ⁽⁵⁾ ونراهم يستبعدون أي دور له أثناء بذل الجهود من أجل إنقاذ الدبابة أما تأثير الهزيمة على هذه الشخصية فقد كان إيجابياً أيضاً ؛ فبعد أن تعرض للإذلال على أيدي قوات الاحتلال أصبح الأهالي يتضامنون معه ، وأصبحوا جميعاً يشعرون بضرورة توحيد جهودهم لمواجهة الخطر الأكبر المتمثل في الاحتلال فقد ورد على لسان الراوي : " لم يشكوا في جامع هذه المرة ، يكفيه ما هو فيه " . وقد أصبح أكثر التصاقاً بالناس لشعوره بوحدة المصير .

شخصية القائد والجنود : وقد ظهرت صورة الضابط العربي " سعيد" تدل على خبرته العسكرية واستعداده للبذل والتضحية في سبيل انتصاره في المعركة ، ولكنه وجنوده لا يملكون القرار وإنما ينفذون سياسات بلادهم وأوامر قياداتهم . وتصبح العلاقة بين هؤلاء الجنود وأهالي القرية أكثر وضوحاً واحترماً بعد أن لاحظ كل طرف منهم استعداد الآخر للعمل والتضحية .

(1) قرية تقع إلى الجنوب من مدينة بيسان ، كان بها سنة (1945) (250) نسمة ، دمرها الأعداء وشتتوا أهلها ينظر : محمد شراب ، معجم بلدان فلسطين ، ص 441 .

(2) بمعنى الجديدة ، تقوم على القرية التي كانت تقوم عليها قرية (حاديد) الكنعانية ، وهي بمعنى (حاد) ، تقع إلى الشمال الشرقي من اللد ، أجلى اليهود أهلها سنة (1948) وبنوا على أرضها (حاديد) . ينظر : محمد شراب ، م . ن . ، ص 291 .

(3) صافي صافي ، الكوربة ، ص 40 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 104 .

(5) صافي صافي ، م . ن . ، ص 103 .

ولعلَّ في طريقة موت الجندي مروان وطريقة دفنه إشارة إلى حالة التفكك التي سادت بين الدول العربية في ذلك الوقت حيث تهشم رأسه تحت الدبابة التي كان يقودها وتم دفن جسده في مكان آخر " الرأس أثار الأحران ، دفع بذكريات الموت والزمانة والجنديّة إلى السطح ، والآن يدفن مروان بالتقسيت ، ما أصعب ذلك . " (1) وقد أثرت المدة الزمنية القصيرة التي قضاها الجنود في البلدة إيجابياً على العلاقة بين الضابط العربي والسكان ، ووعدهم أن تكون العلاقة معهم في المستقبل قائمة على الصراحة والوضوح .

الدبابة والمدفع : وقد اختصر الكاتب الآمال والأمني التي علقها الشعب الفلسطيني على كل من الدبابة والمدفع ، فقد وردت العبارات التي تدل على التحام الناس بهما ليكونا شيئاً واحداً ويشتركا في المصير نفسه ، فقد ورد على لسان الراوي : " تعلقت روحي بماسورة المدفع التي لم أستطع تقدير طولها ، أظن أنها طويلة وحسب ، رأيت المستقبل يخرج ممن فوهتها ، رأيت قرينتنا من خلال فتحتها التي لم أرها بدقة . " (2) وقد بلغت شدة التعلق بهما أن أسبغوا عليهما صفات إنسانية فالمدفع كالعضو الذكري الذي " سيقوم بمهمته ويخلق حياة جديدة " (3) والدبابة كالأم التي أوقعها ابنها (المدفع) كيف يكون شعور الأم وهي لا تستطيع الحراك ، وابنها ممدد بجانبها (4) وكان تغلب (الكورية) على الدبابة تعزيراً لخاتمة الإنسان الفلسطيني الذي جلدته واقع اللجوء القاسي ، وأغرقه أمل واهم في بحر الهزيمة ، في ماضيها ، وفي حاضرها ، في زمن القطب العالمي الواحد الذي وجد أدواته المحلية على امتداد جغرافيتنا الحبيبة . " (5) .

• المكان

يصف لنا الراوي مسيرته من بيت اللو - إحدى قرى رام الله - إلى المدينة ، وتنتسح لوحة الأمكنة من خلال رحلة الراوي المادية والنفسية ، فتظهر المزيد من القرى التي تكثرت فيها مقامات الصالحين والأولياء الذين يشكلون جزءاً من حياة الناس الروحية . " نظرت إلى الغرب ، فإذا ببعض بيوت دير عمار وجمالاً تبدو من بعيد . ويشرف علينا جميعاً الجبل البهيّ ، جبل النبي غيث بأشجار السرو التي تعاليه ، وتحيط بمقام أحد الصالحين . جبل عالٍ ، مثله مثل الشيخ الذي يلبس عمامة خضراء على رأسه .

(1) صافي صافي ، الكورية ، ص 76 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 33 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 34 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 58 .

(5) علي الخواجه ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكورية " ، (مقابلة غير منشورة) ، ص 3 .

كما ويطلّ علينا المكان الضحية الذي تعرض للتدمير من قبل الاحتلال حاضراً في أذهان الناس والأجيال الناشئة ، وذلك من خلال التأريخ الشفوي لمن شهدوا هذه الفاجعة والذي أصبح طقساً من طقوس التربية عند الأسر الفلسطينية المهجرة ومن ذلك ما ورد على لسان الراوي : " أظن أنني لا أحتاج دليلاً ليقول لي هذه بيت نبالا فأنا سأعرفها من خلال بساطتها ، ومن خلال طيورها ، ومن خلال ينابيعها ، يكفي أن أرى اللون الأخضر يغطي الأرض فأصرخ إن هذه هي قريتنا . " (1)

كما تظهر المدينة رام الله والتي ترمز إلى الانفتاح على العالم والانطلاق من المكان البكر الساذج إلى المكان الأرحب الذي يساعد على فهم أكثر عمقاً للحياة " تساءلت بيني وبين نفسي : لماذا نعيش في هذه القرية ؟ إذا كنت أريد أن أفهم الحياة ، وأريد أن أحدد دوري فيها لماذا لا نرحل إلى رام الله ؟ تمنيت ذلك ، عندها سألتحق بالمدارس هناك ، وأحاول أن أتعرف إلى الناس هناك وسأقرأ العديد من المناشير هناك . " (2) .

كما يظهر التآلف والانسجام بين الشخصيات والمكان ، ويظهر ذلك من خلال قدرة الشخصيات على تفسير سلوك الحيوانات وطباعها، وكأنها تفهم لغتها وقد ورد ما يشير إلى ذلك في حديث الراوي : " فأمي تطرب لصوت الحمام ، تطرب إلى برجمتها وتحزن لجوحها على صغارها الذين فقدتهم ، تقول يا جوختي حطيتها ما لقيتها ، وسمعتها تقول حين تسمع القطط تموء في نهاية الشتاء إنها تشبط وحين تأتي في الليل تقول : افتحوا الباب لها ، إنها تشعر بالوحدة وحين تموء في الداخل ، تقول : أخرجوها ، تود قضاء حاجتها . " (3) كما يلجأ الناس للاختباء في شجرة الزيتون ، وهي إحدى رموز المكان الراسخة فيه عبر الأزمنة المختلفة ، وهي المكان الآمن حين تصبح باقي الأمكنة مهددة بالخطر " اختبأنا تحت شجرة الزيتون، التصقنا بساقها ، وكان ساقها كبيراً ومجوّفاً وله ما يشبه الباب ، دخلنا منه ، أصبنا داخل الساق ، ربما كان خمسة داخله . " (4)

كما أن المؤلف يقيم من خلال (الكوربة) دنيا تخيلية يعمل فيها حدثه الرئيس ، وهو واقع قائم كمنعطف مروري في طريق بيت اللو ، ولكن ما يميزه في العدول عن الواقع الحرفي هو قدرة الكاتب على جعل هذا المكان يمتلك فاعلية مؤثرة في الشخص ، كما أن أهمية هذا المكان تكمن في " قصيدة الكاتب المستهدفة بإيهامه بحقيقة الحدث من حيث تأويله الفكري ، وتداعياته النفسية على مستوى الكشف عن عمق مأساة الأنا الفلسطينية في بعدها الفردي والجمعي . " (5) .

(1) صافي صافي ، الكوربة، ص 58 .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 130 .

(3) صافي صافي ، م . ن . ، ص 103 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 85 .

(5) علي الخواجه ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، (مقابلة غير منشورة) ، ص 4 .

• الزمان

" لقد ظلت مشاهد التشرد ووقائع المعاناة تتردد بين الحين والآخر في العديد من الأعمال التي تعالج القضايا الوطنية والإنسانية ، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الواقع الراهن أو باعتبار الراهن امتداداً لها ، سواءً على صعيد العلاقات العامة بين الأفراد أو على صعيد مواقف الشخصية الواحدة وسلوكياتها وأنماط تفكيرها . " (1) .

تبدأ الرواية زمنياً من نهايتها حيث تصف الراوي " الفتى " على مقاعد الدراسة في مدينة رام الله ، وهو يتلقى درسه الأول بعد هزيمة عام 1967 ويظهر ما يشير إلى تطلع الراوي نحو مرحلة جديدة تتجه فيها الثقافة والتعليم إلى النضج والى تناول القضية الفلسطينية من جميع جوانبها ، ويظهر ذلك من خلال أسئلة المعلم غير التقليدية عن الحضارة النطوفية والتاريخ . كما يظهر ما يشير إلى المرحلة الجديدة من خلال الإيحاء، حيث وصف الراوي رحلته من القرية إلى المدينة في جوٍ ماطر كأنه يغسل الماضي ليمهد لحاضرٍ جديد: " صحت في السائق أن يتوقف دون فائدة ، فإذا علي يقول لي بهدوء . لماذا تصرخ ؟ إن المطر يغسلنا ، لن نحتاج أن نغسل حين نصل هناك قلت : لكنه يبيل الأغراض . قال وهو يغطي رأسه ويبسم ، إنه يغسلنا أيضاً ، فنحن مقبلون على حياة جديدة . " (2) . ثم يبدأ الراوي بالرجوع في ذاكرته إلى الزمن الماضي ليصف أحداث الحرب ، فتبدأ رحلة التذكر وسرد التفاصيل بيوم الاثنين ظهراً وتنتهي بيوم الخميس ظهراً " إن تكتيكاً كهذا - يقوم على تفتيت الحدث في زمكانيته - يقوّي في المتلقي رغبة التواصل ويخلصه من نمطية التسلسل الطبيعية التي تشكل عائقاً نفسياً يحد من التواصل والتفاعل ، ويبعث على السأم والضجر ، ويقتل روح التدبر ، ويضعف عملية الربط وتجميع المعطيات العلانية بين عناصر العمل الروائي . " (3) .

لقد انتقل الراوي ونقلنا عبر أزمنة حملت أسباب المأساة والهزيمة عبر تساؤلات محمومة في رحلة لاكتشاف الذات وبنائها ، وهو بذلك يستفز فينا الأسئلة حول الواقع الذي نحياه بعد عشرات السنين وحول الوعي الذي كان من المفترض إعادة تشكيله ، والدور الذي يفترض من الفرد أن يلتزم بتأديته من أجل إسعاد الآخرين . إن هذه الرواية " تلتحم بقلق الإنسان الفلسطيني في جوهر وجوده ، ذلك الوجود الذي يعكس قلق المخاطرة في تحقيق الذات والإجابة على سؤال الهوية الفلسطينية في زمن محوها وتغييبها . " (4) .

(1) سليمان الأزري ، فلسطين في الرواية الأردنية ، ص 78 .

(2) صافي صافي ، الكوربة ، ص 9 .

(3) علي الخواجة ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، (مقابلة غير منشورة) ، ص 1 .

(4) فخري صالح ، في الرواية الفلسطينية ، ص 34 .

• الحكمة والصراع :

نلاحظ اختفاء الحكمة الروائية التقليدية من هذه الرواية من حيث الاعتماد على التسلسل الزمني ومنطقية الأحداث ، لتحلّ محلها حبكة داخلية ذات بناء فني يعتمد على تجميع اللقطات بدقة وعناية في زمن متداخل. " (1) ، وقد اهتم الكاتب بالشخصية المحورية بكل عواملها النفسية والفكرية لأن هدفها تركّز حول الاستكشاف ، " والاستكشاف في القصة لن يكون مقنعاً إذا لم تقم به شخصيات تتكامل مع القصة ، فالشخصية هي لولب الحدث ووسيلة الاستكشاف وقد تكون الشخصية نفسها هدف الاستكشاف . " (2) . وقد تعددت الأحداث وفق الاسترجاع الفني للشخصية المحورية في رحلتها لاكتشاف ذاتها ، وتكوين ثقافتها الخاصة والتخلص من أنماط الوعي الجاهزة والتسليم بالنتائج دون قدرة على الربط والتحليل . " والحدث في (الكوربة) يتقنت ثم يتجمع في بؤبؤ الشخصية ، وفي مركز تفكيرها ، والكاتب - بهذا التصنيع - يعمق بانحياز تام جزئيات الحدث لأنه يأتي في المقام الأول بضمير المتكلم ، لسان الراوي ، الذي تنطلق منه الأحداث وتعود إليه معبرة عن وجهة نظر ، تتراءى للقارئ في شكل تساؤلات تغطي مساحة واسعة من جغرافية النص . " (3)

أما الحادثة المحورية التي تمثلت بانقلاب الدبابة والمدفع فقد كانت البوابة التي ولج الكاتب من خلالها لنقد أنماط فكرية وسلوكية في مجتمعه ، وقد جاء هذا الانقلاب إبان زمن الحرب ، حيث يجلس أهالي القرية ينتظرون نتائج المعركة ويتابعونها من خلال وسائل الإعلام دون أن يكون لهم دور يذكر في المعركة التي ستحدد مصائرهم ، متخذين من الوهم وسيلة لخلق آمالهم وتطلعاتهم نحو النصر والحرية ، كما أن قائد الجنود اتخذ قراره بأن يسلك الطريق المعبدة التي رصفها الإنجليز ولم يسلك الطريق الترابية وقد جاء تفسير ذلك في الرواية : " إن الطرق الترابية غير المعبدة هي الطرق الشعبية ، طرق الناس ، أما الطرق المعبدة فهي الطرق الرسمية ، طرق الحكومات . " (4) وهو ما يشكل انتقاداً إلى النظام العربي الذي قرر استثناء الجهد الشعبي وخبرته العميقة بالمكان من المعركة، ما شكّل أحد أسباب الهزيمة.

وقد أثبت هذا الجهد فاعليته حيث استطاع بإمكانياته البسيطة تصحيح وضع الدبابة العربية المقلوبة على المنعطف المروري في إشارة إلى أن جهود الناس وأدوارها مهما كانت بسيطة قد كانت في غاية الأهمية من أجل اجتياز ذلك المنعطف السياسي والجغرافي المصيري في حياتهم .

(1) علي عودة ، الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، ص 54 .

(2) علي عودة ، الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، ص 54 .

(3) علي الخواجة ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، (مقابلة غير منشورة) ، ص 5 .

(4) صافي صافي ، الكوربة ، ص 65 ، 66 .

أما الصراع فقد كان صراعاً داخلياً مستمراً تجلّى في مسيرة الشخصية المحورية ، وكأنه نوع من محاسبة الذات وتقريعها ، والتجول في بواطنها من أجل إعادة صياغتها من جديد لذلك نرى غياب الصراع الخارجي أو الحسيّ ، فقوات الاحتلال قد دخلت إلى القرية دون مقاومة وقامت كذلك بعمليات التدمير والإذلال دون اعتراض يذكر ، وكأنه يأتي نتيجة طبيعية لا تدعو إلى الصدمة في ظلّ مجتمع لم يعتمد على ذاته ، ولم يستغلّ قدراته ، ولم يتخلص من عاداته السلبية وأوهامه وسطحيته .

الفصل الثالث

ظواهر فنية في روايات صافي صافي

- اللغة
- تقنيات القص الروائي
- التناص
- دلالة العنوان وصورة الغلاف في الروايات

الفصل الثالث - ظواهر فنية في روايات صافي

إن العلاقة بين الشكل والمضمون هي علاقة تكاملية حيث أن تذوق العمل الأدبي يأتي وفقاً للتمازج الطبيعي بينهما ، وقد جاء هذا الفصل هنا بقصد الدراسة والتحليل " فالكلام عن مضمون الرواية وكأنه شيء مستقل عن الشكل يعني أننا نخرج الرواية من ميدان الفن نهائياً ... ، فالفن لا يخضع لأي عبودية من هذا النوع ولا لأي وظيفة حددت مقدماً . " (1) وقد لجأت إلى هذا التقسيم لا لفصل الشكل عن المضمون وإنما تسهيلاً للدراسة ، ومن مظاهر الشكل الفني في روايات صافي :

• اللغة

ويمكن تعريف اللغة بأنها " كائن اجتماعي حضاري ينمو ويتطور بتطور المستعمل ويتطور الثقافة لدى المتلقي " (2) وهي أهم ما ينهض عليه بناء الرواية الفني ويجب على الروائي توظيف جملة من المستويات اللغوية التي تتناسب أوضاع الشخصيات الثقافية والاجتماعية والفكرية وقد استخدم الكاتب مستوى معيناً من اللغة يتناسب مع موضوع رواياته حيث تنوعت الأساليب بتنوع الأفكار والمضامين. ونلاحظ أن لغة الراوي هي لغة سهلة وواضحة تتناسب مع الموضوع السياسي والاجتماعي للروايات.

وقد تنوعت مستويات اللغة ؛ فنجدها ملائمة لثقافة الكاتب / الراوي ولا تتوافق مع ثقافة الشخصية أو مستواها الثقافي كما في رواية " الحاج إسماعيل " ما ورد على لسان الأب - وهي شخصية بسيطة من حيث المستوى الثقافي-: " لا تقل في يوم من الأيام أنك الأقوى ، ستجد من هو أقوى منك ، لا أفصد الناس فهؤلاء تستطيع معاركتهم ، بل أفصد الحياة كما ترون . " (3) ويرد على لسان أخت الراوي البسيطة من حيث ثقافتها : " وحين أكلتني الألسن بسبب عملي كمرضة زوجني لعارف . " (4).

ونجد أن اللغة تلائم الوضع الثقافي للشخصيات في مواضع أخرى من الروايات فنجدها لغة فصيحة كما ورد على لسان " خالد " المثقف في نقده لمدعي النضال: " يلزمكم فقط مقعد وثير تجلسون عليه، وتضعون رجلاً على رجل ، وأنتم تلبسون الياقات البيضاء وربطات العنق ، تجلسون وتحاولون جعل من يجلسون حولكم جماهير . " (5) .

(1) آلان روب جرييه ، نحو رواية جديدة ، ص 50 .

(2) عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، (بحث في تقنيات السرد) ، ص 123

(3) صافي صافي ، رواية " الحاج إسماعيل " ص 103 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، ص 85 .

(5) صافي صافي ، رواية " الحلم المسروق " الفصل الأول ، ص 1 .

ولعل سمة اللغة المشتركة في جميع روايات الكاتب هي ملاءمتها للحالة النفسية للشخصيات فنجد أن الألفاظ مناسبة للمواقف ومعبرة عنها فقد ورد على لسان ماجد لحظة مواجهة رفاق حزبه باعترافه الذي يعتبر جريمة في نظر الحزب: "أصبت بالهلع في داخلي تلعثمت في البحث عن لعابي . " (1) كما يصف حالته النفسية بعد أن نبذه الرفاق في السجن " عدت إلى فراشي محاولاً ابتلاع الألم فلم استطع . " (2) فنجد أن الكاتب قد اهتم بالكلمة ودلالاتها وجرسها دون الاكتفاء بنحوياتها واستعمالها وصولاً إلى الصورة وعبر المعنى من المفردة بذاتها إلى المفردة بما هي عليه ، لحظة في سياق أو قطبة من نسيج . " (3) كما نجد أن العبارات الشعبية واللغة العامية تقل في هذه الرواية بسبب سيطرة الروح الثورية المثقفة والتي تسعى إلى إكساب الرواية صفة الواقعية (4) فالكاتب حين يستخدم اللغة " إنما يعبر عن مشاعره وآماله المستقبلية كما أنه في نفس الوقت يعبر عن الحالة النفسية للأمة . " (5) .

وقد وردت اللغة عامية في بعض المواضع من الروايات لتعبر عن وعي الشخصيات وتزيد من شعور المتلقي بالواقعية لا سيما الروايات التي مزجت الأسطورة بالواقع كرواية اليسيرة وشهاب ، حيث امتازت اللغة فيهما بالبساطة والوضوح واستخدام بعض الألفاظ غير المستساغة اجتماعياً ، ليلتقي ذلك مع الغاية التي ابتغاها الكاتب والمتمثلة في إلقاء الضوء على الجوانب المعتمة أو المتخفية في الحياة الثقافية والاجتماعية. فقد ورد على لسان أهل اليسيرة في وصف " أم فطيعة: " هذه العجوز ما زالت طرية النفس . وقال آخرون : بل هي أخت الرجال . تصارعهم وتستطيع التغلب عليهم . وقال آخرون : هذه أم فطيعة لا يستطيع أحد لومها حتى لو شخّت في الحارة . " (6) " ولا نستطيع القول أن وجود العامية يعكس نقصاً في المحصول اللغوي بل هي محاولة لتطويع اللغة للتعبير الروائي، إذ يصبح الناس ومشاكلهم اليومية مادة للأدب. " (7) .

ونجد أن المستوى الغالب في اللغة يتمثل في المزوجة بين الفصحى والعامية ما يعطي للنصوص قدراً كبيراً من الواقعية والتشويق . وتأتي هذه اللغة أكثر دقة في التعبير عن مجتمع الرواية " فاللغة الفصحى لا يمكن أن تناسب جميع الشخصيات وأفقهها الفكري وثقافتها ويبقى الحل

(1) صافي صافي ، رواية " الصعود ثانية " ، ص 54 .

(2) صافي صافي، م . ن . ، ص 79 .

(3) نبيل سليمان ، فتنة السرد والنقد ، ص 127 .

(4) محمد يوسف عليان ، رسالة ماجستير " الفن الروائي عند ليانة بدر ، القدس : جامعة القدس ، سنة 2002 ، ص 106 .

(5) شكري عياد ، الأدب في عالم متغير ، ص 36 .

(6) صافي ، صافي ، رواية " اليسيرة " ، ص 46 .

(7) عبد الله رضوان ، البنى السردية ، دراسات تطبيقية في القصة الأردنية ، ص 72 .

الأقرب إلى الصدق الفني والأكثر حرصاً على اللغة القومية هو استخدام اللغة المبسطة الفصيحة. (1).

ونجد أن اللغة في رواية اليسيرة قد جاءت " كرابطة قوية تعمل على توحيد الفكر البشري وهذا ما قدمه لنا صافي حيث وجدنا في المعنى اللغوي أداة الوصل بين القريب والبعيد والحاضر بالماضي بالمستقبل ، وهو ما نلاحظه جلياً في رواية اليسيرة ومفاتيحها (2) . فنجد أن اللغة فيها " مكتفة ، وبالذات في الجزء الثاني (المفاتيح) وكأن الكاتب يعمد إلى خلق لغة خاصة ما يظهر أنه صاحب ثروة لغوية فقد استطاع إظهار حضارة اليسيرة ، كما صورها بوساطة تلك اللغة ، وكأنه يكتب سفيراً خالداً وملحمة متجددة . " (3)

وقد سادت ظواهر لغوية أخرى في روايات الكاتب منها :

أ- ظاهرة التصوير السردية : ومن ذلك التصوير الوصفي كما ورد على لسان الراوي " خطوات إلى الداخل فوجدت أبي وأمي ، سلمت عليهما ، قبلتهما دون أن أشعر بحرارة اللقاء كان اللقاء فاتراً ، فرغم ابتسامتي أبي ودموع أمي ، إلا أنني لم يثيراني ، وبدا عليهما الفرح ولكن الحزن نبض في كل عروقي . " (4) . كما نجد التصوير الذهني كما في الصورة التي جاءت على لسان زوجة الشهيد خالد: " بكى شعر بعدم قدرته على القيام بواجبه تجاهي ، وشعرت أنا كذلك بعدم قدرتي على القيام بواجبه ، سألته عن سبب وجوده ، أخبرني بأن زوجته ولدت طفلاً . فرحت له أيضاً . " (5) وقد تعاونت هذه الصور الرامزة على الإيحاء بالدلالات المختلفة للأحداث.

ب- الاختزال والدلالة : حيث نلاحظ قصر الجمل وتتابعها وكثافة دلالتها في المواقف التي يتصاعد فيها التوتر لتساهم اللغة في وصف الحالة النفسية للشخصية فنجد أن الكاتب يؤدي العبارات وقت الانفعال ببساطة وبسرعة ، وفي لغته تركيز شديد في التعبير بدل الإسهاب والإطناب ومن ذلك وصف مشهد التعذيب على لسان ماجد : " صرخت من الألم ، لم يفدني ذلك بشيء ، ازدادت

(1) يوسف ، حطيني ، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية ، ص 222 .

(2) إبراهيم الفني ، مفاتيح صافي صافي واليسيرة ، جريدة الأيام ، 16 / 4 / 1998 . ص 15 .

(3) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 114 .

(4) صافي صافي ، رواية " الصعود الثانية " ، ص 129 ، 130 .

(5) إبراهيم العلم ، بناء الصورة في روايات صافي صافي ، مجلة كنعان ، العدد 79 ، آب ، 1996 ، ص 61 ،

الضربات ، تكسرت الخيزرانان على قدمي فتعض اللحم ، انهض ، أركض ، أصحو على الماء ينسكب على رجلي ووجهي وجسدي . " (1) .

ت-المزوجة بين أساليب الخبر والإنشاء : وذلك حسب الموقف الذي تعيشه الشخصية فنلاحظ أسلوب التعجب والاستفهام والنداء في مواقف التأمل والانفعال والأسلوب الخبري الذي يناسب الوصف والشرح والتفسير. وقد وردت بعض العبارات التي زاوجت بين الأسلوبين لتضفي عليها جمالاً وانفعالاً واضحين كما ورد على لسان زوجة الشهيد نجوى: "إنها القوة يا خالد الحجر أرسل رسالة ، لكن رسائل السلام تضيع في الطريق ، هل هذا عالم ليس لنا يا خالد ؟ الحجر ليس قوة كافية لنيل الحقوق . الأمريكيون والإسرائيليون يملكون قوة ويملكون إعلاماً." (2) ولا تخفى القيمة الدلالية للمزوجة بين هذه الأساليب في العبارة الواحدة من حيث أنها تضفي جواً من الترقب والحذر وتزيد من التوتر الذي يجعل المتلقي أكثر التصاقاً بالعمل الروائي بل ومشاركاً به .

وقد وظّف الكاتب هذه الأساليب لتناسب موضوع الرواية ؛ حيث طغى الأسلوب الإنشائي في الروايات التي ترتد فيها الشخصيات إلى عوالمها الداخلية في محاولة منها لفهم المحيط الخارجي أو لوصفه ونفده كرواية (الحلم المسروق) و (الصعود ثانياً) و (الكوربة) ؛ ومن ذلك ما ورد على لسان الراوي في نفده للتناقض بين فكر الأحزاب السياسية وممارستها : " الذي يصل يعش على حساب الآخرين ، كيف ؟ ألا يمكن أن يعيشوا معاً ؟ لماذا يجب التخلص من الآخرين . " (3) . أما في رواية (الكوربة) فقد برزت فيها لغة الاستفهام بشكل واضح ليتلاءم ذلك مع مضمونها الذي يقوم على محاولة اكتشاف الذات ومحاولة خلق وعي جديد ، وهي محاولة تقوم على المحاولة والتجريب والبحث والتساؤل ، كما تلاءم ذلك مع جو النقد الذي قصده الكاتب لطريقة التفكير السائدة في تلك الفترة (1967) . ومن ذلك حديث الراوي حول الهالة الأسطورية التي يرسمها الناس للقائد : " عجبت لما قاله حامد واستكبرت أباه الذي ساق دبابة الشقيري وتساءلت : لماذا دبابة الشقيري هي التي فيها كل تلك الميزات ؟ لماذا لا يصنعون دبابات كلها مثل القطط . " (4) .

ث- التكرار : وقد وظفه الكاتب لتأكيد فكرة ما في رواياته وترسيخ دلالة معينه في ذهن القارئ أو لقطع رتابة السرد والتنوع فيه وقد جاء هذا التكرار على شكل ألفاظ وجمل ومواقف ومن

(1) صافي صافي ، رواية " الصعود ثانياً " ، ص 60 .

(2) صافي صافي ، رواية الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 19 .

(3) صافي صافي ، رواية " الصعود ثانياً " ، ص 104 .

(4) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ، ص 62 .

ذلك : تكرار لفظ " السجن " في رواية " الصعود ثنائية " ثماني عشرة مرة في أربع صفحات من الصفحة (118 - 122) وذلك لوصف حالة السجن والحصار الحقيقي والنفسي والجمعي كما تكرر لفظ " الكوربة " ست مرات في صفحتين (46 - 47) وذلك لتأكيد دلالتها من حيث كونها المفترق المصيري في حياة الأمة . أما الموتيف (motif) " وهو جزء من العمل الأدبي (كلمة ، لفظة ، فكرة) يتكرر أكثر من مرة بسبب أهميته عند المؤلف ، وتزيد هذه المترددة من اتصال القارئ بالعمل الأدبي حيث يحس وحدة هذا العمل وإيقاعه . " (1) ونجد أن الفكرة التي تكررت في ثلاث روايات تقوم على نقد الفكر الشعبي الذي يقوم على السطحية والجهل بدل العلمية والموضوعية وربط ذلك بأسباب الهزائم المختلفة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني والأمة العربية . وقد ترددت هذه الفكرة في كل من (اليسيرة) و (شهاب) و (الكوربة) وذلك لأهميتها وتأثيرها على حاضر هذه الأمة ومستقبلها .

كما تكررت اللازمة الروائية : " ما جابش شهاب القوشان " على لسان أبي عمي في رواية (شهاب) عشر مرات في الصفحات من (84 - 90) ، وذلك لتأكيد المغزى الروائي حول ضرورة اهتمام الناس بما يثبت ملكيتهم لأراضيهم وضرورة توحيد الجهود حول هذه الغاية في الوقت الذي تتعرض فيه هذه الأراضي للمصادرة والسرققة بدل أن تنصب الجهود من أجل تحقيق المصالح الفردية وتعزيز الانقسامات الداخلية والذي تمثل في الصراع بين القرية والمدينة . ومن هنا نلاحظ أن " التكرار إذا وظف بدقة وإحكام يشكل إيقاعاً منتظماً يحمل إيحاءً جديداً ومختلفاً بحسب الأثر الذي يتركه هذا التكرار في كل مرة . " (2) .

ج- التشبيه : وقد وظفه الكاتب من أجل إغناء المشهد السردي ؛ فتبدو بعض المقاطع السردية ك لوحات تصويرية توضح الحالة النفسية للشخصيات ، وأثر هذه الحالة في تصوّر المكان أو الزمان أو كليهما ، وقد استمدّ الكاتب تشبيهاته من البيئة التي تعيشها الشخصيات ، ما زاد من واقعيتها .

وقد تكرر السجن كمشبه به في العديد من الروايات موضوع الدراسة ، ومن ذلك قول الراوي في معرض نقده للأوضاع السائدة في المرافق الصحية الحكومية : " أبو محمد أطلقوا سراحه ، هو وابنه أفرجوا عنهما . " (3) ، كما ورد لبيان حالة الضيق والحصار النفسي الذي تعيشه الشخصية ، ومن ذلك قول الراوي : " أنا الآن أعيش في سجن ، والدي الحاج إسماعيل هو

(1) فاروق مواسي ، الجنى في النثر الحديث ، ص 410 .

(2) يوسف حطيني ، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية ، ص 233 .

(3) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 63 .

الذي وضعني في هذا السجن . " (1) ويستطرد الكاتب في إجراء التشبيه فيشبهه مُرافق المريض بالمنازل وذلك إمعاناً في نقده لحالة المرافق الصحية حيث يقول : " أن تكون مرافقاً يعني أن تكون مناضلاً ، بنفس الوتيرة . " (2) . ويأتي السجن كمشبه به في الحلم المسروق للدلالة على الحالة النفسية السيئة كقول الراوي : " الإذاعة الإسرائيلية طلبت منا جميعاً أن نتابعها ، إنها تحاصرني ، تضعني في سجن رهيب . " (3) كما ورد ذلك في تصويره للحياة في المخيم بعد عودته من الخليج : " لم أتصور أنني سأعيش حياة كهذه ، فأنا الآن مجرد سجين في بيتي مثل الآخرين . " (4) .

وفي رواية (الصعود ثانياً) يظهر السجن كشبح يطارد فكر ماجد ويحرمه النوم والطمأنينة . " وضعت رأسي على الوسادة ، حاولت أن أبعد شبح السجن فلم أستطع . " (5) . وتأتي هذه الكثافة في توظيف صورة السجن لتصوير حالة المعاناة الفردية والجمعية التي يعيشها هذا المجتمع ، كما أن صورة السجن حاضرة في أذهان معظم أفراد الشعب الفلسطيني بعد أن عايشوها فعلاً لا تصوراً .

ونجد التشبيهات المستمدة من الواقع والبيئة التي تزيد من واقعية العمل الأدبي وتساهم في إثرائه اللغوي كتشبيهه ماسورة المدفع بالعضو الذكري حيث يقول الراوي : " فما ماسورة المدفع بالنسبة لي إلا عضو المدفع الذكري ، سيقوم بمهمته ويخلق حياة جديدة ، كان طويلاً أطول من عضو حمار . " (6) ويأتي هذا التشبيه ليعبر عن آمال اللاجئين التي علقوها على القوة العربية التي تمثلت بالمدفع ، بعد أن توقفت مظاهر الحياة لدى هذه الأجيال بعد اقتلاعها من أرضها وتشريدتها في المخيمات ، ويسهب الكاتب في إجراءه للتشبيه كقوله : " الأعضاء الكبيرة من علامات الذكورة والمدافع من علامات القوة والبطش والحياة . " (7) .

" تقنيات القص الروائي "

• **السرد** : " وهو الطريقة التي تُحكى بها القصة " (8) كما أنه " نقل الحادثة من

(1) صافي صافي ، م . ن . ، ص 64 .

(2) المكان نفسه .

(3) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 21 .

(4) صافي صافي ، م . ن . ، الفصل الأول ، ص 11 .

(5) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 122 .

(6) صافي صافي ، الكورية ، ص 34 .

(7) المكان نفسه .

(8) حميد لحداني ، بنية النص السردي - من منظور نقدي - ، ص 45 .

صورتها الواقعية إلى صورة لغوية ويكتسب حيوية باستخدام العنصر النفسي⁽¹⁾ ، ونلاحظ أن السرد قد غلب على أسلوب الكاتب وتضائل مقابله الحوار ، الأمر الذي أتاح له حرية أكبر في تشكيله اللغوي ، وقد تعددت الأساليب السردية لتعدد المواضيع التي تناولها الكاتب ، والزاوية التي وجه بها دفعة أحداثه ، وطبيعة الراوي الذي يسرد الأحداث ، " فالسرد الروائي يمتلك تلك الخاصية التي تجعله ينتقل في الأزمنة من حيث تواليها وتعاقبها كما أن له خاصية أخرى هي الكثافة التي تتجاوز في بعض الأحيان الأزمنة العادية .. فما دام هناك إنسان يشعر بهذا المقدار من الضيق ويريد أن يعترف ، أن يقول كل شيء لكي ينجو ويتطهر . " (2) فنجد في رواية " الحاج إسماعيل " طريقة السرد المباشر وهو أسلوب يتيح للكاتب أن يتتبع جميع الشخص ، وأن يعيش معهم ويعرض كل ما يهمه من تصرفاتهم ، وما تختلج به نفوسهم ، وما يعتدل في صدورهم وما يشترج بينهم من صراع . " (3) ونجد في هذه الرواية السارد الموضوعي العليم ، وهو المطلع على المعلوم والمجهول من تاريخ الحدث الروائي كما انه يعرف أكثر من الشخصية ، ولا يهمه أن يفسر كيفية حصوله على هذه المعرفة ونتعرف من خلاله على الشخصيات وعلاقاتها وأفكارها وآمالها ومخاوفها . (4) ولعل كون الراوي هو ابن الشخصية المحورية قد برر معرفته الكلية للأحداث وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأخيه ، حيث يقول في معرض حديثه عن أخيه : " ها هو شوكت أخي الأكبر ، ها قد وصل ، عشرون سنة في الكويت يعمل موظفاً في وزارة التربية هو الرجل الأول في العائلة ، وهو المسؤول الاقتصادي عنها . " (5) .

ورغم تعدد ضمائر السرد في الرواية إلا أنها استمرت وفق منظور الراوي العليم الذي مهّد فنياً لنهاية الشخصية الرئيسية منذ صفحاتها الأولى، وذلك بقوله : " هذا هو الحاج إسماعيل، إنه ينام الآن على فراش موته ، هو يعرف ذلك دون أن يعترف به ، يقاوم الموت بكبريائه الذي بناه طيلة خمسة وسبعين عاماً . " (6) ولا شك أن تعدد الضمائر في الرواية قد قلل من رتبة القص الأحادي بل إنه ساهم في جذبنا وتعاطفنا مع شخصية الحاج إسماعيل الجبارة ، وذلك عندما أتاح لها الكاتب الفرصة كي تتحدث عن نفسها حيث قال: " من كان يتغلب علي ؟ لا أحد ، الجميع كان يخافني

(1) فاروق مواسي ، الجنى في النثر الحديث ، ص 408 .

(2) عبد الرحمن منيف ، الكاتب والمنفى ، ص 191 .

(3) علي عودة ، الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، ص 96 .

(4) زكي العيلة ، أنماط السرد في الرواية الفلسطينية : (الانترنت)

<http://www.arab-writers.com/?action=showitem&id=2535>

(5) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 50 .

(6) صافي صافي ، م . ن ، ص 3 .

ويحترمني لقوتي ، لم أعد شاباً ، هذه هي الحياة ، شخص يسلم الآخرين تبعاتها ، رجلاي لم تترك جبلاً في كل فلسطين إلا داسته ، وها أنا الآن برجلٍ واحدة . " (1) .

أما الضمير الذي سيطر على السرد فهو **ضمير المتكلم** " الأمر الذي ساعده على طرح الكثير من القضايا التي ما كان يمكن له أن يتعرض لها لولا ذلك ، فكثيراً ما كان يخرج عن الخط الروائي ليعطي وجهة نظره في بعض الأمور اليومية التي بدت أقرب إلى التدايعيات كالتحفظات التي أبدتها الروائي على الممارسات التي تجري داخل المستشفيات ونقد الكثير من العادات والتقاليد التي تتحكم في مسار حياتنا في الكثير من الأحيان . " (2) . ولا شك أن إسقاط ضمير المتكلم يكون معادلاً لإسقاط الذات على الموضوع وتكمن فائدته في أنه يفتح الباب واسعاً أمام المخيلة لتقدم العالم كما تراه . " (3) .

ونلاحظ أن الكاتب قد طور في أدواته الفنية واستطاع الإفادة من الأساليب الروائية الجديدة في أعماله التالية ، حيث برزت ظاهرة الأصوات المتعددة في رواية " الحلم المسروق " فقد تحدثت كل شخصية عن نفسها وعرضت الأحداث من منظورها ، فقد بدأ الراوي بالسرد بضمير المتكلم في الفصل الأول ليتعرف القارئ على أهم المفاصل الروائية من زمان ومكان وحدث رئيس والذي تمثل باستشهاد خالد ، وينتقل السرد بعد ذلك على لسان نجوى زوجة الشهيد ليحتل القسم الأكبر من الرواية " الفصلين الثاني والثالث " لتعرض فيه نجوى حقيقة مشاعرها وما يختلج في أعماقها من مشاعر وصراعات كزوجة ، وأم ، وأرملة ، ليعود السرد بعد ذلك من حيث بدأ على لسان الراوي . وقد ساهم هذا الأسلوب في طرح العديد من الرؤى للأحداث كما ساهم في دفع السامة والملل عن القارئ وفعل عنصر التشويق في الرواية . ومن المواقف التي عرضتها الشخصيات قول نجوى : " ضاعت كل أحلام خالد بالهجوم السلمي على الإسرائيليين مع أول هجوم صاروخي عراقي . " (4) ، كما يبرز ذلك في قول الراوي مروان : " إن السلام بالنسبة لي يعني شيئاً عظيماً وكبيراً ومقدساً وإنسانياً ، لكن ما أسمعهم منهم يعني شيئاً آخر . " (5) . أما رواية (الصعود ثانياً) فقد اعتمدت على تيار الوعي في السرد ويقصد بهذا التيار " داخلية الشخصية على شتى اتجاهاتها من نفس وعقل ، ذكاء وذاكرة ، أحاسيس ورؤى وأفكار ، وجهات نظر ومعارف ومعلومات

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 103.

(2) محمد الحاج ، صافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانياً إلى أين ، مجلة نوافذ ، العدد (5)

1991 ، ص 53 .

(3) عبد الله رضوان ، البنى السردية ، ص 17 .

(4) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 18 .

(5) صافي صافي ، م . ن ، الفصل الرابع ، ص 1 .

تخيلات مستقبلية وحاضرة... وغير ذلك مما يعتمل في داخل الإنسان " (1) وقد مكننا هذا الأسلوب من رصد الشخصية في كل مراحلها وجعلنا نشعر بها تبتنا همومها وإخفاها ونجاحها ، كما أنه أسلوب يناسب طبيعة الرواية التي تدور في أعماق البطل وهو يصارع ضعفه وهوانه ويعطينا الفرصة للإطلاع على رحلة صعوده الذهنية وما يرافقها من مشاعر وتناقضات . ومن ذلك قول الراوي ماجد : هذا هو الاختبار ، إما أن أبقى في القاع وإما أن أصعد كما صعدت من قبل ، مثلي لا يرضى سوى الصعود ، الصعود صعب هذه المرة ، لكنه الخيار الوحيد أمامي حتى أعود إنساناً . " (2) .

ولم يكن يهمل الكاتب تيار الوعي في أعماله السابقة إلا انه لم يوظفه بشكل رئيس في التعرف على الشخصيات واتجاهاتها وأمزجتها؛ ففي رواية الحاج إسماعيل استخدم الكاتب هذا الأسلوب من أجل الإشارة إلى موقف محدد وهو طبيعة علاقة كل الشخصيات بالأب من أجل تبرير جفائها وجمود مشاعرهما تجاهه ، كقول الراوي في حوارها الذاتي: " والدي الحاج إسماعيل هو الذي وضعني في هذا السجن، يجب أن أعيش حياتي بأفضل ما يكون حتى في هذا الوضع . " (3) .

أما في رواية الحلم المسروق فقد ظهر تيار الوعي للكشف عن مظاهر الشخصيات وطبيعة علاقاتها بالآخرين كقول نجوى: " طوال عمري وأنا أتحمّل المسؤولية، لكنني الآن أشعر بها أكثر من قبل ، وددت لو كان خالد بجانبني ، يقبلني ويمسد لي شعري ويقول : مبروك . " (4) .

ويختلف أسلوب السرد في رواية اليسيرة فنجد أن الراوي يترك المجال للشخصيات بأن تتحدث عن بعضها بعضاً ، وخلال ذلك يتعرف القارئ على الأبعاد الفكرية والنفسية للمجموع فهو لا يذكر شخصاً أو حدثاً ما إلا وانطلقت الألسن بالحديث " (5) ، فقد ورد على لسان الراوي : " فإذا سألت أي فردٍ من أهلها حول موضوع ما ، فإنه يروح يسلسل لك كل ما يعرفه وكل ما لا يعرفه " (6) . ونلاحظ أن هذا الأسلوب ملائم للحكاية الشعبية التي نسج الكاتب روايته على إيقاعها فنجد أن التأويل الشعبي قد طال كل جوانب الحياة حتى أنه طال اسم القرية " اليسيرة " الذي لم يسلم

(1) محمود غنيم ، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة ، ص 10 .

(2) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 121 .

(3) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 64 .

(4) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 14 .

(5) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي ، صحيفة الحياة الجديدة ،

ص 15 .

(6) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 22 .

من هذا التأويل لذلك " فإن خصوبة الخيال الشعبي المتوفرة عند أهل اليسيرة كانت أرضاً مهياً لتستقبل الأساطير والخرافات والكثير من الوهم . " (1) .

وقد شكّل تعدد الروايات لازمة من لوازم النص الروائي الذي يذهب إليه الكاتب وهو يطل علينا من وراء شخصية الراوي ، وهذه الإطلاقة قد شكّلت في تراكمها علامة من العلامات التي تكشف المكان أو اليسيرة لا فرق . " (2) . ونجد أسلوب السجع وهو ملائم لأدب الأسطورة في مفاتيح اليسيرة ، حيث جمع الكاتب بين سرد الوقائع التاريخية للحدث بأسلوب الأسطورة ونقل فكرة المزامير وقاعدة الجوقات الموسيقية التي ظهرت في العصر الكنعاني والتي كانت القاعدة الوحيدة التي تقدم النصوص ومعالجة الوقائع الاجتماعية في المجتمع الكنعاني كما نلاحظ أسلوب كليلية ودمنة في تقديم المثل ، وكأنها العاطفة التي تبحث عن الحقيقة وحب الخير كي تكون غاية الحياة . (3) ومن ذلك القصة التي تقدم العظة حول ضرورة أن يكون الإنسان ذاته حيث ورد في المفاتيح : " ولد للأسد من النملة حيوان صغير ، وكان يحمل طبعين أحدهما للأسد الكبير والآخر للنمل الصغير ، أراد أن يأكل لحماً ، فمنعته طبيعة النملة التي تحبّ الحبوب، شعيراً وقمحاً وعدساً أراد أن يأكل بذرة ، فمنعته طبيعة الأسد التي تحب اللحم ، غنمة وبقرة ومعزة . فمات الحيوان الصغير . " (4) فنجد أن الكاتب ومن خلال توظيف لغته الخاصة لا سيما في الجزء الثاني من الرواية وكأنه يكتب سفيراً خالداً وملحمة متجددة ساعده في ذلك خياله الواسع . " (5) .

وفي رواية شهاب -الجزء الثاني من اليسيرة- نجد أن اللغة فيها تحافظ على ذات الهدوء وذات الوتيرة وقد تكلم شهاب بلغة تشبه لغة السارد دونما أية إضافات أو خصوصية، أما لغة السارد فهي لا تختلف كثيراً عن لغة الحكاء ولم يتورّع الكاتب عن استخدام تعابير الحكاء أو (الحكواتي) بحرفيتها. (6) ولعل السبب في أن شهاباً لم يتكلم بلغة خاصة تلائم الحالة الأسطورية التي رسمها له أهل اليسيرة أن الرواية تدور حول سقوط هذه الهالة الأسطورية ، لتتعرى هذه الشخصية من كل مظاهر تميزها المتخيلة ، فنراها تتكلم بلغة تتم عن ضعفها وهوانها حيث ورد الفصل الثالث كاملاً على لسان شهاب بضمير المتكلم ليسرد لنا نزواته وتاريخ انحداره حتى إذا

(1) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي ، صحيفة الحياة الجديدة ، ص 15 .

(2) إبراهيم الفني ، مفاتيح صافي صافي واليسيرة صحيفة الأيام ، 16 / 4 / 1998 ، ص 15 .

(3) المكان نفسه .

(4) صافي صافي ، مفاتيح اليسيرة ، الرواية ، ص 44 .

(5) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 165 .

(6) أحمد رفيق عوض ، صافي صافي في رواية شهاب وسؤال الدلالة ، مجلة صوت الوطن العدد ، 86 ،

2002 ، ص 53 .

وصل إلى هاوية السقوط بدت اللغة دالة على حالة ندمه وصحته بعد الغفلة حيث يرد على لسانه بعد الاعتداء الجنسي عليه: "صحوت ونمت . تألمت ، وعانيت وأنا أنام في الزريبة . " (1) أما فصول الرواية الأخرى فقد وردت على لسان الراوي بضمير الغائب لتصف ملامح الناس ومشاعرها بنفس أسلوب السرد في رواية اليسيرة حيث تتعدد الروايات التي تتعلق بالحدث الواحد ويختلف الناس في تأويله ومن ذلك ما قيل في شهاب: "قيل الكثير في جماله ، قال بعضهم أن أجداداً له كانوا بنفس لونه وبمثل جماله ، وقال أكثرهم أن جندياً إنجليزياً قد اختلى بأمه تحت أشجار اليسيرة بالذات وفعل فعلته . " (2) .

أما الراوي الذي يختفي وراءه المؤلف في رواية الكوربة فيسرد الأحداث بضمير المتكلم وهو راوٍ عليم ينطق من أفئدة الشخصيات وعقولها ويصف لنا المكان بعينونها ، ما يزيد من شعور المتلقي بصدق التعبير، ويجعله أكثر التصاقاً مع العمل ، كما انه يساهم في تضامنه مع الشخصية المحورية الراوي . ونجد أن المؤلف يلجأ إلى كسر رتابة السرد بضمير المتكلم عبر توظيفه لضمائر أخرى تساهم في إثراء الدلالات، ومن ذلك لجوءه إلى ضمير المتكلمين الذي يوحى بتناغم روح السارد مع الروح الجمعية، فيصدران صوتاً واحداً معبراً عن وحدة المشاعر وعن الهمّ الجمعي كقوله: "لم تكن نرى شيئاً ، فما يحدث على المقبرة ينتقل خيراً من واحد إلى آخر تخيلت كل الذي سمعته من الجيران ونحن نقف خلف أسوار سقائنا . " (3) كما يظهر تعليق الراوي على الأحداث كوصفه لشعور الناس بعد الهزيمة: "شعور الناس بالانكسار لا يوصف ، غدته إذاعة إسرائيل التي انكبّ الناس على سماعها بعد طلب الإسرائيليين منهم أن يرفعوا الرايات البيضاء . " (4) وقد مثلت هذه التعليقات جانباً توثيقياً لمرحلة هامة وتاريخية في حياة الشعب .

وقد غلب على لغة السرد في هذه الرواية "جو محموم من الاستفهامات التي لا يريد لها الكاتبة إجابات موضوعية حقيقية ، بقدر ما يرمي بها إلى إقامة معادل لمكنة تحقق قيمة الشخصية بفعل السؤال المثير الذي يستقطب الفكر والوجدان ، فيكون فعل القراءة السابر . " (5) ومن ذلك قول الراوي : "ما هو التفجير في الجو ؟ هل يعني ذلك أنهم يفجرون الهواء ! أو يطلقون قذائف صوتية مثلها مثل القذائف الحقيقية ! لا أعرف . " (6) .

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 59 .

(2) صافي صافي ، م . ن ، ص 27 .

(3) صافي صافي ، الكوربة ، ص 122 .

(4) صافي صافي ، شهاب" ، ص 87 .

(5) علي خواجه ، إطلالة على مخطوطة روائية (الكوربة) دراسة غير منشورة ، بتاريخ 1 / 1 / 2006 ، ص

1 .

(6) صافي صافي ، رواية " الكوربة " ص 42 .

وقد جاء أسلوب السرد في الرواية والقائم على استفهام المتكلم ملائماً لموضوع الرواية القائم على محاولة فهم الماضي وأسباب الهزيمة فيه ، لتتطرق من ذلك إلى محاولة فهم الواقع والمستقبل والتناقضات التي تتحكم في سير هذه الحياة ، ما جعل هذه الرواية تقترب من مفهوم الرواية الجديدة من حيث أنها تدعو إلى إعادة النظر في كل شيء في ظل حيرة الذات الفردية وتشتت الذات الجماعية كما أن مهمة الروائي فيها تمثلت بإثارة التساؤلات والشك فنجد أن " الراوي يجدل - على الدوام - تساؤلات مختلفة لعل الأمر يفضي إلى إجابات شافية ترضي فضوله ، إن حركة الاستفهام المتصاعدة تجذر وعياً بأهميتها كمعادل موضوعي للحياة عينها " (1)

ظاهرة استدعاء الماضي (flashback)

"ويكون إما داخلياً حيث يترك السارد الشخصية الأولى ليعود إلى الشخصية الثانية كما يستخدم لربط الحوادث التي تحدث الآن بسلسلة من الحوادث السابقة المماثلة ، أو خارجياً يلجأ إليه السارد عند ظهور إحدى الشخصيات في العمل ليخبرنا بشيء من ماضيها . " (2) .

ويأتي توظيف الكاتب لظاهرة الاسترجاع الفني لأنها تقلل من الأحداث الداخلية في العمل وتعفي الكاتب من الاستطراد (3) وقد برزت هذه الظاهرة لتحقيق غايات متنوعة في أعمال الكاتب منها : لجوء الشخصية عبر استرجاعها إلى فترة قوتها ونفوذها للهرب من حاضرها الضعيف بعد عجزها عن مواجهته، كما حدث في رواية الحاج إسماعيل فقد ورد على لسان الحاج في زمن ضعفه : " من كان يتغلب عليّ ؟ لا أحد ، الجميع كان يخافني ويحترمني لقوتي . " (4) .

كما تم توظيف هذا الأسلوب من أجل التعريف بالشخصيات وملامحها وأمزجتها وفكرها ليشكل ذلك أسلوباً مختلفاً في سرد الرواية ،ومن ذلك وصف ملامح الشهيد خالد عبر تذكّر الشخصيات الروائية له ، لترسم عالمه الداخلي وملامحه الخارجية وأفكاره ، ومن ذلك ما ورد على لسان زوجته نجوى : " ناقشته في مهام الانتفاضة والعصيان المدني المطروح ، صمت طويلاً وهو يستمع إليّ ثم قال : يبدو أن الانتفاضة يقوم بها الصغار ويقطف ثمارها الكبار . " (5) .

كما جاء توظيف الاسترجاع الفني من أجل وصف رحلة المعاناة التي مرّ بها الشعب الفلسطيني منذ عام (1948) ، ووصف الآثار الاجتماعية والاقتصادية القاسية والأنماط الفكرية السائدة والتي شكلت سبباً مباشراً للهزائم اللاحقة ؛ فقد اعتمدت رواية الكوربة بشكل أساسي على

(1) علي خواجه ، إطلالة على مخطوطة روائية (الكوربة) .

(2) محمد أيوب ، الزمن والسرد القصصي ، ص 170 .

(3) يوسف نوفل ، قضايا الفن القصصي ، ص 199 .

(4) صافي صافي ، رواية " الحاج إسماعيل " ص 103 .

(5) صافي صافي ، رواية " الحلم المسروق " الفصل الثاني ، ص 43 .

ظاهرة الاسترجاع الفني، حيث تبدأ في الفصل الثاني وتنتهي بانتهاء الرواية، لتختزل أحداث حرب (1967) عبر مشهد انقلاب كل من الدبابة والمدفع على إحدى مفترقات الطرق في قرية فلسطينية لتجعل من هذا المشهد منطلقاً لنقد الذات ونقد الواقع العربي في تلك الفترة. " فالكاتب رحل بنا من غرفة الصف في إحدى مدارس رام الله إلى البيت الجديد في رام الله، ثم إلى الشاحنة التي تمر بأماكن مختلفة كسرديا، ليحط بنا الرحيل في (بيت اللو) حيث الوداع. " (1).

وقد جاء الهدف من هذا التوظيف على لسان أستاذ المدرسة في الفصل الأول والذي يسبق توظيف الاسترجاع الفني حيث قال: " كيف يمكن معرفة ما يحدث الآن، إذا لم نعرف ماذا حدث في الماضي؟ وفي الماضي البعيد. " (2)؛ فالرجوع إلى الماضي وتأمل أحداثه هو محاولة لفهم الحاضر، والتخلص من أخطاء الماضي هو محاولة لرسم مستقبل أفضل.

وقد شكّل حجم استرجاع الماضي في رواية (الصعود ثانياً) ثلث الرواية تقريباً؛ فقد جاء في تسع وتسعين صفحة من أصل مئة وست وسبعين صفحة هي عدد صفحات الرواية. وكان أكثر هذه التداخيات حول الاعتراف ومبرراته، حيث أن هاجس الاعتراف كان مؤثراً جداً على الشخصية المحورية ماجد فنجده يستحضر من الذاكرة كل ما يملكه من تذكارات تقويه، وتبرر له اعترافه أمام المخابرات. وقد قامت الرواية كاملة على هذه الدعامة حتى أن الصعود ثانياً كان يعني تجاوز تلك النقطة المأساوية في حياته. " (3).

• **الحوار:** وهو من العناصر المهمة في الطريقة الدرامية، وربما كان من أوضح الوسائل لإحداث وهم الفورية والحضور لدى القارئ. " (4)، وقد سخر الكاتب الحوار للكشف عن خصائص الشخصية وسماتها الداخلية واما تخزنه خلايا ذاكرتها، " ولا يخفى أثر الحوار من كونه يعتمد إلى تطوير الفكرة أو إشباع رافدٍ من روافدها على نحو يجعلها أكثر مثولاً في العقول وأكبر قدرة على تقليب جوانب هذه الفكرة المعروضة. " (5)، كما أنه يستخدم من أجل " الكشف عن مستوى الشخصية النفسي والعقلي والشعوري. " (6) ومن وظائفه " السير بالعقدة أي تقديمها أو

(1) علي الخواجا، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " دراسة غير منشورة، ص 6.

(2) صافي صافي، رواية " الكوربة "، ص 7.

(3) تحسين يقين، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى، مجلة دراسات، العدد السابع والثامن، 2001، ص 63.

(4) أ أمندلاو، الزمن والرواية، ص 133.

(5) مجموعة مؤلفين، نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة، ص 111.

(6) محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، ص 393.

تدرجها أو تسلسلها ، والحوار الجيد هو الذي لا يقف ساكناً ولا راكداً لكي يحلل ويعلل ، بل هو الحوار الذي يحمل المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة . " (1)

" وللصور الحوارية في روايات صافي وظيفية بنائية ، فهي تصل الأحداث ببعضها بعض إلى جانب غاية أخرى وهي استقصاء السلوك والهواجس . بيد أن المونولوج كثيراً ما يحل محل الحوار في استكشاف مكامن النفس مما يبرز عنصر التوقع . " (2)

أما لغة الحوار فقد تنوعت حيث ترد أحياناً ملائمة للمستوى الاجتماعي والثقافي للشخصية كالحوار الذي ورد على لسان نجوى المناضلة المثقفة في حوارها مع مجموعة من المناضلين " - هذه ليست معركة طبقية ، إنما نواجه الاحتلال بكل قوانا ، كل منا له دور في المعركة . " (3) كما يأتي الحوار مقترباً من لغة السارد أحياناً أخرى ولا يلائم المستوى الاجتماعي والثقافي للشخصية كما في حوار الفتى (الراوي) في رحلته المعنوية لتكوين وعيه الذاتي: " - هل يعني ذلك أن دورنا يكون قبل أن نتسلم عملنا ، وقبل أن يصبح لنا أسرة نعيها . " (4) حيث يصوغ الكاتب عبارات الفتى بلغته الخاصة فنجد أن الرواية تحافظ على مستوى لغوي واحد وتبرز شخصية المؤلف واضحة من خلال الأسئلة والتعليقات التي يجريها على لسان الراوي.

كما جاء الحوار عامياً في بعض المواضع ليكون قريباً من لغة الناس اليومية ويدل على إحساس الكاتب بنبض الحياة الشعبية ، كما يأتي ذلك ليناسب الموقف الذي يجري فيه الحوار كما ورد في حوار كل من رقيقة و نزهة حين تشاجرتا بعد رفض الأخيرة تزويج ابنتها لابن رقيقة " - بصلاة محمد على راسك أن ما قلتيه بالأمس صحيح ؟

- نعم هذا والدي وأنا أنفذ ما يقوله .

- حسناً يا مدللة أبوك ، الله يلعن هيك

- اخرسي يا كلبة . والله لسوف أنتزع شعرك شعرة شعرة لو تلفظت بذلك . " (5)

وقد ورد هذا الحوار على لسان شخصيتين غير مثقفتين، كما جاء إثر مشاجرة بين الأختين فبدأ الاختلاف والشجار أكثر واقعية ، ولم تخل الكلمات العامية برشاقة الحوار وتغلغله في صميم الرواية حيث جاء منسجماً مع خيوطها الفنية الأخرى .

التناص :

ويقصد به " تقاطع النصوص ، فحين يكتب الكاتب نصه فإنه يبينه بشكل قطعي على

(1) طه عبد الفتاح مقلد، الحوار في القصة والمسرحية ، ص 15 .

(2) إبراهيم العلم ، بناء الصورة في روايات صافي صافي ، مجلة كنعان ، العدد 79 ، 1996 ، ص 61 .

(3) صافي صافي ، الحلم المسروق ، الفصل الثاني ، ص 45 .

(4) صافي صافي ، الكورية ، ص 53 .

(5) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 86 .

ثقافته الفكرية واللغوية التي شكلها مع مرور الأيام، ولذلك يعتمد كل نص يكتبه المرء أو يقوله على نصوص سابقة مقروءة أو مسموعة. " (1) كما أن النص " ينتج ضمن بنية نصية سابقة فهو يتعالق معها تحويلاً أو تضميناً أو خرقاً . " (2) .

وتعتبر المستنسخات من أهم المكونات الخطابية في النص الأدبي ولاسيما في النوع الروائي لما لها من إحياءات دلالية ووظيفية وأبعاد فنية ومرجعية. كما أنها تشكل القطب المعرفي في الخطاب الروائي وقطبه الجمالي مما يجعل المتلقي في حاجة إلى المعرفة الخلفية وخطاطات ذهنية و مدونات وسيناريوهات مفاهيمية لتفكيك الرواية وتركيبها . (3) .

وقد وظّف الروائي التناص من أجل توليد إثارة المتلقي وتشويقهم، ومن أجل ترسيخ الدلالة التي يريد أن يعبر عنها ، وذلك بتوظيف أنواع مختلفة من التناص ليصب ذلك في النهاية لصالح أسلوبه الفني أو المعنوي في الرواية ، وقد جاء التناص منسجماً مع النسيج الروائي العام بحيث لا يشعر القارئ بشذوذه ، والتناص سواء تمثل باستحضار نصوص تاريخية أو دينية أو أدبية أو شعبية فإنها تعمق رؤية الكاتب وتدعم طروحاته . (4) .

وقد ورد **التناص الأدبي المباشر** في رواية (الصعود ثانياً) حيث يشبه الراوي حالته أثناء بحثه عن محبوبته وشعوره بالضيق بحال امرئ القيس في وقوفه على الأطلال حيث يقول: " هل أصبحت امرأ القيس ! هل محطة الباصات هي أطلال لأقول شعراً . " (5) ثم يعود في المقام نفسه ليستذكر الشاعر طرفة بن العبد ومعاناته الاجتماعية التي تمثلت في تخلي أبناء قبيلته عنه ، ولكنه استطاع بفضل إحساسه المرهف وأشعاره المميزة أن ينتزع مكانته المرموقة في القبيلة ولا يخفى انسجام هذا التناص مع جو الرواية العام الذي تمثل في محاولة ماجد استعادة مكانته الحزبية بعد طرده من الحزب فنجد الراوي يخاطب الشاعر بقوله: " لو كنت شاعراً مثلك لقلت الآن أبياتاً وجعلتها أكثر من وشم في يدي . " (6) . ويبدو أن تأثير الشاعر طرفة بن العبد كان بالغاً في نفس الروائي فنراه يلجأ إلى تناص غير مباشر عبر معنى قد ورد في معلقته حول الموت والحياة وذلك

(1) يوسف حطيني ، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية ، ص 251 .

(2) سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ص 98 .

(3) للمزيد انظر : جميل حمداوي ، المستنسخات النصية في الخطاب الروائي : (الانترنت) .

<http://www.alwatanvoice.com/arabic/pulpit.php?go=show&id=66072>

(4) أحمد الزعبي ، التناص نظرياً وتطبيقياً ، ص 47 .

(5) صافي صافي ، الصعود ثانياً ، ص 14 .

(6) صافي صافي ، الصعود ثانياً، ص 141 . وهو يبدو متأثراً بقول طرفة بن العبد في بداية معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد . ينظر : ديوان طرفة بن العبد ، ص 19 .

في قول الراوي : " والخير يموت ، والشرير يموت ، والكريم يموت ، والبخيل يموت . " (1) حيث يبدو متأثراً برأي طرفة بن العبد في الموت حين قال :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد (2)

وقد جاء هذا التوظيف في معرض الجدل الفكري الذي شغل حيزاً كبيراً من الرواية حول ثنائية الحياة والموت .

كما برز **التناص الديني** ، وذلك من خلال توظيف الكاتب للآيات القرآنية وقصص الأنبياء وذلك لإظهار سماحة الدين الإسلامي وإبراز اهتمامه بالقيم الإنسانية، أو لنقد مظاهر فكرية وسلوكية في المجتمع ، ومن ذلك ما ورد على لسان ماجد في استعراضه لموقف تخلف كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع في غزوة تبوك حيث كان : " الحرّ شديداً والسفر بعيداً والعدو كثيراً ، وطابت الثمار والظلال وكذبوا بشأن تخلفهم ولكنهم عادوا واعترفوا للنبي عليه السلام بحقيقة تقاعسهم عن القتال . ونهى الرسول الكريم المسلمين عن التكلم معهم ، فلبث كل من هلال ومرارة في بيتها خمسين ليلة يبكيان أما كعباً فكان " يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد . " (3) وظلوا كذلك حتى سمعوا المنادي يبشرهم بالتوبة إثر نزول الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ فَزَيَّنَ لَهُمْ رَبُّهُمْ لِيُذْهِبَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَضَبَهُمْ لِيُذِخُوا لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فَذَلِكَ لَهُمْ ذِكْرُنَا ﴾ (4) .

ويقارن الراوي بين حاله وحال المتخلفين في غزوة تبوك ليصف إنسانية الدين الحنيف وجمود الأفكار الحزبية أمامها حيث يقول: " لقد تاب الله على المتخلفين بعد مرور الأيام الخمسين فكم يوماً يستغرق البشر لاستيعاب ذلك. " (5) كما جاء توظيف قصة سيدنا أيوب وزوجته وتصوير موقف كل منهما أمام ابتلاء الله (6) من أجل التركيز على معاني الصبر وتحمل الشدائد وزرع الثقة بأن الله سيبدل البلاء بالفرج ويأتي ذلك في الوقت الذي تشعر فيه شخصيات الرواية أن لا مخرج

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 28.

(2) كرم البستاني ، ديوان طرفة بن العبد ، ص 34

(3) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 91 ، 92 ..

(4) سورة التوبة ، 117 / 129 : وقد ورد في الآية التي تليها ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُهُ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴾ . والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتبويهاً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار . للمزيد انظر: محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ص 566 .

(5) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 92 .

(6) صافي صافي ، الكوربة ، ص 129 .

لهم ولا مفرّ من غطرسة الاحتلال وإذلاله وبعد المعاناة التي شعر بها الفلسطيني بعد معاناة لجوئه الثانية . كما ورد على لسان الشيخ عبد النبي في خطبته أمام أهل " الیسیرة " قصة " نبهان التمار " حين قال : " أتته امرأة حسناء تشتري تمرّاً فقال لها : هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه ، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه ، وقبلها ، فقالت له : اتق الله . فتركها وندم . فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ (1) القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم . " (2). وقد مثلت هذه الخطبة الدور الإيجابي لرجل الدين الذي يدعو إلى تجاوز الماضي بعد الاعتبار من أخطائه وصدق التوبة مع الله من أجل مستقبل أكثر ازدهاراً .

أما **التناص التاريخي** فقد جاء ليعبر عن أصالة انتماء الفلسطيني لأرضه وارتباطه بها ودفاعه عنها في مختلف الحقبات التاريخية ، كما جاء ليعبر عن العراقة الحضارية للفلسطيني في الوقت الذي يبذل فيه الآخر كل جهوده ليضعه في خانة الجهل والتخلف ، ويجعل من نفسه المنقذ الحضاري للإنسان والمكان . فنجد في رواية (الیسیرة) " نطوف (3) قد عاش منذ آلاف السنين على هذه الأرض ، ولقد كتبت الجرائد في ذلك الوقت عن اكتشاف حضارته في جبل عجيز (بابون) والتي احتوت على سكاكين وفؤوس وأوان حجرية ، ووجدوا كتابة على جدار المغارة على شكل نقوش ، حللها الخبراء وقالوا بأن الكلمات تدل على اسم الرب أو الآلهة وهذا ما أسعدهم ، فهذه البلاد عرفت الآلهة ووحدتها منذ زمن . " (4) .

كما ورد ما يشير إلى أهمية دراسة التاريخ من أجل أن يفهم الإنسان حاضره ومستقبله بعد أن يستوعب ماضيه فقد ورد على لسان الراوي : " هل تعرفون أين يقع وادي نطوف ؟ هل تعرفون أين بدأت الحضارة على هذه الأرض ؟ هل تعرفون أشكال النطوفيين ؟ هل تعرفون في أية

(1) سورة آل عمران ، آية 135 / 200 . ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَذُكِرُوا لِلَّهِ فَاسْتَعْفَرُوا لِيُذَرَّبَ بِهِمْ وَتَمَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي نَبْهَانَ التَّمَّارِ - وَكُنْيَتُهُ أَبُو مَقْبِلٍ - أَتَتْهُ امْرَأَةٌ حَسَنَاءُ بَاعَ مِنْهَا تَمْرًا ، فَضَمَّهَا إِلَىٰ نَفْسِهِ وَقَبَّلَهَا فَندِمَ عَلَىٰ ذَلِكَ ، فَأَثَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ، 671 هـ ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء الرابع / 20 . ص 184

(2) صافي صافي ، الكوربة ، ص 75 .

(3) " نسبة إلى وادي نطوف غربي القدس ، حيث كشف عن معالم هذه الحضارة ولأول مرة في كهف شقبة الذي يقع على هذا الوادي وهي حضارة تعود إلى (10000 - 8000 ق. م) وتعتبر هذه الفترة الخطوة الأولى على طريق المجتمعات الزراعية في بلاد الشام وهي حضارة مستوحاة من حضارة سكان فلسطين الأصليين . للمزيد انظر : الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الثاني - الدراسات التاريخية ، ص 33 .

(4) صافي صافي ، الیسیرة ، ص 83 .

فترة عاشوا؟ هل تعرفون مهنهم وعاداتهم وتقاليدهم؟ " (1) وقد انسجمت هذه الدعوة مع النسيج الروائي الذي يتحدث عن هزيمة عام 1967 وبساطة الناس الفكرية ومحاولة الآخر طمس معالم الفلسطيني وتدوين ملامحه الحضارية .

وقد وظف الكاتب مجموعة من العناصر الأخرى التي ساهمت في بناء مضامين رواياته وإثراء شكلها الفني ومنها :

توظيف التراث الشعبي :

إن التراث هو النتاج الثقافي الاجتماعي والمادي لأفراد الشعب ولقد ظل لفترة طويلة يتحدد بفترة زمنية تنتمي إلى الماضي، ولكن هذه النظرة بدأت تتغير، وأصبح التراث لا يدل على فترة زمنية محددة بل يمتد، حتى يصل إلى الحاضر، ويشكل أحد مكونات الواقع/ الحاضر، كالعادات والتقاليد والأمثال الشعبية. التي تعيش في وجدان الشعب، وتكون مجمل حياته الخاصة. (2) .

وقد أسهب الكاتب في توظيف التراث حيث يظهر في جميع رواياته مع اختلاف الحيز الذي يشغله في الرواية ما ساهم في إثراء نصوصه على المستوى الثقافي والحضاري كما أن هذا التوظيف يضفي الأصالة والعراقة على هذه النصوص ويخلق شعوراً حميماً مع المتلقي الذي يشعر وكأنه جزء من النص من حيث كونه ينبش في ماضي ثقافته وتقاليد أجداده .

فالكاتب " يعمد إلى التراث وينغمس فيه ويتفاعل معه ويجرده ويلبسه ثوب الحياة المعاصرة وغير ذلك من أمور ترينا أنه يتحدث عن ملحمة شعبية قد استنقت شخوصها من عمق التاريخ بأساطيره وعقيدته التي يؤمن بها المجتمع إلى حد ما . " (3) .

وقد ساهم استحضار الكاتب للتاريخ الاجتماعي والثقافي في تصوير عمق انتماء الإنسان للمكان وانسجامه مع بشره وحجره وشجره ، ونلاحظ أن كثافة التوظيف التراثي قد ازدادت عند الكاتب بعد اتفاق أوصلو وكأنه في ذلك يعمد إلى نوع من الحماية للذاكرة الشعبية أو محاولة لتنشيطها في الوقت الذي يتعرض فيه المكان للمصادرة والطمس .

وقد ظهرت رواية (اليسيرة) كلوحة تراثية ناطقة حيث الأغاني الشعبية والأمثال والأعراس والموروثات الأخرى التي تناغمت مع جو النص وأثرت دلالاته الثقافية " فنص اليسيرة يحتفل احتفالاً خاصاً بالموروث الذي نفذ من خلاله - الكاتب - إلى أبعاد حياتنا الاجتماعية والسياسية ويحاول أن يكون وثيقة وشاهداً ويحاول البعد التراكمي فيه أن يتتبا بالمصير . " (4) .

(1) صافي صافي ، الكوربة ، ص 7 .

(2) محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية ، ص 21 .

(3) نادي ساري الديك ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، ص 39 .

(4) جمال يونس ، قراءة في رواية صافي صافي " اليسيرة " ، الحياة الجديدة ، ص 15 .

كما شكّلت الأغاني الشعبية في هذه الرواية رافداً أساسياً من الروافد التراثية ؛ " فالأغنية الشعبية هي مرآة المجتمع بكل تفاصيله وتشكل انعكاساً واضحاً للحالة النفسية التي تهيمن هذا المجتمع . " (1) ومن هنا نجد توظيف الأغنية الشعبية في مختلف المناسبات كالزواج ، والشهادة والكشافة ، والهتاف الشعبي الذي يندد بالاستعمار ومنها :

مستعمر ارحل عنا والّا بتشوفوا منا
يا ويل اللي نحاربه بالسيف نقطع شاربه
البلاد بلادنا واليهود كلابنا
بنمشي دقة دقة وبراسه نحط طلقة . (2)

وشكّلت الأمثال الشعبية رافداً آخر من روافد التراث في الروايات ما زادها حيوية وأعطاهما بعداً واقعيّاً؛ " فالأمثال هي ذاكرة الشعوب وحافظة تجاربهم وخبرة أجيالهم ، وهي ترجمة صادقة للحس الشعبي المصاغ اللهجة المحكية . " (3) .

وقد شكّلت الأمثال والأغاني الشعبية جزءاً من النسيج السردي ، ولا تُشعرُ بالغرابة أو الإقحام ، بل جاءت أحياناً كنوع من التمهيد لحدث فني قادم كما حدث عندما قال ابن المختار عندما قتل أبوه " اللي خلف ما مات " و " الحي أبقى من الميت " (4) ليستنتج القارئ من خلالها أن الابن سيسلك طريق أبيه من حيث الاهتمام بمصالحه الخاصة واتباع مبدأ الاستغلال والتبعية للأقوى . وقد كثّف الكاتب من توظيفه للأقوال والأمثال الشعبية في رواية (الصعود ثانية) عندما أراد أن يصور موقف عامة الناس من النظام ، فقد ورد ذلك على شكل مجموعة من الأقوال والأمثال الشعبية التي بلغ عددها ثمانية أمثال من الصفحة (119 - 123) . لينسجم ذلك مع شعبية لسان حالهم وثقافتهم ومن ذلك " بوس الكلب من فمه لتأخذ حاجتك منه " (5) .

والحيطان لها أذان . " و القرش عند تراحم الأقدام " و " العصفور الحذر يقع في الشرك الضيق " . وقد جاءت هذه الأمثال مطابقة للموقف ومعبرة عنه بشكل مختزل ودقيق ما يدل على ثقافة الكاتب الواسعة في التراث الشعبي .

كما ظهر التراث الصوفي في أعمال الروائي حيث " جاءت أهمية التراث الصوفي في الحياة المعرفية للإنسان، وخاصة في الأدب نظراً لصلته بحياة الإنسان الداخلية والخارجية فالتجربة الأدبية لا تختلف كثيراً عن التجربة الصوفية، فكلاهما يحاول أن يمس بخطابه بواطن الذات

(1) عبد اللطيف البرغوثي ، الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن ، ص ص 53 .

(2) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 68 .

(3) أحمد حجازي ، موسوعة الأمثال الفلسطينية ، ص 7 .

(4) صافي صافي ، م . س . ، ص 63 .

(5) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 199 .

الإنسانية، ويعبر عن مكوناتها وخلجاتها، وروحانياتها، كما أن الذات الإنسانية تجد في كل من الفن والتصوف تعويضاً لها عن همومها اليومية . " (1) .

ويبرز هذا التوظيف من خلال شخصية الشيخ عبد النبي في كل من رواية (شهاب) و (اليسيرة) ، حيث وردت ملامح الصوفية في سلوكه من حيث لجوئه إلى العزلة والتأمل حيث ورد على لسان الراوي : " كان هذا البيت منزوى له ، يقضي فيه معظم وقته ، يأكل ويشرب وينام ويصلي فيه . " (2) " حيث يعتقد الصوفيون أن " الخلوة هي صفة لأهل الصفة والعزلة من أمارات الوصلة كما أن لها فوائد منها، السلامة من الغيبة والرياء والافتقار والاشتغال بزينة الدنيا ولهوها والتفرغ للنظر في العلم واستنباط الحكمة . " (3) كما نلاحظ تأثير الثقافة الطاوية " وهو معتقد ديني قديم ظهر في الصين ، ويؤمن أن الإنسان إذا استثمر وضع السكون والجلوس جلسة اليوغا مع خمول عقلي فإنه يستطيع أن يتواصل مع القوة الكونية ، وتصبح له قدرة خارقة للتأثير على الآخرين وقدرة على الشفاء أيضاً . " (4) ويظهر ذلك في لجوء الشيخ عبد النبي إلى الصمت والارتداد إلى الذات في علاجه للخلافات بين أهالي اليسيرة " كان يكفي أن يجلس صاحب المشكلة هناك ويشارك الشيخ عبد النبي صمته وتأمله ليعود صافي الذهن مرتاح البال ، وإذا ما حدثت مشكلة بين اثنين فإن ذهابهما إلى الزاوية كافٍ لشفاء النفوس . " (5) كما تظهر فكرة الحلول والاتحاد الصوفية (6) ، وذلك في قول الشيخ عندما توجه إليه أهالي البلدة محاولين النيل منه وإيذائه .

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بالله من كل أثمٍ عجول ، الله فينا وفي الفقراء منا ، الله حامينا ومبعد الأشرار عنا ، عجيز مسكين ، والمسكين لا تقربه ، الله يحميه ويحمي كل من يحبه . " (7) ونلاحظ أن الكاتب قد انطق الشخصيات الصوفية بلغة شعرية تذكرنا بالشعر الصوفي من حيث الألفاظ والبناء الفني ، فالشاعر الصوفي كثيراً ما يكرر اللفظ الذي تنتهي به جملة الشعرية ونلاحظ ذلك في المقطع السابق :

عجيز مسكين والمسكين لا تقربه

(1) وذنانى بوداود ، جمال الغيطاني والرواية الصوفية : (الانترنت)

<http://www.islamic-sufism.com/article.php?id=1176>

(2) صافي صافي ، اليسيرة، ص 24 .

(3) أحمد النقشبندى الخالدي ، الطرق الصوفية ، ص 194 .

(4) وهدان عويس ، أديان البشر ، ص 106 .

(5) صافي صافي ، م . س . ، ص 25 .

(6) فالالاتحاد يعني امتزاج الذات الإلهية بالذات الإنسانية حتى يصيراً شيئاً واحداً أو هو الاستهلاك الكامل في الله

والفناء عما سواه ، للمزيد انظر : نيكلسون رينولد ، الصوفية في الإسلام ، ص 138 .

(7) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 32 .

الله يحميه ويحمي كل من يحبه . (1)
كما ورد ذلك في نشيد الشيخ " عبد النبي " الذي ينتقد فيه سلوك الناس وإيمانهم بالسحر والشعوذة :

العاقل ما هو مجنون والمجنون ما هو عاقل . (2)
وقد وردت هذه الخاصية الفنية في أشعار " الحلاج " ومن ذلك قوله :
أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرتنا أبصرتنا (3).
كما ورد في قوله :

اقتلوني يا تقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي (4).

توظيف الأسطورة :

اهتم الكاتب بالأسطورة الإنسانية جاعلاً منها حلقة وصل بين الفكر المحلي والإنساني فأعطى رواياته بعداً ثقافياً وإنسانياً ساهم في عمق الرؤيا وشمولية الفكر. " وقد اهتمت الرواية العربية بتوظيف أسطورتها الخاصة في بعض الأحيان ، كما أنها استعادت بوعي للعديد من أدوات الأسطورية وأعدت صياغتها في المعادلة الجديدة. " (5). وقد اعتمدت رواية (اليسيرة) في بنائها الفني على الأسطورة ومزجها بالواقع، ولم يكن ذلك كردّ فعل على صدمة الواقع وتداعيات التاريخ المؤلمة فقط وإنما كان ذلك محاولة من الكاتب لصياغة أسطورة فلسطينية محلية محورها المكان. " (6). وقد جاء التوظيف الأسطوري فيها ملائماً للفضاء المكاني الذي انتقاه الروائي لأحداثه حيث سكان الريف وما يلزم أهله من طيبة وسذاجة وإيمان مطلق بالغيبيات .

وقد لجأ الروائيون للأسطورة من أجل " تعرية الواقع السياسي العربي وللكشف عن مرجعيات الاستبداد المهيمنة من جهة، ثم لتفكيك بنية المجتمع والوعي الاجتماعي العربيين من جهة

(1) المكان نفسه .

(2) صافي صافي ، م . ن . ، ص 87 .

(3) كامل مصطفى الشبيبي ، ديوان الحلاج ، ص 29 .

(4) كامل مصطفى الشبيبي ، م . ن . ، ص 62 .

(5) مصطفى عبد الغني ، الاتجاه القومي في الرواية العربية ، ص 363 .

(6) صافي صافي ، شهادة ذاتية ، لماذا اليسيرة ، ورقة مقدمة في المؤتمر الأكاديمي الأول بعنوان : الأدب

الفلسطيني بين المنفى والاحتلال ، 18 / 5 / 1997 ، جامعة بيرزيت ، رام الله .

ثانية . " (1) . ونلاحظ التوظيف الأسطوري في سبب تسمية اليسيرة بهذا الاسم: "يقول المتفقون بأن اسمها الأول كان (أشيرة) (2) وهي خالقة الآلهة ، وهي (أشيرة البحر) أي الربة والسيدة العظيمة ، وعندما احتل البعل مكانته الرفيعة ، وأصبح خليفة ، أصبحت زوجة له بحكم الإرث " (3) . حيث تقضي الأسطورة أن عشتار عندما ولدت ابنها ، شقها الذكري الكامن فيها منذ الأزل ، تزوجته لتخصب نفسها به فتستعيد إلى نفسها قوتها الإخصابية الذاتية التي أطلقتها نحو الخارج ولذلك كان الإله الابن زوجاً أو حبيباً في نفس الوقت . " (4) .

ومن هنا نجد أن الروائي قد تعامل مع الأسطورة على أنها مادة خام قدمها داخل النص الروائي برؤيا مغايرة ساهمت في إنضاج الوعي المعرفي حيث اعتمد الروائي على خلق مكان أسطوري مؤسس على متن سابق مائل في الذاكرة عبر مخزون تراكمي .

وبرزت الأسطورة في مشهد احتراق اليسيرة بعد ارتكاب المعاصي والآثام في عرس " أبي عمي والطبع والتي تذكرنا بقصة " (سدوم وعمورة) في التوراة وكيف أحرقهما الله لارتكاب الخطايا الكبيرة فأحرق الله المدينة ونجى منهم أسرة لوط . " (5) . حيث ورد في ذلك مشهد احتراق اليسيرة : " ظلوا على هذه الحال حتى غياب الشمس واحمرار خديها ، فإذا بقذائف حارقة توجه نحوهم ، اشتعلت النيران ، وأصابت كثيراً من الشيوخ والنساء والأطفال والشباب ، احترق بعضهم ، وأصيب بعضهم ، وقلت من الموت من تبقى منهم " (6) . ونجد أن الأسطورة هنا ليست استطرادية بل " هي أسطورة القيم التي تقدم نمط الحياة في القرية وتبدو كأنها لوحة متكاملة . " (7)

دائرة الجنس :

وقد جاء توظيفه في الروايات لأغراض منها :خدمة الحكمة الروائية والأحداث ، ووسيلة لتعميق العمل الدرامي . فنجد أن الكاتب يتطرق إلى الإشارات الجنسية كي يعبر عن مواقف

(1) نضال الصالح ، المستوى الأسطوري في رواية حبرا إبراهيم جبرا : (الانترنت)

<http://www.nidalsaleh.com/searshes/jabrae.htm>

(2) آلهة عبدت في أوغريت ، زوجة الإله " أيل " وهي والدة كل من " إيلا " و " عناة " . توصف بأنها آلهة الثروة ، وفي بلاد كنعان تعتبر ربة الخصب وتسمى الخالقة وأم الأرباب . للمزيد انظر : حسن نعمة ، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ، ص 146 .

(3) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 26 .

(4) للمزيد انظر : فراس السواح ، الألوهة المؤنثة وأصل الدين الأسطورة ، ص 175 .

(5) غالي شكري ، أزمة الجنس في القصة العربية ، ص 13 .

(6) صافي صافي ، م . س . ، ص 68 .

(7) إبراهيم الفني ، مفاتيح صافي صافي واليسيرة ، جريدة الأيام ، 16 / 4 / 1998 .

الشخصيات أو يعمد من خلال هذه الإشارات إلى التشريح النفسي لها ، فنجد مثل هذه الإشارة في رواية (الحاج إسماعيل) ، حيث تعبر الشخصية المحورية عن عجزها وقهرها بسبب واقع ضعفها الجديد ، والذي عبرت عنه في حلمها الذي يعكس حقيقة مشاعرها في الواقع : " حلم بأن من في الغرفة كانوا يمارسون اللواط معاً وأن واحداً اقترب ليحاول معه ، استيقظ من النوم ، استجمع كل قواه ، قال : أتحبونني مثلكم ! أتمارسون اللواط معاً وتريدونني الآن ، ألا تعرفون من أنا ؟ أنا من لم يتغلب عليه كل أهالي بيت نبالا . " (1) كما نراه يوظف مشهداً جنسياً لخدمة معنى يقصده ، كالمشهد في رواية (اليسيرة) والذي قصد من خلاله الإشارة إلى وضوح القرية ، ليساهم ذلك في رسم صورة المكان المتخيل الذي تتعدم فيه الأسرار، وتتهاوى فيه الحواجز بين الناس ، وقد ورد ذلك في مشهد اغتسال فتيات القرية في عين الصافي : " كانت الكثير من الفتيات يخجلن من أجسادهن العارية ، فكنّ يطلبن أن تستحم كل بنت وحدها ، لكن وجود فظيعة بينهن عمل على إزالة هذا الحرج إذ قالت : كلنا نملك ما نملك فلماذا الخجل ؟ " (2) ويمضي الكاتب في استطراده حول ذلك المغزى ليصل إلى المباشرة في التعبير عما يريد من ذلك المشهد بقوله : " فاليسيرة يميزها عربيها ، إنها عارية أمام سكانها ، وعارية أمام الآخرين ، وإنها بدون هذا العري لا تساوي شيئاً ، بل تصبح شيئاً آخر غير الذي يعرفه الناس . " (3) كما أن الكاتب قد قصد من بعض مشاهد العري في الرواية " الإيحاء بأنه سيقوم بتعرية حقائق معينة . " (4) ومن ذلك إسهابه في الحديث عن الوعي السياسي والاجتماعي وربط ذلك بأسباب الهزيمة .

أما في رواية (شهاب) فقد جاءت الإشارات الجنسية مباشرة لتعبر عن انغماس الناس بالشهوات واهتمامهم بمصالحهم الخاصة وعدم اكتراثهم بالهموم الجمعية ، وقد مثل " شهاب " هذا الاتجاه فكانت عقوبته من مثل جرمه وذلك بالاعتداء الجنسي عليه من قبل بعض الشبان في المدينة لتسقط بعد ذلك هالته الأسطورية ، ويتعري من زيّه القيادي ، ولتظهر حقيقته الضعيفة والمقهورة . وقد جاءت هذه الإشارات في رواية (الكوربة) رمزية لتكشف عن الأمل الذي علقته أجيال اللاجئين على التدخل العربي في حرب عام 1967 ، حيث يرى الراوي ماسورة المدفع بأنها عضو ذكري سيعيد له ولأجيال اللاجئين الحياة .

ومن هنا نلاحظ أن توظيف الإشارات الجنسية في الروايات لم يأت عارضاً وإنما جاء ليعبر عن قضايا فكرية وسياسية تساهم في شد عضد الرواية ويثري دلالتها وينوع في لغتها . وقد نهج الروائي في ذلك منهج الحدائين " الذين ربطوا بين الجسد والحرية فرأوا أن الجسد الإنساني

(1) صافي صافي ، الحاج إسماعيل ، ص 45 .

(2) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 42 .

(3) صافي صافي ، م . ن ، ص 43 .

(4) تحسين يقين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني ، جريدة الحياة الجديدة ، ص 15 .

ينشد الحرية دائماً والحرية تبدو لنا مطلباً ذهنياً مجرداً هي في نهاية التحليل حرية ينشدها الجسد . " (1)

دلالة العنوان وصورة الغلاف في الروايات :

• رواية (الحاج إسماعيل) :

يشير الروائي إلى أن سبب اختيار الحاج إسماعيل عنواناً لروايته يعود إلى تأثره بالمعاناة التي ألمت بسيدنا إسماعيل عليه السلام بعد طرده وأمه إلى بئر السبع ، ومن ثم إلى مكة المكرمة حيث تم اكتشاف بئر زمزم بمعجزة إلهية حيث يقول : " واعتقدت أن ما حدث لسيدنا إسماعيل أثر على نفسيته ، وصرت أرى هذه النفسية في والدي ، حيث كان عصبي المزاج ومعتزاً بنفسه في ذات الوقت ، وهذا هو حال المظلوم فإسماعيل هو المطرود ، وهو المبعد وهو الذي ينكر عليه أصله ورحت أرى هذا التطور الهائل الذي تم منذ فجر التاريخ حتى وصل إليّ أنا ابن " الحاج إسماعيل " (2) وهكذا تدور جميع الأحداث حول هذه الشخصية التي كابدت بمفردها أهوال الهزيمة وذات مرارة التشرد والحرمان واعتمدت على قواها الذاتية لاسترداد ما تبقى من كرامتها بعد الهزيمة ، وما تزال هذه الشخصية تعاني من خلال توارث الأبناء والأجيال القادمة لهذا الظلم الأمر الذي ينطبق على عموم هذا الشعب الذي ما زال يحاول رغم كل معاني القسوة استرداد كرامته وحقه المغتصب . ومن هنا نرى التطابق بين الخاص والعام وارتباطه بفجر التاريخ علناً نفلح في استقراء القادم في المستقبل . وتظهر صورة الغلاف تحمل اسم الرواية وقد رسمت ألف " إسماعيل " على هيئة عصا ينقرع منها عصا أخرى ، أما العصا الأولى فقد تشققت من طرفها العلوي في إشارة لما أصاب جيل اللجوء الأول من إعياء بسبب ما واجهه من أهوال الصراع وبسبب تأثير الزمن عليه ، أما العصا الثانية فتبدو سليمة لا يبدو عليها تخريب الزمن ولا تخفى دلالة العصا وما تمثله من وسيلة للمقاومة وفرض الهيبة أمام المجتمع ، ويرمز التلازم بين العصوين إلى توارث الأجيال لمجموعة من العادات والاعتقادات .

• رواية (الحلم المسروق)

لقد شكلت الرواية مجموعة من الأحلام المسروقة والتي شملت جميع الشخصيات دون استثناء ويعلق الروائي على ذلك بقوله : " هذه صرخة بأبعادها المختلفة ، الفلسطيني والعربي والعالمي على كل هذه الأبعاد سُرق حلمنا ، من سينقذنا من العرب ؟ من سيناصرنا من العالم ؟ لقد تمت

(1) مجموعة مؤلفين ، نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية ، ص 124 .

(2) صافي صافي ، السلطات الاجتماعية والأدبية وعلاقتها بالأدب، مجلة الكاتب، عدد 161، 1995، ص 23 .

سرقة الحلم ، أقول " سرقة " ولا أقول " ضياع " فالمسروق لا بد من عودته ، أما الضائع فقد يعود وقد لا يعود " (1) .

فالحلم المسروق الأول يظهر من خلال الراوي مروان حيث خسر جميع أمواله ومدخراته في الكويت كما فقد ابنته على مشارف الوطن ، وقد تمت سرقة حلمه في العيش الهانئ الهادئ ليعود ويقاسي شظف العيش في المخيم ، كما سُرق أحلام خالد في تحقيق العدل وإقامة السلام عن طريق الحوار والتفاوض من قبل الإسرائيليين كما ساهم البرجوازي في سرقة حلمه بإثبات براءته من الذنب الذي لم يقترفه . أما نجوى فقد سُرق حلمها في حياة زوجية مطمئنة بعد اغتيال زوجها ، وسُرقت أحلام فضاء بأن يعيش طفولة بريئة وآمنة في ظلّ والديه فنراه يتحمل عبء النضال ومسؤولية الأسرة منذ نعومة أظفاره ، وعبد القادر قد سُرق حلمه في العودة إلى وطنه بعد أن فقد جميع أفراد أسرته في ملجأ العامرية كما فقد أمواله وبيته في الكويت

إنها حقاً رواية الأحلام الإنسانية المسروقة ، وصراع الإنسان من أجل استعادة هذه الأحلام في ظلّ استمرار سطوة السارق وصرخة المسروق وتمرده . وتظهر صورة الغلاف على شكل خطوط طولية وعرضية تمثل حالة الضياع والتشتت التي تصيب المناضل الفلسطيني حين يضطر إلى ترك مسؤولياته الوطنية والانشغال بمشاكل داخلية ومؤامرات تعمل على محاصرته وتؤدي به إلى حالة من العزلة واليأس خاصة عندما يتخلى عنه ذلك المجتمع الذي لطالما ضحى من أجل حريته ، وتشير الظلال الموزعة في جميع الاتجاهات إلى حالة الحزن والانكسار التي تصيب المناضل بسبب هذا الظلم الواقع عليه . وقد تمت الإشارة إلى هذه الخطوط عندما وجد المناضل خالد نفسه مضطراً للمثول أمام لجنة لإثبات براءته من ذنب لم يقترفه: " ثم ما لبث أن بدأ برسم خطوط عرضية وطولية..... ، جالت نظراته في أنحاء البيت وكأنه يبحث عن شيء ضائع " .

• رواية (الصعود ثانية)

لقد دارت الرواية حول محور أساسي وهو: " أن الإنسان يسعى نحو الكمال في كل شيء أما إذا حصل خطأ ما فلا ينبغي أن يتدهور إلى التناقض حيث القاع ، فإذا لم يقدر أن يكون في القمة فليس معناه اليأس " (2) وقد ورد ما يؤكد هذا المعنى على لسان ماجد في عدة مواضع في الرواية منها: " لا أريد أن أسقط إلى القاع ، لقد هويت عند سفح الجبل وسأحاول الصعود ثانية كل المرارة التي عشتها كانت تصبّ في اتجاه واحد ، لا خيار أمامي سوى الصعود ، ربما لن أصل

(1) صافي صافي ، أتساءل من الذي سرق أحلامنا ، جريدة الحياة الجديدة ، العدد الأول ، 10 / 11 / 1994 .

(2) تحسين يقين ، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ،

إلى القمة ، لا يهم .⁽¹⁾ ونجد أن الرواية قد بدأت بمشهد السقوط وتداعياته وأسبابه ثم بدأ الكاتب بحشد أسباب الصعود ويغذي الشخصية بها حتى نشاهدها تصعد على مراحل لتصل إلى النضج والقدرة على اتخاذ القرار والمعارضة وقد راعى الكاتب في رسم مراحل السقوط والصعود التدرج المنطقي المقنع مما شكّل تمهيداً فنياً مبكراً لنهاية الرواية وزاد من مساحة الواقعية فيها أما لوحة الغلاف فهي " لمن يتأملها جيداً عبارة عن وجه إنسان تحت مستوى خطوط صفراء ... فمحاولة الصعود ثانية في مجال الحياة المعنوية يلائمها هذا الرمز في البحر واللوحه : في البحر حيث الغرق .. وكذلك في الجبل حيث الطموح نحو القمة " ⁽²⁾ أما الخطوط الصفراء فترمز إلى حالة الإعياء والضعف التي واجهت الراوي أثناء رحلة الصعود .

• رواية (اليسيرة)

لقد شملت دلالات عنوان اليسيرة لتعم كل تفاصيلها، فقد دلت على المكان والشخص وانبعثت الأحداث من خلالها، وقد ورد ذلك في أكثر من موضع في الرواية فقد ورد من ضمن التفسيرات المختلفة لاسم اليسيرة - المكان - " يقول الحاج مسعود مثلما قال أبوه بأن اسم اليسيرة تم اشتقاقه من كلمة سهل ، وبما أن اليسيرة تقع ما بين السهل والجبل فإن اسمها جاء ليبدل على طرف السهل وبدايته ."⁽³⁾ كما أشار الشيخ عبد النبي بأن اسمها ربما جاء من كلمة اليسر بمعنى البركة والسهولة ، وقال بأن هذه البلاد كانت وما تزال محط أنظار الكثيرين ، وهذه البلاد ما تزال تنتقل من حكم إلى حكم ."⁽⁴⁾ أما موقعها بالنسبة للقائنين فيها فقد ورد كما يلي: " فاليسيرة هو الاسم العامي للأسيرة فهي تأسر الناس بموقعها وبالسكن فيها وهم يعتبرونها مركز العالم ويعتبرون القرى المجاورة أقل مرتبة " ⁽⁵⁾ كما أنها يسيرة حيث استطاعت أن تجمع بين التناقضات الفكرية عبر السنين الطويلة دون خلافات داخلية جدية تهدد وجودها ويأتي ضمن وصفها " ويستطيع أهل اليسيرة نفسها والقرى المجاورة أن يفهموا معنى اليسيرة في أهلها، ألم تحافظ البلدة على وجودها طوال السنين الطويلة وهي تجمع (أبا عمي) وفضيحة والحاج مسعود وعجيز والشيخ عبد النبي ."⁽⁶⁾

(1) صافي صافي ، الصعود ثانية ، ص 110 .

(2) تحسين يقين ، م . س . ، ص 71 .

(3) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 27 .

(4) المكان نفسه .

(5) صافي صافي ، اليسيرة ، ص 27.

(6) صافي صافي، م . ن . ، ص 29.

ومن هنا نجد أن تميز اليسيرة " المكان " قد انعكس على قاطنيتها " شخوصها " لترسم أحداثاً متميزة عبر الأزمنة المختلفة وسيبقى ذلك ملازماً لها حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

وتظهر صورة الغلاف على شكل إطار مزخرف ويظهر اسم اليسيرة في أعلاه وأسفله في إشارة إلى الشكل التراثي الذي يلعب دوراً هاماً في حياة أهل " اليسيرة " وهو أحد الأشكال الثقافية التي شغلت - ولا تزال - حيزاً هاماً في فكر أهل القرية الفلسطينية ، وتتوسط الإطار دوائر سبع تبدأ من دائرة صغيرة قائمة ، وهي التي تعبر عن بداية الكون وفق نظرية الانفجار الكوني (1) - حيث تذهب الرواية إلى أن اليسيرة هي بداية الكون - أما العدد سبعة فلا يخفى ما له من أثر في الفكر البشري ، فهو رقم قد تمتع بمنزلة خاصة عند الكثير من الأمم والشعوب على اختلاف معتقداتها " فنجد في التراث العربي الإسلامي ما يشير إلى الاهتمام بهذا العدد وإعطائه مدلولاً خاصاً يوحي بالتكريم والقداسة . من ذلك ما ورد في أهم النصوص الإسلامية : القرآن الكريم والسنة الشريفة ، نذكر من القرآن أن الله خلق سبع سموات طباقاً . وأكرم نبيه بالسبع المثاني ، وهي سورة الفاتحة دلالة على آياتها السبع ، وقد ورد العدد سبعة في كثير من العبادات فالطواف حول الكعبة سبع مرات والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات ، كذلك رمي الجمرات ، وليلة القدر مرجحة في السابع والعشرين من شهر رمضان . (2) .

• رواية (شهاب)

ورد في المعجم المحيط معنى الشَّهَب : بياض يصدعه سواد ، وسنة شهباء : سنة لا خضرة فيها أو لا مطر (3) وورد معنى الشهاب في المعجم الوسيط : جرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل في جو الأرض اشتعل وصار رماداً . (4) . ونجد أن هذه المعاني قد اجتمعت في شخصية البطل فهو ذلك الوميض الذي يشد الانتباه ولكنه في النهاية عديم الأثر أو الفائدة ، وهو رغم الهالة القدسية والقدرة الخارقة التي حاول أهل اليسيرة أن يضيفوها عليه إلا أن حقيقته البائسة تجلي أمام نور الحقيقة ، إنسان بائس ، أناني ، لم يهتم يوماً بصالح الناس ولم يعبأ بآمالهم . وقد ارتبطت هذه الشخصية بكل تفاصيل الحدث الروائي منذ لحظة الانبهار والانجذاب وحتى لحظة السقوط . وقد ورد في وصف سقوط الشخصية ما يشبه سقوط الشهاب تماماً: " انطلق الصراخ من وسط الساحة وعلا مع الهواء الساخن بخار الماء المتصاعد عمّت الفوضى وسط الساحة والناس حيارى فيما

(1) صافي صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله : 13 / 8 / 2007

(2) العدد سبعة في التراث العربي والإنساني : (الانترنت)

<http://www.yabeyrouth.com/pages/index>

(3) الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) (ت: 817 هـ) ، القاموس المحيط ، ص 96 .

(4) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ص 522 .

يفعلون . " (1) وبذلك تتحقق الصلة الوثيقة بين عنوان الرواية ومضمونها حيث رصدت انطلاق شهاب وما يرافقه من لمعان وانجذاب الناس نحوه حتى سقوطه وعدميته تأثيره وانطفاء جذوته . وتظهر صورة الغلاف على هيئة شهاب ناري مشع ، يخرج من منطقة مظلمة ليكون الأكثر بروزاً في اللوحة ، ويعطي انطباعاً أنه سيحدث أثراً هائلاً حتى إذا ما انتهى مساره إلى الأرض كان تراباً وغباراً لا أكثر ، وهو المعنى العام الذي أراده الكاتب من روايته ؛ فالهالة التي يرسمها الناس لبعض الأشخاص وبينون عليهم الآمال ويربطون بهم المصائر ما هي إلا هالة مؤقتة زائلة كزوال إشعاع الشهاب الساقط بعد وصوله إلى الأرض دون أن يترك أثراً .

• رواية (الكوربة)

وهي " لفظة عامية دراجة في فلسطين تعني المنحنى ، فهل تتحدث الرواية عن

منحنى معين في الجغرافيا أو التاريخ أو المجتمع أو الذاكرة ؟ " (2) .

لقد قامت الرواية على فكرة مركزية وهي التركيز على دور الأفراد واستنهاض الجهد الشعبي الذي يؤهلهم لاجتياز المنعطفات والتحديات السياسية التي تؤثر في التاريخ والجغرافيا والمسيرة الإنسانية ، ومن هنا جاء توظيف العامية في اختيار العنوان . وقد جاء في الرواية بعد أن قام كلٌّ بدوره في إنقاذ الدبابة : " شعر الناس بالارتياح فجهودهم التي بذلوها طيلة النهار وما راح من الليل لم تذهب هدراً ، لقد ساهموا في هذه الحرب ، أنقذوا الدبابة . " (3) كما ورد فيها ما ينتقد تقاعسهم وكسلهم " أنا لا أحب النوم ، ولا أحب النائمين ، نقضي ثلث وقتنا فيه ، لا نفعل شيئاً وأصوات الشهيق والزفير تملو وتتخفص . " (4) . إن تجاوز الأزمات واجتياز المنعطفات الخطيرة في حياة الناس يتطلب جهداً موحداً والتزاماً مسؤولاً بالأدوار التي يقوم بها الأفراد وهي أفكار نجدها ماثلة في كل ثنايا الرواية. وتظهر صورة الغلاف الذي يتضمن منعطفين (كوربتين) بما يحمله من دلالات توحى بالمنحنى أو المنعطف الفكري والمادي . وتبدو صورة جندي عربي يركض في المنعطف الأول في إشارة إلى هزيمة الدول العربية وانسحابها العشوائي وتركها لساحة المعركة في حزيران 1967 .

أما المنحنى الثاني فتظهر فيه صورة فلاح فلسطيني يرتدي لباسه التقليدي ويضع يديه خلف ظهره وهو يعبر المنعطف بترواً وكأنه في حالة تفكير وتدبر لأسباب الوضع الذي آل إليه . أما

(1) صافي صافي ، شهاب ، ص 92 .

(2) علي الخليلي ، رواية " الكوربة " لصافي صافي ، منحنى المكان والزمان في فلسطين ، صحيفة الأيام ، 29 /

8 / 2005 ، ص 5 .

(3) صافي صافي ، الكوربة ، ص 84 .

(4) صافي صافي ، م . ن ، ص 111 .

خلفية الغلاف فتظهر فيها الألوان البنية والخضراء والسوداء في إشارة إلى الريف الفلسطيني وتربته الخصبة . ويظهر كل من الجندي الهارب والفلاح الفلسطيني وحيدين على كل من المنعطفين في إشارة إلى حالة التفكك وانعدام التنسيق والتشردم ، وهي الحالة العربية السائدة في زمن الرواية .

ويصدر الكاتب الرواية بتنويه " أو ما يشبه الاعتذار فيما إذا تطابق النص مع الواقع ولعله في ذلك رغب في إثارة القارئ للإسراع في دفعه إلى هذا النص المتشابه ضمن حيلة التصدير فالمنفي بهذا المعنى هو الثابت ، والمتشابه هو الأصل الأكيد ، ولعله خشي من التشابه فعلاً فسد الطريق سلفاً أمام قيام بعض الأشخاص الحقيقيين عليه ، وهي خشية حقيقية مؤلمة يعرفها ويصطدم بها كتّاب السير والروايات التاريخية المعاصرة في ثقافتنا العربية بشكل عام. " (1) .

وأخيراً يمكن القول أن العناوين في روايات صافي كانت وثيقة الصلة بالمضامين الروائية وتعمل على خلق إحياء يستثير فكر القارئ حول المغزى الروائي ، كما نلاحظ سيادة النمط الاسمي فيها وذلك لأن " الاسم أكثر استقراراً وثباتاً وهو بهذا المعنى معادل للصمود والبقاء أما التركيب الفعلي فربما يوحى بالترشح وعدم الثبات . " (2) .

كما نستطيع القول أن صورة الغلاف في هذه الروايات ليست مجرد صورة جميلة تجذب القارئ وإنما هي دوماً ثقافة بصرية ترتبط بالمضمون ارتباطاً وثيقاً.

(1) علي الخليلي ، رواية " الكوربة " لصافي صافي ، منحى المكان والزمان في فلسطين ، صحيفة الأيام ، 29

/ 8 / 2005 ، ص 5 .

(2) يوسف حطيني ، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية ، ص 121 .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يمكن تسجيل النتائج التالية :

لقد عاش الكاتب بين ظهرائي شعبه وشهد معهم أهم الأحداث المصيرية التي تحكمت في مصائرهم ، فجاءت رواياته معبرة عن همومهم وآمالهم ، وأكسبته هذه المعاشة صدقاً في التعبير وعمقاً في الرؤيا حين تناول صور المجتمع بأبعاده السياسية والاجتماعية .

استفاد الروائي من الأساليب والتيارات الروائية الحديثة وابتعد عن الشكل الوعظي والتعليمي فجاءت رواياته حديثة ومعاصرة على صعيدي الشكل والمضمون .

تنوّعت المضامين الروائية عند الكاتب ، ورغم التزامه بقضايا شعبه وطرحه للهمّ الوطني إلا أنه أفرد حيناً مناسباً في أعماله ليصورّ النسيج الاجتماعي والفكري . وقد ركز في هذا الاتجاه على عدة محاور منها :

1. التأكيد على أهمية الفرد ودوره في إحداث التغيير وإبراز الجوانب الإنسانية في ملامح الفرد كما ورد في الصعود ثانية و الكوربة و الحلم المسروق.

2. أسهب في الحديث عن الغربة ومشاعر الحنين للوطن مصوراً ما يقاسيه المغترب من مشاعر الاغتراب وفقدان البوصلة وظهرت فكرة الصمود في الوطن رغم قسوة ذلك ما بين سطورهِ . وقد ظهر ذلك في رواية الحلم المسروق و الصعود ثانية.

3. الشخصيات الروائية كانت متنوعة ، حيث عبرت شخصياته المسطحة والمدورة عن حركة تفاعل الإنسان مع المجتمع ، كما رسم ملامح المرأة ضمن ظروف مجتمعتها وأبرز دورها في بناء هذا المجتمع وتقدمه ، وعبر عن الطفولة المقموعة وحقها في العيش الهانئ والأمن .

4. برز اهتمام الكاتب بعنصري الزمان والمكان ، حيث صور أهم الأحداث التاريخية التي عصفت بتاريخ شعبه مبيناً تأثيرها الاجتماعي والاقتصادي عليه . وقد طغى المكان (القرية) على اهتمامه حيث وصف مظاهرها الطبيعية وبيوتها وعادات أهلها وطرق تفكيرهم .

5. استخدم الكاتب أساليب سردية متعددة ، وقد طغى استخدام ضمير المتكلم على الراوي في أعماله ، أما الحوار فقد جاء مختزلاً ومعبراً عن بواطن الشخصيات ، كما ساهم في طرح ثقافة الكاتب وفكره .

6. وظّف الكاتب اللغة بمستوياتها المختلفة ما أضفى حيوية على نصوصه وساهم في اقترابه من حياة الناس اليومية.

7. أسهب الكاتب في توظيف التراث والأمثال والأغاني الشعبية، خاصة في الروايات التي كتبها بعد توقيع اتفاقية أوسلو، وكأنه يعمد من خلال ذلك إلى نوع من الحماية للذاكرة الشعبية في الوقت الذي يتعرض فيه المكان للمصادرة والطمس.
8. وظف الكاتب الأسطورة والجنس محاكياً بذلك الفكر الإنساني ومعرزاً لأفكاره الروائية.
9. استطاع الكاتب رغم قلة نتاجه الروائي أن يشغل حيزاً في الرواية الفلسطينية والعربية وقد وصف الأديب عزت الغزاوي أعماله أنها خارجة عن المألوف فيما كتب في الأرض المحتلة منذ العام 1982، كونه يركز على الجانب الاجتماعي ولم يحاول إقحام السياسة أو الشعر بشكل مباشر⁽¹⁾، ولكننا لا نستطيع الحكم على أعماله بشكل نهائي، كونه ما يزال قادراً على إبداع أعمال أخرى قد تختلف شكلاً ومضموناً عن رواياته موضوع الدراسة.
10. لاحظت الدراسة الاهتمام المشترك للروائي مع غيره من الروائيين المحليين بالمكان والأسطورة، حتى غدا ذلك سمة ظاهرة في الرواية الفلسطينية بعد توقيع اتفاق أوسلو، الأمر الذي يشكل بعداً هاماً لدراسة المهتمين بالفن الروائي الفلسطيني.
11. اعتمد الكاتب في نقده للظواهر الاجتماعية والسياسية على التساؤلات التي وظّفها بكثافة وذلك في محاولة لإعادة صياغة الوعي الذي اعتراه الكثير من الوهن والوهم، ولم يبدُ في نقده ناقماً أو متعالياً وإنما كان بعضاً من حزمة الضوء المسلطة على المناطق المعتمدة في النسيج الاجتماعي والسياسي لشعبه من أجل مستقبل أكثر إشراقاً بإذن الله.

تمت بحمد الله وأسأل الله التوفيق

نبيل نعيم عقيلان

(1) عزت الغزاوي، موائئ الرحيل، الأسبوع، العدد (86)، 1992، ص 40.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

القرآن الكريم

1. صافي ، صافي ، "الحاج إسماعيل" ، القدس : اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، 1990 .
2. صافي ، صافي ، "الحلم المسروق" ، القدس : دار الكاتب ، 1991 .
3. صافي ، صافي ، "الصعود ثنائية" ، القدس : دار الكاتب ، 1994 .
4. صافي ، صافي ، "اليسيرة" ، القدس : اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، 1996 .
5. صافي ، صافي ، "شهاب" ، القدس : اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، 2001 .
6. صافي ، صافي ، "الكورية" ، القدس : اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، 2005 .
7. الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) (ت: 817 هـ) ، القاموس المحيط ، ضبط وتوثيق ، يوسف الشيخ البقاعي ، بيروت : دار الفكر للنشر والتوزيع ، 1995 .
8. القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي ، ت 671هـ ، الجامع لأحكام القرآن تحقيق ، عماد البارودي ، خيرى سعيد ، القاهرة : المكتبة التوفيقية .
9. منيف ، عبد الرحمن ، "شرق المتوسط" ، الطبعة الخامسة عشرة ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2006 .

ثانياً : المراجع

1. إبراهيم ، نبيلة ، نقد الرواية ، القاهرة : مكتبة غريب ، 1977 .
2. أبو بكر ، وليد ، صورة العربي في الأدب الإسرائيلي ، الطبعة الأولى ، عمان : دار الكرمل ، 1996 .
3. أبو بكر ، وليد ، الواقع والتحدي في رواية الأرض المحتلة ، الطبعة الأولى دائرة الثقافة منظمة التحرير الفلسطينية ، 1988 .
4. أبو عوف ، عبد الرحمن ، القمع في الخطاب الروائي ، القاهرة : مركز القاهرة لدراسة حقوق الإنسان ، 1999 .
5. أبو مطر ، أحمد ، الرواية في الأدب الفلسطيني (1950 - 1975) ، الطبعة الأولى بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1980 .
6. أبو نضال ، نزيه ، التحولات في الرواية العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2006 .

7. الأزري ، سليمان ، فلسطين في الرواية الأردنية ، الطبعة الأولى ، عمان : دار مجدلاوي ، 2002 .
8. الأسطة ، عادل ، قضايا وظواهر نقدية في الرواية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، عكا : مؤسسة الأسوار ، 2002 .
9. أيوب ، محمد ، الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة بين (1973-1994) ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار سندباد للنشر والتوزيع ، 2001 .
10. أيوب ، محمد ، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، القدس الطبعة الأولى ، 1997 .
11. بحرأوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي ، (الفضاء ، الزمن الشخصية) ، بيروت : المركز الثقافي العربي ، 1990 .
12. البرغوثي ، عبد اللطيف ، الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن ، بيرزيت ، مكتب الوثائق والأبحاث ، 1979 .
13. البستاني ، كرم ، ديوان طرفة بن العبد ، بيروت : دار صادر ، د . ت . ط .
14. جرييه ، آلان روب ، نحو رواية جديدة ، ترجمة : مصطفى إبراهيم ، القاهرة : دار المعارف .
15. حبيب ، نجمة خليل ، النموذج الإنساني في أدب غسان كنفاني ، الطبعة الأولى ، بيروت : بيسان للنشر والتوزيع ، 1999 .
16. حجازي ، أحمد ، موسوعة الأمثال الفلسطينية ، عمّان : دار أسامة ، 2002 .
17. حجازي ، مصطفى ، التخلف الاجتماعي " مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور " الطبعة السابعة ، بيروت : معهد الإنماء العربي ، 1998 .
18. حسن ، عمار علي ، النص والسلطة والمجتمع ، القيم السياسية في الرواية العربية ، القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، 2002 .
19. حسين ، السيد عدنان ، التسوية الصعبة " دراسة في الاتفاقات والمعاهدات العربية الإسرائيلية الطبعة الأولى ، بيروت : مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث 1998 .
20. حطيني ، يوسف ، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية ، دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1999 .
21. الخالدي ، أحمد النقشبندي ، الطرق الصوفية : جامع الأصول في الأولياء ، تحقيق أديب نصر الله ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الانتشار العربي ، 1997 .
22. خواجة ، علي ، إطلالة على مخطوطة روائية " الكوربة " ، دراسة غير منشورة .
23. خواجة ، علي ، جوائز الفحم ، دراسات في روايات أحمد رفيق عوض ، الطبعة الأولى ، رام الله : المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، 2003 .
24. دراج ، فيصل وآخرون ، أفق التحولات في الرواية العربية ، الطبعة الأولى ، عمان : دار الفنون ، 1999 .

25. الديك ، نادي ساري ، علامات متجددة في الرواية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، عكا / فلسطين : مؤسسة الأسوار ، 2001 ، الجزء الأول
26. الديك ، نادي ساري ، محمود درويش : الشعر والقضية ، الطبعة الأولى ، 1995
27. رضوان ، عبد الله ، البنى السردية : دراسات تطبيقية في القصة الأردنية ، الطبعة الأولى ، عمان : مؤسسة عبد الحميد شومان ، 1995 .
28. الرفاعي ، نعيم ، الصحة النفسية ، دراسة في سيكولوجية التكيف ، الطبعة السابعة ، جامعة دمشق ، 1987 .
29. زايد ، عبد الصمد ، المكان في الرواية العربية " الصورة والدلالة " الطبعة الأولى ، تونس : دار محمد علي للنشر ، 2003 .
30. الزعبي ، أحمد ، في الإيقاع الروائي ، نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار المناهل للطباعة والنشر ، 1995 .
31. الزعبي ، أحمد ، التناسل نظرياً وتطبيقياً ، اريد / عمان : مكتبة الكنانة ، 1993 .
32. زعرب ، صبحية عودة ، الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني (1967 - 1997) ، الطبعة الأولى ، عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، 2006 .
33. السعافين ، إبراهيم ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، (1870 - 1967) الطبعة الثانية ، بيروت : دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع ، 1978 .
34. السعافين ، إبراهيم ، تحولات السرد ، دراسات في الرواية العربية ، الطبعة الأولى عمان : دار الشروق للنشر والتوزيع ، 1996 .
35. سلام ، محمد زغلول ، دراسات في القصة العربية الحديثة ، القاهرة : الهيئة المصرية ، 1983
36. سليمان ، نبيل ، فتنة السرد والنقد ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، 1994 .
37. السواح ، فراس ، لغز عشتار : الألوهة المؤنثة وأصل الدين الأسطورة ، الطبعة الثامنة ، دمشق : دار علاء الدين ، 2002 .
38. شبلاق ، رثيفة ، تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996 .
39. شراب ، محمد حسن ، معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، عمان : الأهلية للنشر والتوزيع ، 2002 .
40. شرابي ، هشام ، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1993 .
41. شكري ، غالي ، أزمة الجنس في القصة العربية ، الطبعة الثالثة ، بيروت : منشورات دار الآفاق الجديدة ، 1978 .

42. شكري ، غالي ، أدب المقاومة، الطبعة الثانية ، بيروت : منشورات دار الآفاق الجديدة ، 1971 .
43. الشيبني ، كامل مصطفى ، ديوان الحلاج ، الطبعة الأولى ، ألمانيا : منشورات الجمل 1997 .
44. الصابوني ، محمد علي ، صفوة التفاسير ، القاهرة : دار التراث العربي للطباعة والنشر ،
45. صافي ، صافي ، شهادة ذاتية ، لماذا اليسيرة ، ورقة تم تقديمها في المؤتمر الأكاديمي الأول " الأدب الفلسطيني بين المنفى والاحتلال ، جامعة بيرزيت ، رام الله / فلسطين . " ، 18 / 5 / 1997 .
46. صافي ، صافي ، السيرة والنشأة ، (مقابلة شخصية) ، جامعة بيرزيت ، رام الله / فلسطين 2007 / 8 / 13 .
47. صالح ، فخري ، في الرواية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتاب الحديث ، 1985 .
48. الصالح ، نضال ، نشيد الزيتون ، قضية الأرض في الرواية الفلسطينية المعاصرة ، دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 2004 .
49. الصواف ، محمد توفيق ، الانتفاضة في أدب الوطن المحتل ، دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، 1997 .
50. طه ، المتوكل ، صورة الآخر في الشعر الفلسطيني (1994 - 2004) ، الطبعة الأولى ، رام الله / فلسطين : المركز الفلسطيني للدراسات والإعلام ، 2006 .
51. عباد ، عبد الرحمن ، القصة والأقصوصة الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، باقة الغربية / فلسطين : منشورات شمس ، 1993 .
52. عباس ، إحسان ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، عمان : دار الشروق للنشر والتوزيع ، 2001 .
53. عبد الرحمن ، عائشة ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار المعارف ، 1970 .
54. عبد الغني ، مصطفى ، نقد الذات في الرواية الفلسطينية ، القاهرة : الفجر للطباعة والتوزيع والنشر ، 1994 .
55. عبد الغني ، مصطفى ، الاتجاه القومي في الرواية ، الكويت : عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون ، 1994 .
56. عبد الهادي ، فيحاء قاسم ، نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية ، القاهرة الهيئة المصرية للكتاب ، 1997 .
57. عودة ، علي ، الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا ، الطبعة الأولى ، رام الله ، فلسطين : المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، 2003 .
58. عويس ، وهدان ، أديان البشر ، الطبعة الأولى ، عمان : أزمنة للنشر والتوزيع 2005 .

59. العيلة ، زكي ، المرأة في الرواية الفلسطينية ، رام الله / فلسطين : مركز أوجاريت الثقافي ، 2003 .
60. عياد ، شكري ، الأدب في عالم متغير ، القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر ، 1971 .
61. غنايم ، محمود ، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة ، بيروت : دار الجيل 1992
62. قاسم ، سيزا ، بناء الرواية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، 1985
63. القاسم ، نبيه ، دراسات في الأدب الفلسطيني المحلي ، عكا / فلسطين : منشورات دار الأسوار ، د.ت.ط .
64. لبيب، الطاهر، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، الطبعة الأولى : بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1999.
65. لحمداني ، حميد ، بنية النص السردي من منظور نقدي ، بيروت : المركز الثقافي العربي ، 1993 .
66. الماضي ، شكري عزيز ، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين ، الطبعة الأولى ، عمان : دار الشروق للنشر والتوزيع ، 2003 .
67. الماضي ، شكري عزيز ، في نظرية الأدب ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2005 .
68. مجموعة مؤلفين ، تأملات نقدية في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر ، الطبعة الأولى ، رام الله / فلسطين : منشورات مركز أوجاريت الثقافي ، 2001 .
69. مجموعة مؤلفين ، دراسات في الأدب الفلسطيني ، جامعة القدس المفتوحة ، 2003 .
70. مجموعة مؤلفين ، نحو دراسة تأصيلية للرواية الفلسطينية المعاصرة ، الطبعة الأولى ، القدس : منشورات مركز أوجاريت ، 2000 .
71. مجموعة مؤلفين ، نصوص من الأدب الفلسطيني المحلي ، القدس : اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، 1991 .
72. مرتاض ، عبد الملك ، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد) ، الكويت عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون ، العدد 240 ، كانون الأول ، 1998.
73. مروة ، حسين ، دراسات نقدية ، الطبعة الثانية : بيروت ، دار الفارابي ، 1976 .
74. مقلد ، طه عبد الفتاح ، الحوار في القصة والمسرحية ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة الشباب ، 1975 .
75. مندلاو ، أ ، الزمن والرواية ، ترجمة بكر عباس ومراجعة إحسان عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار صادر للطباعة والنشر ، 1997 .
76. منيف ، عبد الرحمن ، الكاتب والمنفى هموم وآفاق الرواية العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت دار الفكر الجديد ، 1992 .
77. مواسي ، فاروق ، الجنى في النثر الحديث ، الطبعة الرابعة ، القدس : مطبعة الأمل ، 1998 .

78. الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الثاني - الدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ، بيروت: 1990.
79. مينا ، حنا ، هواجس في التجربة الروائية ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الآداب 1988 .
80. ناصف ، مصطفى ، دراسة الأدب العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الأندلس ، 1981 .
81. نجم ، محمد يوسف ، فن القصة ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار صادر للطباعة والنشر . 1996 .
82. النساج ، سيد حامد ، تطور فن القصة القصيرة في مصر (من سنة 1910 إلى سنة 1933) القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، 1968 .
83. نعمة ، حسن ، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر العربي ، 1994 .
84. نوفل ، يوسف ، قضايا الفن القصصي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، 1977 .
85. الهندي ، هاني ، الحزن في الأغنية الشعبية الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، عمان : دار البشير . 2007 .
86. وادي ، طه ، صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار المعارف ، 1980 .
87. وادي ، فاروق ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية " غسان كنفاني ، إميل حبيبي ، جبرا إبراهيم جبرا " ، الطبعة الثانية ، عكا / فلسطين : دار الأسوار للطباعة والنشر ، 1985 .
88. وتار ، محمد رياض ، توظيف التراث في الرواية العربية ، الطبعة الأولى ، دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 2002 .
89. ياغي ، عبد الرحمن ، جولات في النقد الأدبي ، الطبعة الأولى ، عمان : وزارة الثقافة ، 2005 .
90. ياغي ، عبد الرحمن ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ، الطبعة الثانية ، رام الله / فلسطين : منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية ، 2001 .
91. يقطين ، سعيد ، انفتاح النص الروائي ، الطبعة الثانية ، المغرب : المركز الثقافي العربي ، 2001 .

ثالثاً : الصحف والمجلات

1. أبو غزالة ، إلهام ، توأدية القمع لدى صافي صافي " الحاج إسماعيل " : مجلة الكاتب ، القدس فلسطين : عدد 125 ، 1990 .
2. برادة ، محمد ، الكتابة الحرة ومواجهة الإنهيار ، مجلة الكرمل ، مؤسسة الكرمل الثقافية ، رام الله / فلسطين : العدد 82 ، شتاء 2005 .
3. الحاج ، محمد ، صافي صافي من الحاج إسماعيل إلى الصعود ثانية إلى أين ، مجلة نوافذ ، السنة الأولى ، العدد (5) دار الفاروق للثقافة والعلوم ، نابلس / فلسطين : حزيران ، 1991 .
4. الخليلي ، علي ، رواية " الكوربة " لصافي صافي ، منحى المكان والزمان في فلسطين ، صحيفة الأيام رام الله / فلسطين : 29 / 8 / 2005 .
5. صافي ، صافي ، مقالة بعنوان " رؤيتي الكتابية للجانب الاجتماعي في الرواية ، مجلة الحقيقة ، غزة / فلسطين ، 28 / 7 / 1998 .
6. صافي ، صافي ، أتساءل من الذي سرق أعلامنا ، جريدة الحياة الجديدة ، العدد الأول ، رام الله / فلسطين ، 10 / 11 / 1994 .
7. صافي ، صافي ، مقالة بعنوان " رؤيتي الكتابية للجانب الإبداعي في الرواية " مجلة الحقيقة ، غزة / فلسطين ، 28 / 7 / 1998 .
8. صلاح العطار ، محمد ، الصعود ثانية...! النهار الثقافي ، القدس / فلسطين : 20 / 10 / 1994 .
9. ضمرة ، محمد ، مقابلة مع صافي صافي ، جريدة الرأي ، المؤسسة الصحفية الأردنية ، عمان 26 / 3 / 2002 .
10. العلم ، إبراهيم ، بناء الصورة في روايات صافي صافي ، مجلة كنعان ، مركز إحياء التراث العربي ، الطيبة : العدد 79 ، 1996 .
11. عوض ، أحمد رفيق ، صافي صافي في رواية " شهاب " وسؤال الدلالة ، مجلة صوت الوطن ، رام الله : العدد 86 ، 2002 .
12. غزاوي ، عزت ، موانئ الرحيل ، مجلة الأسبوع ، القدس : العدد 86 ، 1992 .
13. الفني ، إبراهيم ، مفاتيح صافي صافي واليسيرة ، جريدة الأيام ، رام الله / فلسطين ، 16 / 4 / 1998 .
14. يقين ، تحسين ، رصد ظاهرة استدعاء الماضي وظواهر أخرى ، مجلة دراسات ، العدد السابع والثامن ، اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، رام الله / فلسطين ، 2001 .
15. يقين ، تحسين ، اليسيرة تروي رحلة الفلسطيني من القبول المطلق إلى الشك النسبي صحيفة الحياة الجديدة ، رام الله ، فلسطين ، الأحد ، 6 / 7 / 1997 .

16. يونس ، جمال ، آفاق المكان في رواية الحاج إسماعيل ، جريدة الأيام ، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر والتوزيع ، رام الله / فلسطين ، 14 / 8 / 1997.
17. يونس ، جمال ، اليسيرة نص يسرح بالمتلقي بين المكان العادي والاستثنائي " صحيفة الحياة الجديدة ، رام الله / فلسطين ، السبت ، 5 / 7 / 1997 .

رابعاً : الرسائل الجامعية

1. الشامي ، حسان رشاد ، (أطروحة دكتوراة) " المرأة في الرواية الفلسطينية " دمشق جامعة تشرين ، 1997 .
2. عبيدات ، حسن قسيم محمد ، (أطروحة دكتوراة) بعنوان " الآخر في الرواية الفلسطينية المعاصرة القاهرة : " جامعة القاهرة ، 2002 .
3. عليان ، محمد يوسف ، رسالة ماجستير " الفن الروائي عند ليانة بدر ، القدس : جامعة القدس ، سنة 2002 .

خامساً : الانترنت

1. جميل حمداوي ، المستنسخات النصية في الخطاب الروائي :
<http://www.alwatanvoice.com/arabic/pulpit.php?go=show&id=66072>
2. زكي العيلة ، أنماط السرد في الرواية الفلسطينية :
<http://www.arab-ewriters.com/?action=showitem&&id=2535>
3. العدد سبعة في التراث العربي والإنساني :
<http://www.yabeyrout.com/pages/index>
4. ناهض زقوت ، الآثار الاجتماعية للنكبة في الرواية الفلسطينية :
<http://www.acrossborders.ps/Portal/ar/khatabo.cfm?name=nakba/social.html>
5. نضال الصالح ، المستوى الأسطوري في رواية حبرا إبراهيم جبرا :
<http://www.nidalsaleh.com/searshes/jabrae.htm>
6. ودناني بوداود ، جمال الغيطاني والرواية الصوفية :
<http://www.islamic-sufism.com/article.php?id=1176>

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	الإقرار
ب	الإهداء
ج	الشكر والتقدير
د	ملخص الدراسة باللغة العربية
و	ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية
ط	المقدمة
	التمهيد
1	المبحث الأول : تطور الرواية الفلسطينية منذ النشأة حتى عام (1993)
2	الرواية التقليدية
2	الرواية الحديثة
4	الرواية التاريخية الحديثة
5	الرواية الجديدة
7	المبحث الثاني : بطاقة تعريف بصافي صافي
7	الاسم والشهرة
7	أولاً: البيئة الخاصة
7	الطفولة
8	تأثير شخصية الوالد
8	تأثير الوالدة
9	تأثير القرية
10	ثانياً: البيئة العامة
11	ثالثاً: التعليم والثقافة
12	رابعاً : حياة الروائي العلمية والاجتماعية
14	الفصل الأول : المضامين الروائية عند صافي صافي
14	المبحث الأول : الحاج إسماعيل
14	تلخيص الرواية

15	ظاهرة القهر الذاتي والجمعي
17	علاقة الأبوة
17	المرأة
19	الطفولة
19	العلاقات الأسرية
20	الغربة
21	الواقع الصحي
23	المبحث الثاني : الحلم المسروق
23	تلخيص الرواية
25	القهر الذاتي والجمعي
26	المرأة
28	الطفولة
29	الآخر
32	الغربة
34	المبحث الثالث : الصعود ثانياً
34	تلخيص الرواية
35	تجربة الاعتقال
36	الآخر
37	النزعة الإنسانية:
39	المرأة
43	المبحث الرابع : اليسيرة
43	تلخيص الرواية
46	ثنائية الإنسان والمكان
49	الآخر
51	المرأة
53	العادات الاجتماعية في الريف
55	المبحث الخامس : شهاب
55	تلخيص الرواية
57	الوهم الشعبي والانحراف الفكري

59	المرأة
60	الآخر :
62	بعض الاتجاهات التي ظهرت في الرواية الفلسطينية بعد اتفاق أوسلو
62	نقد الذات
62	الأسطورة
62	البطل المهزوم
62	النظرة إلى الآخر
64	المبحث السادس : الكورية
64	تلخيص الرواية
66	رحلة اللجوء
69	المرأة
69	الآخر
70	الصعيد الاجتماعي
73	الفصل الثاني : عناصر الأعمال الروائية عند صافي صافي
73	المبحث الأول : عناصر العمل الأدبي في رواية (الحاج إسماعيل)
73	الشخصيات في الرواية
76	الزمان
77	المكان
79	الحبكة والصراع
81	المبحث الثاني : عناصر العمل الأدبي في رواية (الحلم المسروق)
81	شخصيات الرواية
86	الزمان
87	المكان
88	الحبكة والصراع
89	المبحث الثالث : عناصر العمل الأدبي في رواية (الصعود ثانية)
89	الشخصيات
93	الزمان
95	المكان
97	الحبكة والصراع

98	المبحث الرابع : عناصر العمل الأدبي في رواية (اليسيرة)
98	الشخصيات
104	المكان
107	الزمان
109	الحبكة والصراع
111	المبحث الخامس : عناصر العمل الأدبي في رواية (شهاب)
111	الشخصيات
117	المكان
118	الزمان
119	الحبكة والصراع
121	المبحث السادس : عناصر العمل الأدبي في رواية (الكوربة)
121	الشخصيات
126	المكان
128	الزمان
129	الحبكة والصراع
131	الفصل الثالث : ظواهر فنية في روايات صافي صافي
131	اللغة
133	التصوير السردي
133	الاختزال والدلالة
134	المزاوجة بين أساليب الخبر والإنشاء
135	التكرار
135	التشبيه
137	تقنيات القص الروائي
137	السرد
142	ظاهرة استدعاء الماضي
143	الحوار
145	التناسخ
148	توظيف التراث الشعبي
151	توظيف الأسطورة

153	دائرة الجنس
154	دلالة العنوان وصورة الغلاف في الروايات
154	رواية الحاج إسماعيل
155	رواية الحلم المسروق
156	رواية الصعود ثانية
156	رواية اليسيرة
158	رواية شهاب
158	رواية الكوربة
160	الخاتمة
162	قائمة الفهارس والمراجع
170	فهرس الموضوعات